ليون تولستوي

ترجمة إميل بيدس

أَنَّا كارنينا

مراجعة د.جوزيف الياس

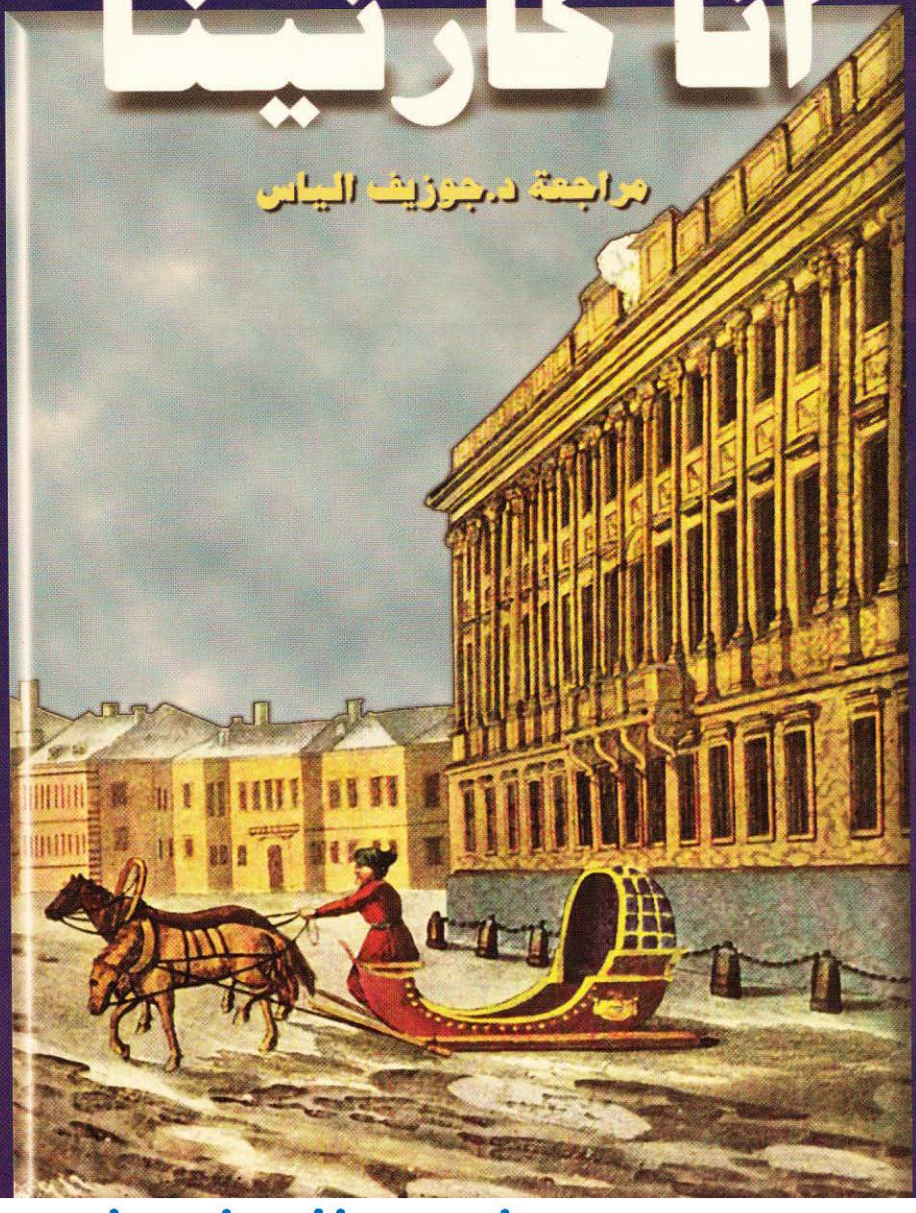

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

دار العلم للملايين

علي مولا

أَنّا كارنينا

ليون تولستوي

ترجمة إميل بيدس

أَنّا كارنينا

ضبطَ لغتَها و وضعَ أسئلتَها و قدَّم لها

د. جوزيف الياس

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية ميتكو، الطابق الثاني
هاتف: ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١) ٣٠٦٦٦٦
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
بيروت ٨٤٠٢ ٢٠٤٥
لبنان
www.malayin.com

جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها - دون إذن خطي من الناشر.

الطبعة التاسعة

٢٠٠٩

«إنّ هذا الكتاب مطابق للأنظمة والقوانين النافذة ومشتمل على مضامين المناهج الصادرة بالمرسوم رقم ١٠٢٢٧ تاريخ ١٩٩٧/٥/٨، وقد جرى تقييمه والموافقة عليه من قبل المركز التربوي للبحوث والانماء لهذه الجهة فقط بالمستند رقم ٣٦٤/ت ك/ ٩٨ تاريخ ١٩٩٨/١٠/٨ وأن المركز غير مسؤول عن الأخطاء التي قد ترد في هذا الكتاب من أي نوع كانت».

مقدِّمة

حين صدرت المناهج التربويّة الجديدة في لبنان سنة ١٩٩٧، جاء في منهج «اللّغة العربيّة وآدابها» بند خاصّ بـ«الثّقافة الأدبيّة العالميّة». وعُلِّل، في الأهداف الخاصّة للمنهج، اختيارُ الآثار الأدبيّة العالميّة للمطالعة الموجّهة في المرحلة الثانويّة، فجاء في التّعليل أنّها اختيرَتْ «لتنمية ثقافة المتعلِّم الأدبيّة بالتّعرُّف إلى نماذجَ من روائع الأدب العالميّ ذات النزعة الإنسانيّة». وهكذا اختيرَتْ رواية أنّا كارنينا (أو: آنا كارنين) للسّنة الأولى الثّانويّة، وخصّص لها نصاب تدريس قدره عشر ساعات من مئة وخمسين ساعةً وهي مجموع نصاب تدريس اللّغة العربيّة وآدابها في السّنة الأولى من المرحلة الثّانويّة.

لقد فكّرنا طويلًا قبل اختيار هذه الترجمة، وتردّدنا بين الشّروع في ترجمة جديدة، واللّجوء إلى إحدى التّرجمات القديمة الموجزة، أو اللّجوء إلى ترجمة مطوّلة، فكانت الخيارات أمامنا جدُّ محدودة. فالتّرجمة الأمينة قد تتعدّى الألف من الصّفحات، وبين يدينا نسخة من هذا النّموذج المطوّل، هي تلك الّتي وضعها الأستاذ صيّاح الجَهيم، ونشرتها وزارة الثّقافة في الجمهوريّة العربيّة السوريّة سنة ١٩٨٤، فجاءت في ثلاثة أجزاء، وفي ما يربو على ألف وأربع مئة صفحة. أمّا التّرجمات الأخرى والأكثر شيوعًا في العالم العربيّ، فمعظمها من النّوع البالغ الإيجاز، حتّى لَتَراهُ أقرب إلى أُنموذج «كتاب الجَيب».

وبعد جهد وتفكير، وأخذ وردّ، وقع اختيارنا على ترجمة معتدلة القطع أو الحجم، وفي موقع وسط، فرأيناها تلائم المستوى التربويّ المطلوب. وهي تلك الّتي وضعها الأستاذ إميل خليل بيدس. والمترجم كاتب وأديب معروف نقل عن الإنكليزيّة عددًا غير قليل من الكتب الأدبيّة. ونحن إذ نذكر المترجم الآن، فالواجب يقتضينا أن نترحّم عليه، بعد أن جاءنا نعيه ونحن نخطّ السّطور الأولى من مسوَّدة هذه المقدّمة، إذ توفّاه الله يوم ١٦ أيلول ١٩٩٨. أمّا التّرجمة الّتي ندرس، أي ترجمة الأستاذ بيدس، فتتألّف من أربعة أقسام رئيسة، فيها تسعة وثلاثون فصلًا وخاتمة.

منهجنا في إخراج هذه التّرجمة إخراجًا تربويًّا ناجحًا، هو الأمانة في الحفاظ على النّصّ، ما دام النّصّ سليم اللّغة منزّهًا عن الرّكاكة واللّحن والعجمة، معبّرًا عن فكر المؤلِّف بيسر وسهولة. فنحن قد عمدنا إلى النّصّ المترجَم، فراجعناه مراجعة لغويّة صرفًا، وتداركنا ما فيه من خلل، وضبطناه بالشّكل ضبطًا تامًّا، وشرحنا من مفرداته ما وجدناه جديرًا بالشّرح، عسيرًا على فهم التّلميذ، ثمّ ذيَّلنا كلّ فصل بطائفة من الأسئلة، فبلغ مجموع الأسئلة في ذيل الفصول والخاتمة ثلاث مئة وأربعة وعشرين سؤالًا.

وحين انتهينا من الفصول والخاتمة تصحيحًا وضبطًا واستثمارًا، وضعنا حول الرّواية طائفة من الأسئلة التّحليليّة العامّة، الّتي بوّبناها تحت خمسة عناوين رئيسة، وبلغ عددها واحدًا وأربعين سؤالًا. وبذلك يكون مجموع ما طُرِح من أسئلة حول الرّواية كلّها ثلاث مئة وخمسةً وستّين سؤالًا.

ولربّما خال الدّارس أو قارئ الرّواية أنّنا توقّفنا هنا واكتفينا بهذا القدر؛ وإذ ذاك يكون من حقّه أن يسألنا المزيد، وأن يتساءل: أين الدّراسة والتّحليل والنّقد وما إلى ذلك؟ والتّساؤل هنا طبيعيّ ومشروع. لذا نقول لزملائنا وإخواننا الأساتذة وأبنائنا الطّلبة إنّ العملَ لم ينتهِ بعدُ، والرّسالة لم تُؤَدَّ على وجهها الأكمل. فإليكم الآن الرّواية بوضعها الحاضر وبالشّكل الّذي انتهت إليه. نقول هذا لمَن شاء أن يكتفي بهذا القدر من العمل، ولمَن اكتفى بما طُرِح حول العمل الرّوائيّ من أسئلة وأخذ ما تبقّى من درس وتحليل على عاتقه. أمّا مَن شاء الاستزادة وطلب إلينا الدّرس والتّحليل، فسيأتيه ما يشاء فور صدور هذه الرّواية، وهو دراسة تحليليّة نقديّة شاملة تصدر في كتيِّب مستقلّ كيلا تؤثّر سلبًا في الرّواية، فتُضعِفَ دور الأسئلة التّحليليّة، أو تفقدها مسوّغ وجودها إن هي أُلحِقت بها.

هذه هي رواية «أنّا كارنينا» أو «آنا كارنين» في لغة بعضهم، فعسى أن يجد فيها أبناؤنا التّلامذة المتعة والفائدة، وأن يجد فيها زملاؤنا الأساتذة ضالّتهم المنشودة وكتابهم الأفضل. والله من وراء القصد

بيروت في ٢٠ أيلول ١٩٩٨ **جوزيف الياس**

الأهداف التّعلُّميّة*

جاء في الأهداف التّعلُّميَّة لمادّة الثقافة العالميّة أنّ تعليم هذه المادّة يهدف إلى جعل المتعلّم قادرًا على:

أ - التّعرّف بنماذج من روائع الأدب العالميّ ذات النّزعة الإنسانيّة المنقولة إلى اللّغة العربيّة.

ب - التّزوّد بقراءة هادفة تعزّر فيه الميل إلى حبّ المطالعة، فيتدرَّب عليها تفسيرًا وتلخيصًا ومناقشةً، إسهامًا في بناء شخصيّته فكريًّا واجتماعيًّا وجماليًّا.

ج - التّمكّن المتدرّج من مقارنة هذه الآثار بما يعرفه من الأدب العربيّ.

د - تنمية خياله وذوقه بنماذج متنوّعة من التّصوير الأدبيّ والمعالجة الفنّيّة.

الوسائل والأنشطة

- إعداد بحث تحضيريّ موجز يتناول سيرة المؤلِّف وأعماله.
- تلخيص الأثر المدروس أو جزء منه.
- توزيع المتعلّمين مجموعات يتولّى كلّ منها دراسة عنصر من عناصر الأثر أو جزء منه ثمّ عرضه ومناقشته.
- إستضافة كاتب أو ناقد وإجراء حوار معه حول الأثر وما يطرحه من قضايا.
- قراءة الأثر ثمّ مشاهدته فيلمًا سينمائيًّا في حال توافره والمقارنة بينهما.
- نقل جزء من الأثر المدروس إلى عمل إذاعيّ أو مسرحيّ في إطار المدرسة.
- إعداد جداول مقارنة بين شخصيّات الأثر المدروس.

(*) «تفاصيل محتوى منهج مادّة اللّغة العربيّة وآدابها»، التّعميم ٢٩/م/٩٧، ١ آب ١٩٩٧، ص ٥٢.

تولستوي (Tolstoï)

أوّلًا - حياته

ولد ليون نيكولايڤيتش تولستوي يوم ٢٨ آب ١٨٢٨ في «ياسنايا پوليانا» من أعمال مقاطعة «تولا» في روسيا القيصريّة، وفي بيت عريق النّسَب، إذا كان أبوه يحمل لقب «الكونت» وأمّه تحمل لقب «الأميرة». بيد أنّ أمّه تُوُفِّيت وهو في الثّالثة، فأُسندت تربيته إلى إحدى عمّاته. وبعد سنوات قليلة تُوُفِّي الأب، فوُضِع أولاده تحت وصاية عمّتهم، ثمّ أقاموا سنة ١٨٤١ عند عمّة أخرى.

إلتحق تولستوي سنة ١٨٤٤ بكلّيّة اللّغات الشّرقيّة، لكنّه ما لبث أن عدل عنها في العام التّالي إلى كلّيّة الحقوق. ثمّ ترك الجامعة قبل أن ينهي دراسة الحقوق، وعاد إلى «ياسنايا پوليانا» ليدير أملاكه الشّاسعة ويعيش حياة الملاّكين الكبار.

إلتحق سنة ١٨٥١ بجيش القوقاز، وتدرّج في الرّتب حتّى بات مؤهّلًا لرتبة ضابط، وشارك في العمليّات الحربيّة ضدّ المتمرّدين القوقاز.

شرع يكتب سنة ١٨٥١، وفي العام التّالي بدأ ينشر في مجلّة «المُعاصِر» الجزء الأوّل من سيرته الذّاتيّة تحت عنوان «طفولة».

وفي سنة ١٨٥٤، انتقل تولستوي إلى «جيش الدانوب» حيث رُقّي إلى رتبة ملازم، ثمّ أُلحِق - بناء على طلبه - بجيش القرم، وشهد حصار سيباستبول. وفي سنة ١٨٥٥ شرعت مجلّة «المعاصر» تنشر الجزء الثّاني من سيرته تحت عنوان «مراهَقة»، كما نشرت له بعض أقاصيص الحرب. وفي السّنة التّالية (١٨٥٦)، استقال من الجيش وعاد إلى «ياسنايا پوليانا»، وهناك تابع كتابة القصص ونشرها.

وفي العام ١٨٥٧، كانت بداية أسفار تولستوي إلى الخارج، حيث جال في بضعِ دول

أوروبيّة. ولمّا عاد إلى روسيا كتب ينتقد الغرب متّهمًا إيّاه بالماديّة والبعد عن الرّحمة والإنسانيّة. وفي أواخر هذا العام، نُشِر الجزء الثّالث من سيرته تحت عنوان «شباب». وتابع الكتابة الأدبيّة في العامَيْنِ التّاليَيْنِ، فنشر بعض أقاصيصه، وأبرزها «ألبير» (١٨٥٩).

غادر تولستوي روسيا سنة ١٨٦٠ في سفرة ثانية إلى الخارج، فزار معظم بلدان أوروبّا الغربيّة، واطّلع على مناهج التّعليم الابتدائيّ في الغرب، فرفض النُّظُم التربويّة الأوروبيّة لاعتمادها على الإكراه.

عاد تولستوي إلى بلاده ليُعيَّن عضوًا في لجنة الوساطة، وحَكَمًا في الخلافات الّتي نجمت عن مرسوم إعتاق «القِنّ»[1]؛ لكنّه ما لبث أن استعفى في العام التّالي (١٨٦٢) من عضويّة اللّجنة، وانصرف إلى التّعليم في مدرسته؛ ثمّ أنشأ مجلّة تربويّة حملت اسم «أيا سنايا پوليانا» لنشر مبادئ نظامه التربويّ.

تزوّج تولستوي سنة ١٨٦٢، وانصرف في السّنوات التّالية إلى إدارة أملاكه، فاشترى أراضيَ جديدة، واهتمّ بتربية الماشية. بيد أنّه تابع، في الوقت نفسه، نشاطه الأدبيّ، فنشر عددًا من القصص أهمّها «القوزاق». ثمّ يمّم وجهه شطر العمل الرّوائيّ المطوّل، فشرع في كتابة روايته «الحرب والسّلم»، الّتي بدأت تُنشَر فصولًا في مجلّة «المُراسل الرّوسي» سنة ١٨٦٥، ثمّ نشرت كاملة سنة ١٨٦٨.

إنقطع تولستوي بعد «الحرب والسّلم» عن التّأليف القصصيّ زمنًا انصرف فيه إلى تعلّم اليونانيّة وقراءة آثار أعلامها، ثمّ إلى الهمّ التربويّ ووَضْعِ كتابٍ جديدٍ فيه لتعليم الفلاّحين. وفي عام ١٨٧٣، عاد تولستوي إلى العمل الأدبيّ، وعكف على كتابة «أنّا كارنينا» الّتي صدرت فصولًا على صفحات «المُراسل الرّوسي» قبل أن تنشر كاملة في كتاب سنة ١٨٧٨، وتولستوي يومئذ في الخمسين من العمر، وتلاها في العام التالي (١٨٧٩) كتاب «اعتراف» الّذي صوّر أزمته النفّسيّة والدينيّة والأخلاقيّة.

وفي السّنوات اللّاحقة، توالى صدور مؤلّفات تولستوي الّتي حمل في معظمها على الظّلم الاجتماعيّ، والجور، واستبداد الطّبقة الحاكمة، والإكليروس الأرثوذكسيّ. ونذكر من تلك المؤلّفات: الكنيسة والدّولة (١٨٨١)، مختصر الإنجيل (١٨٨٣)، الجيفة الحيّة

(١) القِنّ (جَمعُهُ أَقْنان): العَبدُ المَمْلوكُ الّذي يُباعُ ويُشْرى معَ الأرضِ الّتي يعمل فيها.

(١٨٩٠)، القيامة (١٩٠٠). وفي العام ١٩٠١ حرمت الكنيسة الأرثوذكسيّة تولستوي بقرار صارد عن المجمع المقدّس؛ فما كان من هذا إلاّ أن أذاع في العام التّالي «نداء إلى رجال الدّين»، حمل فيه بعنف على الإكليروس الأرثوذكسيّ. ثمّ صدر له سنة ١٩٠٣ كتاب في نقد شكسبير والمسرح. واستمرّ ينشر في السّنوات التّالية، أو سنوات الشيخوخة، مقالاته الثّائرة، فشجب الحرب الرّوسيّة اليابانيّة، وعارض ثورة العام ١٩٠٥ لأنّها قائمة على العنف، وانتقد أحكام الإعدام الجماعيّة.

وفي أواخر شهر تشرين الأوّل ١٩١٠، هرب تولستوي من منزله في أياسنايا پوليانا ليعيش وفق مبادئه، لكنّه أصيب بالتهاب رئويّ حادّ، وتُوُفّي بعد أيّام (يوم ٧ تشرين الثاني)، فأُعيد جثمانه إلى مسقط رأسه حيث دُفِن هناك.

ثانيًا - شخصيَّتُه وتفكيره

تولستوي أديب إنسانيّ النّزعة، ورائد من روّاد الفكر الاشتراكيّ العالميّ. وقد تباينت الآراء والأقوال فيه، فجعله بعضهم في مصافّ الاشتراكيّين المصلحين، وجعله بعض آخر في مصافّ الثّائرين المهدّمين. ارتقى فيه بعضهم إلى مصافّ الفلاسفة والأنبياء، وأنزله بعضهم مصافّ زعماء الفوضويّة[1]، مع أنّه يخالف في مناحي تفكيره ما يذهب إليه الفوضويّون. إنّه يختلف عن هؤلاء في وجوه عديدة، ومع ذلك أمكن اعتباره من بعض الوجوه فوضويًّا، لأنّه كان يحلم بتنظيم المجتمع بلا ملكيّة ولا دولة، لكنّه خالف الفوضويّين في سعيه إلى هذا الهدف من غير عنف. فقد وجد تولستوي خلاص روحه في جوهر الدّين وليس في القشور أو الطّقوس والمظاهر. وما يدهشك في موقف تولستوي هذا أنّ الرَّجل من طبقة النّبلاء في روسيا، وأنّ الرَّجل إقطاعيّ وأرستقراطيّ يحمل لقب كونت. فقد ورث ثلاث مئة فدّان من الأرض يعمل فيها ثلاث مئة وثلاثون فلاّحًا. وإذا به يصل إلى وقت يتنازل فيه عن أملاكه ولقبه وعاداته الموروثة، ويأكل كالفلاّحين، ويرتدي زيًّا كأزيائهم، ويرتق ثوبه بيده.

---

(١) L'Anarchisme. مذهب سياسيّ يدعو إلى إلغاء سلطة الدولة والملكيّة الفرديّة، فهو مذهب «الفوضى الكُلِّيَّة في غياب السلطة المنظِّمة»، وزعيمه ميخائيل باكونين (Bakounine).

ما من شكّ في أنّ «الحرب والسّلم» و«أنّا كارنينا» وضعتا تولستوي في مصافّ مُبدعي العالم وعظماء الفكر. بيد أنّ الدّويّ الذي أحدثه اسم الرَّجل، وما زال يحدثه، ليس نتيجة أدبه وفنّه فحسب، وإنّما هو نتيجة تلك الحياة الفريدة الملأى بالفواجع الإنسانيّة، الممثِّلة أعمقَ ما يخالج القلب الإنسانيّ من شكّ قاتم وقلق معذِّب، ونزوات نحو الإيمان لا تعرف لظمئها ريًّا. فما وصل تولستوي إلى منتصف العمر حتّى وجد أنّه أفرغ مجهوده الفكريّ وبلغ أبعد مدى لعبقريّته الفنّيّة، فإذا به ينقلب بين عشيّة وضحايا من مغرم بالفنّ مفتون به إلى حانقٍ عليه مزدرٍ له.

لقد صار همّ تولستوي أن يبحث عن طريق للخلاص غير طريق الفنّ والإبداع، فحمل على شكسبير ومسرحه، وكتب رسالة يتهكّم فيها بالشِّعر والموسيقى، ويسأل: بم يعود الشِّعر والموسيقى على الشّعب الجائع الرّازح تحت نير الجهل والذّلّ والفاقة؟ ولماذا تُنفق الأموال الطّائلة على مسرحيّة موسيقيّة في دار الأوبرا؟ أمن أجل أن يأتي بعد العشاء أولئك الأثرياء المترفون المتخمون ليصفّقوا مدّة ساعتين، ويعودوا بعد ذلك إلى جحورهم. إنّها لحياة حقيرة حقًّا.

لقد استخلص تولستوي أخيرًا أنّ على الأغنياء والمثقّفين التّخلّي عن هذا البذخ لأنّه كماليّ بالنّسبة إليهم، ولا ينالونه إلاّ بحرمان الشّعب قوتَه الضّروري. لذا نراه يقترح أن يعمل الأغنياء والمثقّفون لسدّ حاجاتهم الضّروريّة، كي يتسنّى للشّعب أن ينصرف إلى تحصيل ما يسدّ رمقه. وهكذا قرّر تولستوي أن يكون القدوة لغيره، فترك المدينة، وشمّر عن ساعديه ليربّيَ مواشيه ويزرع أرضه كفلّاح بسيط. بيد أنّ الرَّجل لم يكتفِ بذلك، فنزل إلى أرض الواقع، ودخل صميم حياة الشّعب، وراح يجوس ليلًا أحياء موسكو القذرة، كي يتعرّف بالآلاف من ضحايا الحياة الّذين ينامون على الأرصفة وفي منعطفات الأزقّة. وعاد تولستوي من جولاته اللّيليّة، فإذا هو رجل جديد مختلف، وإذا بنَفَس جديد يلفحه ويخفق في صدره؛ إنّه نَفَس النّبوّة. وهكذا هجر الفنّ والإبداع، ولم يعد يبالي بأن يصف الحياة بمهارة الفنّان وصدق نظرته، بل أصبح همّه أن يغيّر الحياة بسطوة النّبي وعنف لهجته، وما عاد هذا الرَّجل العظيم يفتح فاه إلاّ ليشاجر ويخاصم، لِيُنْذر ويتوعّد، ليصبّ حمم سخطه على كلّ مَن خالفه في الرّأي ونمط الحياة.

ولطالما تساءل بعض الدّارسين والنّقّاد: فيم أفاد غضب تولستوي ووعده ووعيده؟ فقد رأى كثيرون منهم أنّ مواعظه ضاعت في الهواء، وأنّ صرخاته الّتي تشبه صرخات أنبياء التّوراة قد ذهبت سدًى. فقد أحسّ بالدّاء ولم يهتد إلى الدّواء، وشعر بفساد الحياة، لكنّه إذ أخذ يحارب هذا الفساد، وجد نفسه يحارب غريزة الحياة. وفي آراء بعض المفكّرين الاشتراكيّين أنّ تولستوي لم يقترح للقضاء على الشّرّ غير الخير السّلبيّ، والخير السّلبيّ لا ينزع الشّرّ ولا يقضي عليه. فقد رأى هؤلاء أنّه اقترح الاستسلام وعدم المقاومة، وقبّح العنف والثّورة، بيد أنّ غريزة الحياة كانت أقوى من مواعظه، وهي الّتي انتصرت آخر الأمر أيًّا تكن الآراء في صحّتها ومدى صوابها. ومع ذلك يرى معظم دارسي شخصيّة تولستوي أنّ الشّطر الأخير من حياة الرّجل كان وما يزال أروع مثال لحيرة النّفس الكبيرة وقلقها.

إنصرف تولستوي، في طور الشّيخوخة، انصرافًا كلّيًّا إلى الشّعب الرّوسيّ، ولا سيّما الفلّاح، فهمُّه إشباعُه، وتعليمه، وتحريره. وهكذا بات الشّعب مثاله الأرضيّ، مثلما كان المسيح مثاله الأعلى، وباتت محبّته الشّاملة مستمدَّة من رسالة المسيح وتعاليمه، وركناها الأساسيّان محبّة الله ومحبّة القريب.

كثرتِ الأقوال في تولستوي، وتباينتِ الآراء فيه، فمن يكون الرجل؟ أهو أديب، أم فنّان مبدِع، أم ثائر، أم لاهوتيّ، أم فيلسوف، أم حكيم، أم تُراه يجمع بين هؤلاء جميعًا؟ ثمَّة شبه إجماع على أنّ تولستوي ثائر، وفوضويّ، ومسيحيّ مؤمن، وفيلسوف، إنّما على طريقته الخاصّة.

لقد ترك تولستوي بصمات واضحة على صفحة الفكر الرّوسيّ، والمجتمع الرّوسيّ، في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكان من أبرز المفكّرين (غير العقائديّين) الذين مهَّدوا بأطروحاتهم الفكريّة للثّورة البلشفيّة.

أَنّا كارنينا (Anna Karénine)

حين أُخطر تولستوي، في كانون الثّاني ١٨٧٢، بوقوع حادث مفجع في محطّة للقطار قرب «أياسنايا پوليانا»، لم يكن يخطر في باله أنّه سيرى عشيقة أحد ملّاكي الجوار السّيّدة آنا بيروغوف جثّة هامدة مقطّعة الأوصال، بعد أن ألقت بنفسها تحت عجلات القطار منتحرة. وفي تلك اللّحظة ومضت في رأس تولستوي فكرة خاطفة، لعلّها كانت الشّرارة الّتي قدحت زناد فكره وقلمه، وألهمته موضوع روايته.

بدأ تولستوي كتابة أَنّا كارنينا سنة ١٨٧٣، واستغرق تأليفها نحوًا من أربع سنوات. فقد بدأت مجلّة «المُراسل الرّوسي» نشرَ فصولها الأولى سنة ١٨٧٥، واكتمل نشر هذه الفصول سنة ١٨٧٧، بيد أنّ القسم الأخير من الرّواية لم يظهر على صفحات «المُراسل الرّوسي» لأنّ محرّر المجلّة رفض نشره بسبب آراء تولستوي، فاضطُرَّ هذا إلى طبعه على نفقته. ثمّ نُشِرت الرّواية كاملة في كتاب سنة ١٨٧٨، وتولستوي يومئذ في الخمسين من عمره. وقد جاء نشر أَنّا كارنينا بعد مضيّ نحو عشرين عامًا على ظهور رواية فرنسيّة مماثلة، هي «مدام بوڤاري» (Madame Bovary) الّتي نشرها الأديب الفرنسيّ غوستاف فلوبير (G. Flaubert, 1821-1880) سنة ١٨٥٧، وروى فيها قصّة امرأةٍ خلعتِ العِذار، ثمّ أنهت حياتها بالانتحار.

أَنّا كارنينا أثر أدبيّ عالميّ وإنسانيّ خالد، تُرجِم إلى معظم لغات العالم، وأُعيد طبعه مئات المرّات. وقد تباينت آراء النّقّاد في هذه الرّواية، فوُضِعت فيها دراسات كثيرة راوحت بين الإعجاب التامّ والرّفض النسبيّ، إن لم نقل التّامّ. فمَن أُعجب بها قد أُعجب لأنّه رأى فيها عصارة فنّ تولستوي وخاتمة أعماله الكبرى، ومَن انتقدها فحملَ عليها قد حملَ لأنّه رأى فيها خللًا فنّيًّا، ورأى أحداثًا ثانويّة كثيرة تواكب الحدث الرئيسيّ وتكاد تطغى عليه. وهذه حال النّاقد راتشنسكي[1] الّذي لام المؤلّف على تخلخل البناء باعتباره العيب

(١) من مقدّمة «ألكسندر سولوفييف» للتّرجمة التي نشرتها وزارة الثّقافة بدمشق سنة ١٩٨٤، ص ٢٢.

الأساسيّ في الرّواية. بيد أنّ النّقّاد كافّةً أجمعوا على أنّ هذه الرّواية هي عصارة جهد تولستوي، ورأوا فيها الكثير من نفس تولستوي، ومن آرائه ومُثُله وتجاربه الشخصيّة التي يجسّدها غالبًا البطل الريفيّ ليفين، ويجسّد بعضها ألكسيس كارنين. كما رأوا فيها لوحة رائعة تصوّر المجتمع الرّوسيّ في أدقّ مرحلة من مراحل تاريخه، فتكشف علله وتناقضاته وطبقيّته وتقليده للغرب، واكتشفوا فيها نفحة إنسانيّة لا مثيل لها في الأعمال الرّوائيّة الأخرى، وجهاد نفس لا مثيل له في البحث عن الحقيقة.

تأتي «أَنّا كارنينا» بعد رواية «الحرب والسِّلم» شهرةً وأهمّيّةً وحجمًا، لكنّها أكثر إثارة للجدل من تلك. فإذا كانت «الحرب والسِّلم» قد أرَّختِ البطولة الرّوسيّة في وجه الغزو الأمبراطوريّ الفرنسيّ، فإنّ «أَنّا كارنينا» أرَّختِ الحياة الاجتماعيّة الرّوسيّة، ولا سيّما حياة النّخبة. فأحداث الرّواية ساحة تتحرّك في رحابها طبقة من النّبلاء الرّوس الّذين ودّعوا نظام القَنانة (سنة ١٨٦١)، وانتقلوا من الإقطاع القديم إلى أرستقراطيّة جديدة، جمعت بين إرث الإقطاع وقِيَم المجتمع الرأسماليّ. وهي أرستقراطيّة ترعرت على يد الأرستقراطيّة الأوروبيّة الغربيّة، فترسّمت خطى النّخبتَيْن الفرنسيّة والبريطانيّة، وبات النّبلاء الرّوس «يرطنون» في مجالسهم بالفرنسيّة، وإذا قرأوا كانت قراءتهم بالفرنسيّة والإنكليزيّة.

تطفو على سطح الحدث في أَنّا كارنينا نماذج بشريّة متنوّعة، معظمها مريض مرض الطّبقيّة، مرض النّبل، مرض الإرث الثّقيل، والنّماذج البشريّة هذه هي غالبًا نماذج مهتزَّة غير سويَّةٍ، تتفاعل في داخلها صراعات كثيرة، أبرزها ما بين القلب والعقل أو بين الحبّ والواجب، وما بين القديم والجديد، وما بين العبوديّة والعدالة أو المساواة، وما بين القشور واللّباب، وما بين تخلُّف الإكليروس وحركة التّنوير في أوساط المثقّفين الرّوس.

وفي رواية «أَنّا كارنينا»، ثمّة مجال رحب أمام تولستوي كي يسخر، وينتقد، ويتهدَّد، ويتوعّد، ويهاجم، ويعظ، ويبشّر. ولا عجبَ إذا ما انتهى القارئ إلى أنّ تولستوي في هذه الرّواية مؤمن في العمق، ولاهوتيّ كبير، إنّما على طريقته. فهو ما فَتِئَ يبشّر بالمحبّة، ويذوب رحمةً، ويغفر لمن أساء إليه، ويرفض أن يكون أوّل مَن يرمي الزّانية بحجر. بيد أنّه بقي في مسألة الزّواج مقيَّدًا بحدود الشريعة والقانون.

القسم الأوَّل

الفصل الأوَّل

مَنْشأُ السَّعادةِ نِعمةٌ، والشَّقاءُ مَنْشؤُهُ نِقمةٌ.
السَّعادةُ وليدةُ أُمٍّ، والشَّقاءُ لَهُ أَلفُ أُمٍّ.
العائلاتُ السَّعيدةُ تَرتَعُ في جَنَّةٍ، والعائلاتُ الشَّقِيَّةُ تَتَمَرَّغُ في أَلفِ جَحِيمٍ.
أَسبابُ السَّعادةِ تَتَشابَهُ، وأَسبابُ الشَّقاءِ تَتَفَرَّعُ إلى أَغْصانٍ وأَفنانٍ.

كانَتْ عائلةُ «أوبلنسكي» مُضطربةً غاضَتْ سَعادتُها، وتَلاشى اسْتِقرارُها، وحَفَّ بها الشَّقاءُ مِن كُلِّ جانبٍ.

فالزَّوجُ حادَ عن الصِّراطِ، والزَّوجَةُ اكْتَشَفَتْ ما نَزَعَ إليهِ قَلبُ قَرينِها، فقد كَلِفَ[1] بالمُرَبِّيةِ الفَرَنْسيَّةِ الحَسْناءِ الَّتي كانَتْ ترعى أَولادَ الأُسرةِ كَلَفًا شَديدًا، وهامَ بها حُبًّا، وعاشَرَها مُعاشَرَةَ الأَزْواجِ.

وشاعَ الحُزْنُ في قَلْبِ المَرأَةِ المَخْدوعَةِ، فشَعَرَتْ بالمَهانَةِ، وأَحسَّتْ بتقوُّضِ الآمالِ[2]، وجهَرَتْ بعزمِها على صَدِّ زَوجِها عنها، والانْفِرادِ بعَيْشِها، وكأَنَّها لم تُبْعِلْ[3] ولم تُنْجِبْ أَوْلادًا!

وانْقَضَتْ أَيَّامٌ ثلاثةٌ عَمَّتْ خِلالَها الفَوضى، وسادَ الارْتِباكُ، وانحلَّتِ الأَواصِرُ[4]، وانفَكَّتِ الصِّلاتُ، ونَبَتَ أَنْ لا مَنْدوحةَ للزَّوْجَيْنِ مِنَ الانْفِصالِ.

واغتَنَمَ الأطفالُ فُرصةَ الجَفاءِ المُسْتَحكِمِ، فَعَبثوا ما شاء لَهُمُ العَبَثُ، وسَبَّبوا للخَدَمِ مِنَ المَتاعِبِ ما اضْطَرَّهُمُ إلى التَّفْكيرِ بِتَرْكِ الخِدْمةِ، والبَحْثِ عن بَيْتٍ آخَرَ يُظَلِّلُهُ الوِئامُ ويَسودُهُ

(١) كَلِفَ بالمُرَبِّيةِ: أَحَبَّها وتَعَلَّقَ بها.
(٢) تَقَوُّضُ الآمالِ: انْهِدامُها وضَياعُها.
(٣) لم تُبْعِل: لم تَكُنْ ذاتَ بَعْلٍ (زَوْج) أي لم تَتَزَوَّجْ.
(٤) الأَواصِر: مُفْرَدُها آصِرَةٌ وهي صِلَةُ القَرابَة.

الاتِّفاقُ والسَّلامُ.

ولاَذَتِ[1] الزَّوجةُ بغُرفَتِها فلم تَبْرَحْها، وهامَ الزَّوْجُ على وَجْهِهِ وَجَعَلَ يَقْضي سَحابةَ نَهارِهِ مُتَنَقِّلًا مِن مَكانٍ إلى مَكانٍ. فإذا ما قَفَلَ راجِعًا، قَضى لَيْلَهُ في غُرْفةٍ أُخرى غيرِ مَخْدَعِهِ.

وفي صَباحِ اليَوْمِ الثَّالِثِ لِنُشوبِ النِّزاعِ استَيْقَظَ الأَميرُ «ستيفانُ أوبلنسكي» مِن نَومِهِ كما اعْتادَ أَنْ يَسْتَيقِظَ كُلَّ صَباحٍ، فتثاءَبَ وتَمَطَّى، واسْتَعادَ إلى الذَّاكرةِ صُوَرًا مِن الحُلْمِ الَّذي أَلَمَّ بِهِ، والأَشباحِ الَّتي طَوَّفَتْ بمُخَيِّلَتِهِ، ثُمَّ تَذكَّرَ فَجْأَةً أَنَّهُ لا يَنامُ إلى جانِبِ زَوْجِهِ، بل على الأَريكةِ الجِلْدِيَّةِ في مَكْتَبِهِ. فَتَمَلْمَلَ في مَكانِهِ مُتَضوِّرًا[2]، إلَّا أَنَّهُ عَادَ فانْطَرَحَ على وَجْهِهِ، وما عَتَّمَ بَعْدَ قَليلٍ أَن دَفَنَ رَأْسَهُ في الوِسادةِ، وغاصَ في لُجَّةِ الفِكْرِ...

فَتَذَكَّرَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ السَّوْداءَ الَّتي حَوَّلَتْ حَياتَهُ إلى جَحيمٍ... وصَاحَ وَهْوَ يَرى ما جَرى، بصَوْتِ اليائسِ الوَلْهانِ: «إنَّها أَصْعَبُ مِراسًا مِنْ كُلِّ امْرأةٍ سِواها، ولن تَغْفِرَ لي، لن تُغْضِيَ[3]، لن تَنْسى».

لقد عادَ في تِلكَ اللَّيْلةِ التَّعِسَةِ مِن مَلْعَبِ التَّمثيلِ وَهْوَ يَمْشي بزَهْوٍ وخُيَلاءَ، ولا يكادُ يَطَأُ الأَرْضَ عُجْبًا وسَعادةً، ودَلَفَ إلى البَيْتِ بخُطاهُ الثّابتةِ وفي يَدِهِ إجّاصَةٌ كبيرةٌ ناضِجةٌ.

وبَحَثَ عن زَوْجِهِ فلم يَجِدْها في الرَّدْهةِ الَّتي اعتادَ أَنْ يَجِدَها فيها كُلَّ لَيْلةٍ؛ فوَلَجَ غُرفةَ المائدةِ، فلم يَلْقَها هُناكَ أيضًا. وَهَجَسَتْ نَفْسُهُ وَحَدَّثَتْهُ بالشَّرِّ، أَلَيْسَ مُذنِبًا هُوَ؟ أَلا يُحِسُّ المُذْنِبُ بما يَنْتَظِرُهُ؟ أَلا يَلْمُسُ مَوْطِنَ الخَطَرِ قَبْلَ أَنْ يَفْطَنَ إلى الخَطَرِ الماثِلِ[4] أَحَدٌ؟

حَدَسَ هُوَ ما جَرى، ولمّا دَخَلَ مَخْدَعَها، أَيْقَنَ أَنَّ تَكَهُّنَهُ قد أَصابَ كَبِدَ الحَقيقةِ، وها هِيَ زَوْجَتُهُ تَحْمِلُ في يَدِها ذٰلِكَ الكِتابَ الملعونَ الَّذي أَماطَ لها اللِّثامَ عن قِصّةِ الخِيانةِ.

ووَجَبَ[5] قَلْبُهُ وَجيبَ الذُّعْرِ والهَلَعِ، فَتَمَعَّنَ في وَجْهِها، ولٰكِنَّهُ لم يَجِدْ فيه إلَّا اصْفِرارًا

---

(١) لاذَتْ بغُرْفَتِها: لجَأَتْ إليها.
(٢) مُتَضَوِّرًا: مُتَوَجِّعًا.
(٣) لن تُغْضيَ: لن تَسْكُتَ عن زَلَّتي، لن تَغُضَّ الطَّرْفَ.
(٤) الخَطَرُ الماثِلُ: الخَطَرُ القائِمُ أَمامَهُ.
(٥) وَجَبَ قَلْبُهُ: خَفَقَ.

وكَمَدًا وحُزْنًا يَكادُ يَنْفَجِرُ مِن كَثْرتِهِ. ولكِنَّهُ كانَ مَرِحًا بطَبيعتِهِ، لا يَحْمِلُ الهَمَّ إلَّا فَيْنَةً، ولا يحزنُ إلَّا هُنَيْهةً، ويَضْحَكُ إذا أَلَمَّتِ المَصائِبُ، ويُقَهْقِهُ إذا حَلَّتِ الخُطوبُ.

وقَالَتِ امرأَتُهُ بصَوْتٍ أَجَشَّ صارِمٍ: «أَنْتَ هُنا؟ أَنْتَ أَيُّها الإنسانُ الغادِرُ! قُلْ، أَجِبْ... ما هٰذا الكِتابُ؟»

فَفَغَرَ فاهُ[1]، وحَمْلَقَ إلَيْها مِن دونِ أَن يُجيبَ... ثُمَّ ابْتَسَمَ ابْتِسامةً بَلْهاءَ، ونَقَّلَ طَرْفَهُ بَينَ زَوجِهِ والكِتابِ الَّذي كَشَفَ لها انْحرافَهُ وارتماءَهُ في أَحْضانِ المُتْعةِ المُحرَّمةِ، وجُنوحَهُ إلى الفُجورِ يَخْتَلِسُهُ اخْتِلاسًا وَيَنْتَهِبُهُ انتِهابًا في غَفْلةٍ مِن زَوْجِهِ، ومِن دونِ أَنْ يَزَعَهُ وازِعٌ[2] مِن ضَميرٍ، أو يَصرِفَهُ حافِزٌ مِن شَرَفٍ.

وابتَسَمَ ابتِسامةً بَلْهاءَ، فكانَتْ ابتِسامَتُهُ كَلِمةَ القَضاءِ... لقد حَكَمَ بها على نَفْسِهِ فدانَها وخَطَّأَها، واكْتَفَتْ زَوجُهُ واقْتَنَعَتْ.

وتَنَفَّسَ الصُّعَداءَ وهْوَ يُفَكِّرُ الآنَ في مُصيبَتِهِ، ويُنْحي على ابتسامتِهِ تِلكَ باللّائمةِ، ويَتَساءَلُ والحَيرةُ مُسْتَحوذةٌ على مَشاعِرِهِ، عَن أَنجَعِ الطُّرُقِ الَّتي تُذَلِّلُ هٰذِهِ العَقَبَةَ فتُلاشي الخِصامَ وتُزيلُ القَطيعةَ.

تساءَلَ مَليًّا، ثُمَّ فَكَّرَ، وقَدَحَ زِنَادَ الفِكْرِ، ولٰكِنَّهُ لم يَهْتَدِ إلى حَلٍّ لمُشْكِلتِهِ، وقالَ يُحَدِّثُ نفسَهُ بلَهْجَةٍ تَشِفُّ عن طيبَتِهِ وصَراحتِهِ: «لقد هَدَمْتُ صُروحَ أَحْلامي، وكَدَّرْتُ لَذَّةَ الحياةِ لي ولأَولادي، ولن يُجدِيَ مَعَها الكَلامُ... لن تُذْعِنَ... ومَهْما جَهَدْتُ في حَلِّ هٰذِهِ العُقْدةِ فلن أَجِدَ لها انْحِلالًا، وستَرى زَوْجي كُلَّ قَوْلٍ أَقولُهُ إفْكًا[3] وضَلالًا».

---

(١) فَغَرَ فاهُ: فَتَحَ فَمَهُ.

(٢) يَزَعُهُ وازِعٌ: يمنَعُهُ مانِعٌ.

(٣) إفْكًا: كَذِبًا.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.
٢ - ما الحَدَثُ الَّذي افْتَتَحَ بِهِ تولستوي روايتَه؟
٣ - ما الَّذي فكَّكَ أَواصرَ أُسرَةَ الأَميرِ أوبلنسكي؟
٤ - لمَ فكَّرَ الخدمُ في تَرْكِ الخِدمةِ لَدى أُسرةِ أوبلنسكي؟
٥ - بمَ امتازتْ شخصيّةُ ستيفان أوبلنسكي؟
٦ - ماذا في الكتابِ الَّذي رآه ستيفان في يَدِ زوجهِ؟
٧ - علامَ دَلَّتِ ابْتِسامتُه البَلْهاءُ؟
٨ - ما العُقْدَةُ في هذا الفصلِ مِنَ الرّواية؟ وما الحلُّ الَّذي تَتَوقَّعُهُ لها؟
٩ - أَوْجِزْ مَضْمونَ الفَصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الثَّاني

كانَ ستيفانُ رَجُلًا صَادِقًا في ما بينَهُ وبينَ نفسِهِ، ولهٰذا لم يَكُنْ في وُسْعِهِ التَّغْريرُ بهٰذِهِ النَّفْسِ وخَدْعُها، وإقْناعُها بأَنَّهُ نَادِمٌ على زَوَغانِ ضَميرِهِ عَنِ المَحَجَّةِ[1].

وكانَ في الرّابعةِ والثّلاثينَ مِن عُمُرِهِ، وكانَتْ زَوْجتُهُ في الثّانيةِ والثّلاثينَ، وقد رُزِقَ منها سَبْعَةَ أَطْفالٍ ماتَ مِنْهُمُ اثْنانِ.

وغَشِيَهُ مِنَ الهَمِّ، وهْوَ يَضْرِبُ مِنَ الحَيْرةِ أَخْماسًا لِأَسْداسٍ[2]، ما لم يَبْلُ[3] مِثْلَهُ مِن قَبْلُ، فقد فَكَّرَ في أَوْلادِهِ، وفَكَّرَ في امْرَأَتِهِ، وفَكَّرَ في نفسِهِ! ولم يَكُنْ مَبْعَثُ هَمِّهِ عَدَمَ مَيْلِهِ إلى زَوْجتِهِ، بل كانَ مَثارُهُ نَدَمَهُ على الاقترانِ بها!

ولو تَكَهَّنَ أَنَّ خِيانَتَهُ ستُحْشى بَشرٌ وغَدْرٍ، لو داخَلَ حِسَّهُ أَنَّ عَلاقَتَهُ الأَثيمةَ ستُنْسيهِ طَعْمَ الرّاحةِ، لفَكَّرَ مِرارًا قَبْلَ أَنْ يَقْتَحِمَ الصِّعابَ، ولحَرَصَ كَثيرًا حتّى لا يَنْكَشِفَ السِّتْرُ، فيُجَشَّمَ هٰذِهِ العَواقِبَ، ويَبْلُوَ هٰذا العِقَابَ.

بَيْدَ أَنَّهُ لم يَتَّبِعْ طَرِيقَ العَقْلِ، ولَعَلَّهُ كانَ يَظُنُّ في زَوْجتِهِ مِنَ القَناعةِ ببَيْتِها ووُلْدِها ما يَصْرِفُها عنهُ وعن مَباذِلِهِ. وما يَجْعَلُها لا تَحْفِلُهُ أو تَكْتَرِثُ لفُسْقِهِ. وذَهَبَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ كُلَّ مَذْهَبٍ، فكانَ يَثِقُ أَنَّها تَتَغاضى عَنْهُ حتّى يَنْقَعَ غَليلَهُ، وأَنَّها تُغْمِضُ عَيْنَيْها كي يَنْجَحَ أَرَبُهُ مَعَ امْرَأَةٍ سِواها، فيَظَلَّ الرَّجُلَ المُسْتَسْلِمَ لها بصِفَتِها رَبّةَ الدّارِ، المُنْصَرِفَ عنها بصِفَتِهِ يَهْوى الحُسْنَ والدَّلالَ!

واستوى جالِسًا، وأَخَذَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ ويَقولُ: «هٰذا مُريعٌ! وإنّي أُحِسُّ بالخَبالِ والوَبالِ،

---

(١) المَحَجَّةُ: الطَّريقُ المُسْتَقيم.

(٢) يَضْرِبُ أَخْماسًا لأَسداسٍ: يُفَكِّر محاوِلًا الخروجَ من مَأْزِقٍ، وهو مَثَلٌ شائع.

(٣) لم يَبْلُ مِثلَهُ: لم يُجرِّبْ مِثلَهُ، لم يُعانِ مِثْلَهُ.

وبضَيْعةِ الآمالِ... أَلَيْسَ مِنَ السُّخفِ والأَفَنِ[1] أَنْ يَعْشَقَ الإِنْسَانُ مُرَبِّيَةً أو خادِمةً؟ ولَكِنْ... ولَكِنْ... أَيُّ مُرَبِّيَةٍ هِيَ؟! أَيُّ مُرَبِّيَةٍ؟!».

وافتَرَّ ثَغرُهُ عن ابْتِسامةٍ رَضِيَّةٍ، وأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ، وحَلَّقَ في عالَمِ الأَحْلامِ، وكأَنَّهُ يَرى جَسَدَ المُرَبِّيَةِ الغَضَّ، ووَجْهَها النّاصِعَ النّاعِمَ، وعَيْنَيْها المُشْرِقَتَيْنِ الصّافِيَتَيْنِ...

وهَتَفَ على حِينِ غِرَّةٍ: «أَينَ المَفَرُّ؟ وما العَمَلُ حتّى أَصونَ نَفسي مِنَ الانْهِيارِ؟».

وتَحَيَّرَ يَتَلَفَّتُ يَمْنةً ويَسْرةً، ثُمَّ دَقَّ الجَرَسَ، فهُرِعَ إِلَيْهِ خادِمُهُ «ماتفي»، ذٰلِكَ الشَّيْخُ المُخْلِصُ الوَدودُ، يَحْمِلِ إِليهِ بِزَّتَهُ وحِذَاءَهُ. ويَحْمِلُ أيضًا إِليهِ بَرْقِيَّةً. وتَبِعَهُ الحَلّاقُ داخِلًا وهْوَ «يَشيلُ» عُدَّةَ الحِلاقةِ، كما لو كانَ طَبيبًا يَحْمِلُ أَوائلَهُ ومُعَدّاتِهِ!

ورَنا أوبلنسكي إِلى خادِمِهِ مُسْتَطْلِعًا، وقالَ: «ما وَرَاءَكَ يا ماتفي؟ أَلَدَيْكَ أَوْراقٌ يَجْدُرُ بي قِراءتُها؟»

فبادَلَهُ الخادِمُ نِظْرَةَ العَطْفِ والتَّفاهُمِ والحَيْرةِ، وأَجابَ: «هُناكَ على المِنْضَدةِ بَعْضُ الأَوْراقِ يا سَيّدي... أَمَّا الآنَ، فاقْرَإِ البَرْقِيَّةَ أَوَّلًا».

وفَضَّ أوبلنسكي البَرقِيَّةَ، وما كادَ يَطَّلِعُ على مُحْتَوَياتِها، حتّى هَتَفَ بارْتِياحٍ: «أَيْ ماتفي، شُكْرًا للهِ! إِنَّ أُخْتِي قادِمةٌ في الغَداةِ، إِنَّ أُخْتي «أَنّا كارنينا» قادمةٌ لتَمْكُثَ مَعَنا رَدَحًا مِنَ الزّمانِ». ورَدَّدَ الخادِمُ قَوْلَ سَيِّدِهِ: «شُكْرًا للهِ».

وكأَنَّهُ يَوَدُّ لَو يُؤَيِّدُ سَيِّدَهُ في استِبشارِهِ بقُدومِ شَقيقتِهِ وتَفاؤُلِهِ بحُلولها بَيْنَ ظَهْرانَيْهِمْ.

وعادَ الخادِمُ يقولُ مُتَسائِلًا: «أَآتِيةٌ وَحْدَها؟»

فلم يَتَسَنَّ لِسْتيفانَ أَنْ يَرُدَّ، فقد كانَ الحَلّاقُ حينئذٍ يُمَرِّرُ الموسى على ذَقْنِهِ. ولٰكِنَّهُ رَفَعَ إِصْبَعَهُ، ففَهِمَ الخادِمُ أَنَّها قادِمةٌ مِنْ دونِ زَوْجِها.

ولم يَلْبَثْ أَنْ قَالَ: «وهل أُجَهِّزُ لها الغُرفةَ العُليا؟»

فأَجابَهُ ستيفانُ: «سَلْ زَوْجتي (داريا ألِكْسندروفنا)».

فقالَ الخادِمُ في تَعَجُّبٍ واضطِرابٍ: «أَسْأَلُها!؟»

---

(١) الأَفَن: نَقْصٌ في العَقْلِ والرَّأْيِ.

- «أَجَلْ، وخُذْ لَها البَرْقِيّةَ».

ومَضى الخادِمُ يُقَدِّمُ رِجْلًا ويُؤَخِّر أُخْرى إلى حُجْرةِ المَرْأَةِ المَهيضةِ الجَناحِ. وعَكَفَ ستيفانُ على ارتِداءِ مَلابِسِهِ.

ولمّا قَفَلَ[1] الخادِمُ راجِعًا، بَدا مِنْ تَقْطيبتِهِ وعُبوسِهِ أَنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا لم يُحْكِمْهُ. ولمّا نَطَقَ قالَ بلِسانٍ مُتَلَعْثِمٍ يَنِمُّ عن أَسَفِهِ وحُزْنِهِ: «لَقد أَعْطَيْتُها البَرْقِيَّةَ، فلم تُعْنَ بِقِراءتِها، بل قالَتْ إِنَّها مُرْتَحِلَةٌ وإِنَّ الحياةَ في المَنْزِلِ لن تَروقَ لها بَعْدَ اليَومِ».

وكأَنَّ الخادِمَ رَماهُ بثالثةِ الأَثافيِّ[2] بكلماتِهِ تِلْكَ، فأَسِيَ وحَزِنَ، ثُمَّ ابْتَسَمَ كما يَبْتَسِمُ دائمًا في وَجْهِ الخُطوبِ، وقالَ مُحتارًا: «لقد أَخْفَقَ المَسْعى، فما العَمَلُ؟»

فصَعَّدَ فيهِ الرَّجُلُ بَصَرَهُ وأَجابَ: «أَوْلى بكَ أَنْ تُسَلِّمَ المَسْأَلَةَ لِلقَدَرِ، فالزَّمانُ كَفيلٌ بحَلِّ أَعْقَدِ المُشْكِلاتِ».

وصَمَتَ، وذَهَبَتْ بِهِ أَفْكَارُهُ كُلَّ مَذْهَبٍ. ولمّا انْفَثَأَ[3] حُزْنُهُ، وسَكَنَ قَلَقُهُ، الْتَفَتَ إلى خادِمِهِ الواجِمِ المُتَرَقِّبِ. وإِذ هُوَ يَهِمُّ بالكَلامِ وَلَجَتْ عليهِ المَكانَ الحاضنةُ «ماترينا فليمونوفنا» وعليها ثَوْبٌ واسِعٌ فَضْفاضٌ.

ومَعَ أَنَّ ستيفانَ أَطاعَ دَواعيَ الحُبِّ وخَفَرَ عَهْدَ زَوْجِهِ، كانَ أَهْلُ البَيْتِ وَخَدَمُهُ جَميعًا يَعْطِفونَ عليهِ ويَشْعُرونَ مَعَهُ ويَوَدُّونَ لو يَجتازُ هٰذِهِ العَقَبَةَ الكَأْداءَ مُنْتَصِرًا مُظَفَّرًا.

دَخَلَتِ الحاضنةُ وفي أَمائِرِها ما يَنِمُّ عن هَمٍّ بَرَّحَ بها استِعارُهُ. وأَنْشَأَتْ تَقولُ وَهْيَ تَكادُ تَنْشِجُ: «سَيِّدي! أَرى أَنْ تُحاوِلَ... حاوِلْ كَرَّةً أُخرى... إِنّي أَعوذُ بِكَ، فافْعَلْ ما يُخمِدُ نارَ كَرْبِها، ويَفْثَأُ لَهيبَ حُزْنِها... اِفْعَلْ ذٰلِكَ - ناشَدْتُكَ اللهَ - مِن أَجْلِ بَيْتِكَ وأَطفالِكَ... فَعَلْ ذٰلِكَ حتّى يَنْسَرِيَ[4] هَمُّنا جَميعًا ويَرْفَضَّ غَمُّنا!».

فاهتَزَّ الرَّجُلُ مِن شِدّةِ الانفِعالِ، وأَجابَ وهْوَ يُنَكِّسُ رَأْسَهُ: «إِنَّها تَأْبى مُخاطَبتي فَضْلًا عن مُقابَلتي، فما العَمَلُ؟ ماذا أَصْنَعُ؟»

---

(١) قَفَلَ راجِعًا: عادَ راجِعًا.

(٢) رماهُ بثالِثَةِ الأَثافيّ: أي رماهُ بمُصيبَةٍ تُكَمِّلُ ما قبلَها من مَصائِبَ.

(٣) انْفَثَأَ حُزْنُهُ: خَفَّتْ حِدَّتُهُ.

(٤) يَنْسَري هَمُّنا: يَنْكَشِفُ ويَزولُ.

قالَتْ: «ما يُحتِّمُهُ عليكَ الواجِبُ؛ فاتَّبِعْ مَشورةَ ذِهْنِكَ، لأَنَّ الاستِسلامَ للأمرِ الواقعِ لا يُجدي، ولأَنَّ التَّحَرُّقَ على نارِ الحُزْنِ والنَّدامةِ لا يَنفَعُ في مِثلِ هٰذِهِ الحالةِ».

قَالَ: «أَنْتِ ذَلِقةُ اللِّسانِ يا عَزيزتي، ماهِرةٌ في الأَداءِ. فاذْهَبي الآنَ، وسأَفْعَلُ اللَّازِمَ!»

وما لَبِثَ بَعْدَ ذَهابِها أَنْ ضَمَّخَ نَفْسَهُ بالطِّيبِ، وسَرَّحَ لَحْظَهُ مِنَ النّافذةِ هُنَيهَةً كالُمفكِّرِ، ثُمَّ دَلَفَ إِلى حُجرةِ المائدةِ بخُطُواتٍ ثابتةٍ مَرِحةٍ، ووَجْهٍ مُتَأَلِّقٍ يَنْضَحُ بالبِشرِ والاطْمئنانِ!

أسئلة تحليلية

١ – ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ – هل فكَّرَ أوبلنسكي في عَواقِبِ خيانتِهِ لزوجِهِ؟ وماذا كانَ يصنَعُ لو فَكَّرَ؟

٣ – هل تَراهُ في هذا الفصلِ نادمًا على ما فعلَ؟

٤ – كيفَ كانَتْ مواقفُ الخَدَمِ من أَزمَةِ أَسيادِهِم؟ أَكانوا شامتينَ، أَم كانوا آسفينَ راغبينَ في رأبِ الصَّدعِ؟ كيفَ تُعلِّل رأيَكَ؟ وما نَظرتُكَ إلى مواقِفِهِمْ؟

٥ – أَتستطيعُ أن تُضيفَ صفاتٍ أخرى إلى شخصيّة ستيفان أوبلنسكي؟ وما هي؟

٦ – لِمَ استبشر أوبلنسكي بمَقْدَمِ أُختِهِ أَنّا؟

٧ – أَوْجِزْ مَضمونَ الفَصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الثَّالث

ما كانَ ستيفانُ أوبلنسكي رَجُلًا ذا وَجْهَيْنِ، وما كانَ مُنافِقًا مُخادِعًا؛ ولٰكِنَّهُ كانَ يَتْبَعُ بغريزتِهِ مَنْ تَرْجَحُ كِفَّتُهُ وَيشْتَدُّ ساعِدُهُ. فَهُوَ مُواظِبٌ على قِراءةِ صَحيفةِ حِزْبِ الأَحْرَارِ، حَريصٌ على تَتَبُّعِ أَنْبائِها في كُلِّ صَباحٍ... ولا يَرْجِعُ ذٰلِكَ إلى مُشَايَعتِهِ لمبادىءِ حِزْبٍ دونَ حِزْبٍ، أو لمُظاهَرتِهِ لما يُنادي بهِ فَريقٌ دونَ فَريقٍ، بل لأَنَّ كِفَّةَ هٰذا الحِزْبِ كانَتْ هِيَ الكِفَّةَ الراجحةَ وصَحيفتُهُ كانَتِ الصَّحيفةَ المُنْتَشِرةَ على أَوْسَعِ نِطاقٍ.

وما كانَ لِسْتيفانَ أوبلنسكي نظرةٌ بارعةٌ في عالَمِ الفَنِّ والأَدَبِ، ولا رأْيٌ سَديدٌ في مَجال السِّياسةِ، لهٰذا اكتفى بأَن يَكونَ تابعًا لتِلْكَ الأَغْلَبِيَّةِ القَويّةِ، يَتَلَوَّنُ بَحَسَبِ لَوْنِهَا، ويَتَقَلَّبُ وَفْقًا لِتَقَلُّبِها، تَمامًا كما كانَ مَوْقِفُهُ إزاءَ قُبَّعتِهِ كُلَّما قَدُمَتْ وحالَ لَوْنُها...

ومَنْ يَعْلَمُ؟ لَعَلَّ حالتَهُ الخاصّةَ في بَيتِهِ، جَعَلَتْهُ أَيْضًا يَميلُ إلى الأَحرارِ، ويُشايِعُهُمْ، ويُؤَيِّدُهُمْ، ويُصَفِّقُ لَهُمْ.

مَنْ يَدْري؟ لَعَلَّ مَعيشتَهُ الخاصّةَ ولَهْفَتَهُ إلى نَيْلِ الحُرِّيّةِ والانطِلاقِ مِنْ قُيودِ الزَّوْجِيّةِ، هِيَ الحافِزُ له على المُنَاداةِ بمبادىءِ الأَحْرارِ والتَّغَنّي بِفَلْسفَتِهِمْ!

مَنْ يَدْري؟ لَعَلَّ أَعْبَاءَ الدُّيونِ الكثيرةِ الَّتي رَزَحَ تَحتَ ثِقْلِها جَعَلَتْهُ يَعُوجُ[1] بَقَلْبِهِ ولُبِّهِ إلى ناحيةِ الأَحْرارِ!

أَلَمْ يُنادِ هٰذا الحِزْبُ بضرورةِ تجديدِ النِّظامِ، والعُرْفِ، والقانونِ، والسِّياسةِ، والحياةِ بِرُمّتِها؟

أَلَمْ يُنادِ بضرورةِ إزالةِ شَوائِبِ الماضي؟ ودُيونُهُ، أَلَيْسَتْ مِنْ أَقْذَرِ الشّوائِبِ؟!

أَلَمْ يَجْهَرْ حِزْبُ الأَحْرارِ بضَرورةِ تَعديلِ قانون الزَّواجِ؟ فلِمَ لا يَبْدَأُ هٰذا المَبْدَأُ عَينَهُ

(١) يَعوجُ: يَميلُ.

قُرَّةً[1]، وهْوَ مِن أَشْقى الأَزْوَاجِ؟

أَلَمْ يَسْخَرْ حِزْبُ الأَحْرارِ مِنَ الدِّيْنِ، ويَسْتَهْجِنِ الصّلاةَ والعِبادةَ؟ وهْوَ قد طالما تَبَرَّمَ[2] مِنِ اضْطِرارِه للمَكْثِ فترةً طَويلةً يَسْتَمِعُ فيها إلى مَوْعِظةٍ حَسَنةٍ، ويُصْغي إلى كلامٍ مُنَمَّقٍ عَنِ الدُّنْيا والآخرةِ... وما جَدْوى ذٰلِكَ؟ أَلا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْسى الآخِرَةَ لِيَسْعَدَ في العاجلةِ؟ فلِمَ يُذَكِّرُهُ رَجُلُ الدِّينِ إذًا بهٰذِهِ النِّهايةِ وهٰذِهِ الخاتمةِ؟

ثُمَّ، أَلَيْسَ لِحِزْبِ الأَحْرَارِ تِلْكَ الرُّوحُ المَرِحةُ الطَّيِّبةُ الفَكِهةُ الَّتي تَدَعُ رِجالَهُ البارزينَ يُطْلِقونَ النُّكْتةَ مِنْ دونِ خَوْفٍ أو مُبالاةٍ؟ لقد كتَبَ أَحَدُ قادَةِ الحِزْبِ في جَريدةِ الحِزْبِ، فقال: «أُنْظُروا إلى رَسْمِ الأَميرِ «رورك»، ثُمَّ احْكُمُوا على داروينَ. أَلَيْسَ هُوَ على حَقٍّ في نَظَرِيّتِهِ!».

وأَلْقى أوبلنسكي الجَريدة مِنْ يَدِهِ ووَضَعَ قُبَّعتَهُ على رأسِهِ وتَأَهَّبَ لِيُغادِرَ بَيْتَهُ.

ولٰكِنَّهُ تَلَفَّتَ حَوْلَهُ مُحْتارًا، وتَرَيَّثَ مُتَمَلْمِلًا وتَساءَلَ: «أَثَمَّةَ أَمْرٌ نَسِيتُهُ؟ أَهُناكَ ما يَخْلُقُ بي تَنْفيذُهُ؟».

وجَاءَهُ الجوابُ في إهابِ وجهٍ أَطَلَّ عليهِ- وَجْهٍ مُقَطَّبٍ تَسُحُّ[3] مِنْ عَيْنَيْهِ الدُّموعُ.

فضَرَبَ على جَبْهتِهِ بيَدِهِ وعَلِمَ أَنَّهُ لم يَنْسَ إِلَّا زَوجَهُ. لم يَنْسَ إِلَّا أَهَمَّ ما كانَ عليهِ أَنْ يَذْكُرَ.

فَهَل يَسعى إِلَيْها؟ هل يَتَقَرَّبُ مِنها؟ وشَعَر باشْمِئْزَازٍ. هَلِ اشْمَأَزَّ مِنها أو مِنْ نفسِهِ أو مِنْ هٰذِهِ المُقابَلَةِ؟

إِنَّهُ واثِقٌ مِنْ أَنَّ شَيئًا لن يُعيدَ المِياهَ إِلى مَجاريها، أو يَرْأَبَ الصَّدْعَ[4] أو يُلاشيَ غَضَبَ زَوْجِهِ ويَأْسِها.

وتَناهى إِليهِ في تِلكَ اللّحْظةِ أَصواتُ صَخَبٍ وضَجيجٍ، فأَدرَكَ أَنَّ أولادَهُ يَلْعَبونَ في

---

(١) قُرَّةُ العَينِ: سُكونُها وراحَتُها.
(٢) تَبَرَّمَ: مَلَّ وضَجِرَ.
(٣) تَسُحُّ الدُّموعُ أو نحوُها: تَنْصَبُّ وتَنْسَكِبُ.
(٤) يَرْأَبُ الصَّدعَ: يُصْلِحُهُ.

الحَديقةِ، وأَيْقَنَ أَنْ لا بُدَّ ممّا ليسَ مِنْهُ بُدٌّ. ونَقَّبَ في دِماغِهِ المُضْطَرِبِ عن مَخْرَجٍ لِهٰذِهِ المُشكلةِ فسُدَّتْ في وَجْهِهِ المَنافذُ والأَبْوابُ، ولٰكِنْ ما ذَنْبُ الأَوْلادِ؟ ما ذَنْبُ أَطْفالِهِ الأَبْرِياءِ؟

وهَزَّ رَأْسَهُ ولَوَّحَ بيَدِهِ، ثُمَّ مشى إِلى مَخْدَعِ زَوْجِهِ بَعْدَ أَنْ أَشْعَلَ سيجارتَهُ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - حدِّدِ الشَّخصيَّةَ السِّياسيَّةَ لِأوبلنسكي.

٣ - ما العواملُ الَّتي جَعَلَتْهُ يميلُ إلى حزبِ الأَحرارِ؟

٤ - ما معنى قولِ أَحَدِ قادةِ حزبِ الأَحرارِ: «انظُروا إلى رسمِ الأَميرِ ثُمَّ احكُموا على داروين. أَلَيْسَ هو على حقٍّ في نَظَريَّتِهِ؟»

٥ - ما الصِّفةُ الجَسَديَّةُ الَّتي تراها في شَخصيَّةِ الأَميرِ «رورك»؟

٦ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسْطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الرَّابع

وَقَفَتْ داريا أَلِكْسَنْدروفنا بينَ أكوامٍ مِنَ الأَمْتِعةِ والمَلابِسِ وهْيَ مُتَلَفِّعةٌ بثِيابِ السَّفَرِ. وكانَتِ الأَفْكارُ قد هاجَتْ هَمَّها وبَرَتْ[1] وَجْهَها، وكانَ شَعْرُها المُدَبَّسُ[2] يَنْطِقُ بذاتِ نفسِهِ عن ماضٍ لهُ مَجيدٍ، وكان وَجْهُها الشّاحِبُ النَّحيلُ يُنْبِئُ بما عانَتْهُ صاحِبتُهُ مِنْ مَضَضٍ.

فلمّا وَلَجَ زَوْجُها عليها الغُرفةَ، حاوَلَتْ أَنْ تَرمُقَهُ بنَظرةِ احتِقارٍ واستِهْجانٍ، ولٰكِنَّها أَخْفَقَتْ في جُهودِها، واغْرَوْرَقَتْ عَيْناها بالدُّموعِ. فكَرِهَتْ أَنْ تَسْتَوْكِفَها[3]، فأَشاحَتْ عَنْ زَوْجِها، وهْيَ تَشْعُرُ بالخَوْفِ والوَجَلِ والإِشْفاقِ.

كانتَ تَخافُهُ، وكانَتْ تَرْتَجِفُ فَرَقًا[4] كُلَّمَا فَكَّرَتْ في هٰذِهِ المُقابلةِ المحتومةِ بَعْدَ انْكِشافِ أَمْرِهِ.

ولَطالما وَطَّنَتِ النَّفسَ في الأَيّامِ الثّلاثةِ المُنصَرِمةِ أَنْ تُغادِرَ البيتَ، ولَطالما رَتَّبَتْ أَمرَها وحَزَمَتْ رَأْيَها وجَمَعَتْ مَلابِسَها وملابِسَ أَوْلادِها وهْيَ تُزْمِعُ على الانفِلاتِ إلى مَنْزِلِ أُمِّها والإِقامةِ فيهِ، ولٰكِنَّها كانَتْ تَنْهارُ وتَتَهافَتُ، ويَغْشاها مِنَ الشَّجَنِ ما يَفُتُّ في عَضُدِها[5] ويُوهِنُ عَزيمتَها. وما أَكْثَرَ ما اسْتَلْقَتْ على الأَريكةِ في كُلِّ مَرّةٍ انتابَ إرادَتَها التّخاذُلُ، وتأَوَّهَتْ وزَفَرَتْ، ثُمَّ قالَتْ تُحدِّثُ نفسَها: «مِنَ المُحالِ استمرارُ الحالِ على هٰذا المِنْوالِ، ولا مَندوحةَ لي عَن إِتيانِ ما يُظْفِرُني بأَرَبي ويُنيلُني طَلَبي. يَجِبُ أَنْ أُذِلَّهُ وأَقْهَرَهُ؛ يَجِبُ أَنْ أَنْتَقِمَ مِنْهُ!»

---

(١) بَرَتْ وَجْهَهَا: أَضْعَفَتْها، أَهْزَلَتْها.

(٢) شَعْرُها المُدبَّسُ: الّذي له لَونُ الدِّبْسِ.

(٣) تَسْتَوْكِفُ الدُّموعَ: تَسْكُبُها.

(٤) الفَرَق: الخَوْف.

(٥) يَفُتُّ في عَضُدِها: يُضْعِفُها.

وقد أَتْعَبَها فِكْرُها، فعَوَّلَتْ على وَضْعِ حَدٍّ لهٰذِهِ العَلاقةِ، ولٰكِنْ، كيفَ؟ كيفَ تَصِلُ إلى هَدَفِها، وهَدَفُها كَريهٌ مَمْجوجٌ؟ كيفَ يُطاوِعُها قَلْبُها، وقَلْبُها رَقيقٌ مُرْهَفُ الإحْساسِ؟

وفَوْقَ ذٰلِكَ، ماذا تَفْعَلُ بالعادةِ؟ لقد مَضَتْ سِنونَ عليهِما وهُما زَوْجانِ سَعيدانِ، يَعيشانِ تحتَ سَقْفٍ واحِدٍ، وتَنْقُلُهُما الأَيّامُ تارةً مِنَ التَّفاؤُلِ إلى التَّشاؤُمِ، ومِنَ الفَوْزِ إلى اليَأْسِ، وتارةً أُخْرى تَقْفِزُ بِهِما مِنْ حُرقةِ الكُرَبِ وشِدَّتِها إلى راحةِ الطَّرَبِ والسُّرورِ والبَهْجَةِ.

إنَّه زَوْجُها على رَغْمِ الحَوائِلِ كافّةً، إنَّهُ زَوْجُها على رَغْمِ ما خامَرَ خاطِرَها مِنْ خِيانتِهِ وغَدْرِهِ، وهُوَ والِدُ أَطْفالِها الخَمسةِ، ولو شاءَتْ أَنْ تَقْطُنَ في بَيْتِ أُمِّها، فهل يَتَسَنّى لَها اصطِحابُ أَوْلادِها جَميعًا؟

ومَعَ ذٰلِكَ فما انفَكَّتْ طيلةَ الوَقْتِ تَسْتَعِدُّ وتَسْتَعِدُّ، وتُعِدُّ الثِّيابَ وتُجَهِّزُ الأَمْتِعةَ، وتُعيدُ التَّرتيبَ مِنْ أَوَّلِهِ، وتُعيدُ التَّنْفيذَ مِنْ بَدْئِهِ. فهل كانَتْ تَخْدَعُ مَشاعِرَها؟ هل كانَتْ تُغَرِّرُ بنَفْسِها؟ وهل كانَتْ تُزْمِعُ البَقاءَ وتَنْوي الرَّحيلَ في آنٍ واحِدٍ؟

وأَحَسَّتْ بزَوْجِها يَدْخُلُ، فَغَيَّبَتْ يَدَها في خِزانَةٍ لِلثِّيابِ، وكأَنَّها تُريدُ مِنْها شيئًا لاسْتِكمالِ الأُهْبةِ.

ووَقَفَ الرَّجُلُ، والْتَفَتَتْ هِيَ إلَيْهِ، وعَبَّرَتْ نَظْرتُها عن دَهْشةٍ وتَعَجُّبٍ وحَيْرةٍ، مَعَ أَنَّها كانَتْ تَوَدُّ لَو تُطالِعُهُ بوَجْهٍ مُرْبَدٍّ وعَيْنينِ صارِمتَيْنِ قاسِيتَيْنِ، يَفِيضُ مِنْهُما الاحْتِقارُ والازْدِراءُ.

وقالَ بصَوتٍ خَفيضٍ لَطيفٍ أَمَلَ هُوَ أَنْ يُوصِلَهُ إلى نَيْلِ المُرادِ: «داريا...».

وغَضّ مِن طَرْفِهِ مُحاولةً مِنهُ للظُّهورِ بمَظْهَرِ النّادِمِ المُسْتَغْفِرِ؛ وتَأَوَّهَ وكأَنَّهُ يَتَحسَّرُ على سَعْدٍ فاتَ، ورَغَدٍ غَبَّ[1]، ونَعيمٍ وَلّى!

على أَنَّ حَيَوِيَّتَهُ لم يَسْتَطِعْ أَنْ يُبَدِّدَ مِن مَظْهَرِها، ونَشاطَهُ عَجَزَ عَن إِخْفائِهِ، والعَبيرُ... العَبيرُ الَّذي كان يَفوحُ مِن مَلابِسِهِ وشَعْرِهِ! أَلا يَدْحَضُ هٰذا ما حاوَلَ إِظْهارَهُ؟ أَلا يَنِمُّ عن حَقيقةِ خَلَجاتِهِ؟

وتَفَحَّصَتْهُ زَوْجُهُ، وصَعَّدَتْ فيهِ نَظَرَها، فأَحْفَظَتْها[2] قُوَّتُهُ وفُتُوَّتُهُ، وكَدَّرَتْها مَلامِحُهُ

---

(١) رَغَدٌ غَبَّ: صارَ في نِهايَتِهِ.

(٢) أَحْفَظَتْها قُوَّتُه: أَغْضبَتْها قُوَّتُهُ.

المَرحةُ الَّتي تَخْلُقُ لَهُ الأَصْدِقاءَ والمُحِبّينَ. وعَجِبَتْ في ما بَيْنَها وبينَ نَفْسِها مِن هٰذا الإشْراقِ الَّذي لا يَخْبو، وهٰذا البَهاءِ الَّذي لا يَأْفُلُ.

أَحْنَتْ عَلَيْهِ؛ ولَعَلَّ سُخْطَها كانَ الحافِزَ إليهِ غَيرتُها، ولَعَلَّهُ كانَ نِتاجَ الفارقِ بينَ نُضْرتِها الذّابلةِ، وشبَابِهِ المُتَألِّقِ الزّاهِرِ!

وقالَتْ لَهُ بصَوْتٍ سَريعٍ عَميقٍ، غيرِ طَبيعِيٍّ: «أَلَكَ حاجةٌ؟ أَتُريدُ شيئًا؟»

فأَجابَ مُتَلَعْثِمًا مُرْتَعِشًا: «أَنّا قادمةٌ، يا عَزيزتي، قادِمةٌ غدًا».

فهَتَفَتْ مُحْتَدِمةً: «وهل يَعْنيني الأَمْرُ؟ دَعْها تَأْتي، فهْيَ أُخْتُكَ!»

- «ولٰكِنْ حَرِيٌّ بِكِ أَنْ تَمْكُثي، أَنْ تَرَيْها، أَنْ تُحدِّثيها...».

فصَرَخَتْ مِن دونِ أَنْ تَنْظُرَ إليهِ، وكأَنَّ صَرْخَتَها كانَتْ عن أَلَمٍ جَسَديٍّ حادٍّ: «اِذْهَبْ... اِذْهَبْ... اِذْهَبْ...».

كانَ في وُسْعِ ستيفانَ أَنْ يَحْتَفِظَ بهُدوئِهِ حينَ يُفَكِّرُ في امْرَأَتِهِ، وكانَ يَأْمُلُ أَنْ يُصَدِّقَ حَدْسَ ماتفي خادِمِهِ فتَرْجِعَ إليهِ راضيةً غافِرةً، ويَرْجِعَ هُوَ إلى جَريدتِهِ هادِئًا مُطْمَئِنًّا، ويَسْتَأْنِفَ شُرْبَ قَهْوتِهِ في دَعةٍ وسُكونٍ، ويُنصِتَ إلى ضَجَّةِ أَوْلادِهِ في حَنانٍ وابتِسامٍ.

ولٰكِنَّهُ لمّا رأَى وَجْهَها المُتَعَذِّبَ المُتَأَلِّمَ، واستَمَعَ إلى نَبْرةِ صَوْتِها المُسْتَسْلِمِ لِلقَدَرِ، المُفْعَمِ[1] بالحُزْنِ واليأْسِ، شَعَرَ كأَنَّهُ يَخْتَنِقُ، وأَحسَّ بشَيْءٍ يَقِفُ في حَلْقِهِ حتّى ليَكادُ يَكْتُمُ نَفَسَهُ. كما أَنَّ العَبَراتِ لَمَعَتْ في مُقْلَتَيْهِ، وكأَنَّها تُوشِكُ أَنْ تَسيلَ مِن عَيْنَيْهِ.

وسَمِعَ نَفْسَهُ بَعْدَ قَليلٍ يَهتِفُ مُتَضَرِّعًا مُتَلَوِّعًا: «داريا! ناشَدْتُكِ اللهَ أَنْ تُشْفِقي! أُنْظُري، أُنْظُري!»

فصَفَقَتْ داريا بابَ الخِزانةِ بعُنْفٍ وواجَهَتْهُ بنَظرةٍ صارمةٍ، ولم تَنْبِسْ بكلمةٍ[2].

وأَردَفَ هُوَ باللَّهجةِ نفسِها: «ماذا أَقولُ غيرَ شيءٍ واحِدٍ؟ ماذا أَقولُ سوى إبداءِ النَّدَمِ واستِجْداءِ المَغْفِرةِ؟ أَيْ داريا أَصغي... اغْفِري...».

---

(١) المُفْعَم: المَلآن.

(٢) لم تَنْبِسْ بكَلِمَةٍ: لم تَنْطِقْ بكَلِمَةٍ.

وانْتَظَرَ هُنَيهةً، وعادَ يَقولُ: «تَذَكَّري... تِسْعَ سِنينَ قَضَيْناها مَعًا. أَلا تَسْتَطيعُ تِسْعُ سِنينَ أَنْ تَشْفَعَ لِزَلَّةٍ واحدةٍ؟»

وأَطْرَقَتِ المَرأةُ المُوَزَّعةُ الفِكْرِ إِلى الأَرضِ، وهْيَ تَتَوَقَّعُ بل تَرجو مِن كُلِّ قَلْبِها أَنْ يَقولَ شيئًا يُثْبِتُ بِهِ بَراءَتَهُ.

ولٰكِنَّهُ عِوَضًا مِن أَنْ يَتَنَصَّلَ انْدَفَعَ يُثْبِتُ التُّهمةَ بطَريقةٍ دامِغة، فقالَ: «نَزْوةٌ طارِئةٌ... شَهوةُ ساعةٍ... مَسٌّ مِن جُنونٍ... أَلا... أَلا...».

«اغْرُبْ عن وَجْهي!»

«داريا...».

«اِذْهَبْ... غادِرِ الغُرفةَ، ولا تُحَدِّثْني عن نَزَواتِكَ وسَقَطاتِكَ... لا تُحَدِّثْني عن مُجونِكَ وفُسْقِكَ!»

وتَحَرَّكَتْ لِتَذْهَبَ، لَتَبْتَعِدَ... ولٰكِنَّها تَرَنَّحَتْ في مَكانِها، وكادَتْ تَسْقُطُ على الأَرْضِ، لولا إِسْراعُها إِلى الإِمْساكِ بظَهْرِ الأَريكةِ.

وأَجْهَشَ هُوَ، وكَادَ أَنْ يَذْرِفَ الدَّمْعَ، وأَنْشَأَ يَقولُ مُسْتَعْطِفًا مُستَثيرًا حَنانَها وشَفَقَتَها: «داريا! أولادُكِ أكْبادِكِ... داريا! فَكِّري فيهِمْ... ماذا اقتَرَفوا حتّى تُعاقِبيهِمْ؟ إِنَّهُمْ أَبرياءُ، يا عزيزتي، والمُذْنِبُ هُوَ أنا، فلا تُقَوِّضي مُسْتَقْبَلَهُمْ... وإِنِّي لَعلى أَتَمِّ استِعدادٍ للقِيامِ بِما تَفْرِضينَ... قولي أَفْعَلْ، مُري أُنَفِّذْ... فأَنا المُلامُ، ولَيْسَ غيري... فسامِحيني واصْفَحي عنّي!»

فقَعَدَتْ على الأَريكةِ وهْيَ تَلْهَثُ مِنَ الإِعْياءِ، ولَهِفَتْ[1] نَفْسُهُ، وتَوَلَّتْهُ مَوجةٌ عارمةٌ مِنَ الحُزْنِ والإِشفاقِ...

وبَذَلَتِ الزَّوْجَةُ وُسْعَها لِتَتَكَلَّم، فلم تَجِدْ إِلى الكَلامِ سَبيلًا، فتَمْلَمَلَتْ في مَكانِها وتَلَفَّتَتْ وتَأَلَّمَتْ.

وطَأْطَأَ أوبلنسكي رَأْسَهُ شَأْنَ المُجرِمِ المُعْتَرِفِ، ونَكَّسَ طَرْفَهُ كمَنْ يَنْتَظِرُ الحُكْمَ النِّهائِيَّ، وانْتَظَرَ..

---

(١) لَهِفَتْ نفسُه: حَزِنَتْ، أَسِفَتْ.

وتَناهى إليهِ أَخيرًا صَوْتُها العَميقُ المُتَهَدِّجُ تَأَثُّرًا وانْفِعالًا: «ستيف... ومتى فَكَّرْتَ في الأَطْفالِ إِلَّا لِتُزْجِيَ وَقْتًا قَصيرًا مَعَهُمْ في العَبَثِ واللَّعِبِ؛ أَمَّا أنا، فأنا أُفَكِّرُ فيهم بُكْرَةً وعَشِيًّا. أنا أَبْغي خَيْرَهُمْ وسأَعْمَلُ على إِنْقاذِهِمْ... إِنَّ هٰذا يَعْني خَرابَهُمْ، ولٰكِنْ...».

وتَذَكَّرَتْ أَنَّ فِكرةَ إيذاءِ الأَطْفالِ قد عاقَتْها عَنِ الذَّهابِ... واسْتَعْبَرَتْ عَيْناها.

لَقد ذَكَرَتِ اسْمَهُ مُصَغَّرًا -ستيف- ورَنا هُوَ إِلَيْها في شُكْرٍ وعِرْفانٍ، وتَحَرَّكَ ليَتَناوَلَ يَدَها، ولٰكِنَّها انْكَمَشَتْ على نَفْسِها نافِرةً مُشْمَئِزَّةً، واسْتَتْلَتْ: «لا أَنْقَطِعُ لَحْظَةً عنِ التَّفْكيرِ في أَطْفالي، وبوُدِّي لو أَنْقَذْتُهُمْ.. بِوُدِّي لَوِ افْتَدَيْتُهُمْ بحَياتي.. بَيدَ أَنِّي لا أَدْري كيفَ السَّبيلُ إِلى انتِشالِهِمْ مِنَ الوَهْدةِ الَّتي طَوَّحَتْ بِهِمْ فيها.. أَخَلاصُهُمْ هُوَ في انتِزاعِهِمْ مِن أَبيهِمْ، أَمْ في إِبْقائِهِمْ مَعَ أَبٍ فاسِقٍ أَنانِيٍّ؟!- أَجَلْ أَبٍ فاسِقٍ مُبْتَذَلٍ!- أَخْبِرني، هل بَعْدَ الَّذي جَرى أَمَلٌ في البَقاءِ مَعًا؟ أَتَظُنُّ أَنَّ استِئْنافَ تِلكَ الحياةِ أَمْرٌ مُحتَمَلٌ؟ هل يُمْكِنُ هٰذا؟ قُلْ، هل يُمْكِنُ، بَعْدَ كُلِّ ما بَدا مِن تَرَدّيكَ في حَمْأَةِ الرّذيلةِ[1]؟ بَعْدَ جُنوحِكَ إِلى المُغامرةِ المُنْحَطَّةِ؟ بَعْدَ إِسْفافِكَ إِلى هٰذا الدَّرْكِ؟»

وجَعَلَ الرَّجُلَ يَبْلَعُ ريقَهُ في حَيْرةٍ وارْتِباكٍ، وقد انْقَبَضَ انْقِباضَ اليائِسِ، وأَعْرَضَ عن زوجهِ إِعراضَ المُثْقَلِ بشُعورِ الخِزْيِ... وقالَ وهْوَ يَتَّجِهُ بنَظَرِهِ إِلى الحائِطِ: «فما العَمَلُ؟ ماذا أَسْتَطيعُ الآنَ أَن أَعْمَلَ؟»

وانْحَنَتْ صَعْدتُهُ[2]، وغَضَّ مِن نَظَرِه.

فزَمْجَرَتْ مُهْتاجةً: «يا للرَّجُلِ الكَريهِ! يا للزَّوْجِ المَقيتِ! ما عَبَراتُكَ إِلَّا سِتارٌ للُؤْمِكَ وخِبِّكَ[3]! إِنَّكَ لم تُحِبَّني قَطُّ، بل كُنْتَ مُنْصَرِفًا عنّي إِلى شؤونِكَ الخاصَّةِ، وما تَظاهُرُكَ بالحُبِّ، إِلَّا ناحيةٌ أُخرى مِن نَواحي خِسَّتِكَ! لقد عَرَفْتُكَ الآنَ، وكَرِهَتْكَ نَفسي... أَنْتَ غَريبٌ عَنّي... غَريبٌ... غَريبٌ!»

وغَصَّتْ، واحْتَقَنَ الدَّمُ في وَجْهِها- ما أَصْعَبَ الكَلمةَ! ما أَصْعَبَ الكَلمةَ تَقولُها لرَجُلٍ عاشَرَتْهُ وعاشَتْ في كَنَفِهِ وأَنْجَبَتْ منهُ أَطْفالَها!

---

(١) حَمْأَةُ الرَّذيلَةِ: وَحْلُ الرَّذيلَةِ.

(٢) انْحَنَتْ صَعْدَتُهُ: انْحَنَتْ قامَتُه المُستَقيمةُ.

(٣) خِبُّكَ: خِداعُكَ.

ودَهِشَ ستيفانُ لهٰذِهِ الثّورةِ الجامِحةِ الَّتي واجَهَتْهُ بها. ولم يَفْهَمْ كيفَ أَثارَ إشفاقُهُ غَضَبَها وحَنَقَها- لقد وَجَدَتْ فيهِ شَفَقَةً عليها لا حُبًّا... وَجَدَتْ رِثاءً لا عِشْقًا!

وناجى نفسَهُ والأَسى يَحُزُّ في صَدْرِهِ: «إنَّها تَزْدَريني، ويا ليتَها تَفْعَلُ، بل إنَّها تَمْقُتُني مَقْتًا عَظيمًا!»

وَطَفِقَ يُرَدِّدُ بصَوْتِ القانِطِ المُسْتَسْلِمِ: «هٰذا مُريعٌ! مُريعٌ!»

وبَكى في تِلكَ اللّحظةِ طِفْلٌ في الغُرفةِ المُجاورةِ، ورُبّما يَكونُ قد سَقَطَ على الأَرضِ. وأَصاخَتْ داريا، ولانَتْ نَظْرَتُها ورَقَّتْ أَساريرُها، وتَحَفَّزَتْ ثُمَّ نَهَضَتْ مُسْرِعَةً إلى البابِ.

وأَشْرَقَ وُجْهُ أوبلنسكي؛ ورَأَى في هٰذا التَّبَدُّلِ المُفاجِىءِ نَوْعًا مِنَ الأَمَلِ في عَودةِ المياهِ إلى مَجاريها، وقالَ يُحَدِّثُ نفسَهُ: «إنَّها أُمٌّ، وهْيَ تُحِبُّ الأَوْلادَ، أَولادي أنا، فكيفَ تَقْلوني[1]؟»

وسارَعَ يَقولُ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ: «لي كَلِمةٌ يا داريا، كَلِمةٌ فحَسْبُ...».

فحَدَجَتْهُ بنَظْرَةٍ صارِمةٍ مُتَوَعِّدةٍ، وصاحَتْ: «إيّاكَ... إيّاكَ... لا تَتْبَعْني وإلّا دَعْوتُ الخَدَمَ لأُعَرِّفَهُمْ حقيقةَ نَفسِكَ، وأُطْلِعَهُمْ على نَذَالتِكَ! أنا ذاهبةٌ مِنْ هُنا، ذاهبةٌ إلى غيرِ رَجْعةٍ، فاغْتَبِطْ، ففي إمكانِكَ العَيْشُ مَعَ خَليلتِكَ... عِشْ مَعَها أَيُّها الوَغْدُ!»

وخَرَجَتْ، وصَفَقَتِ البابَ وَراءَها بعُنْفٍ.

وتَنَفَّسَ ستيفانُ الصُّعَداءَ، وجَمْجَمَ باسِمًا: «قالَ ماتفي خادمي الأَمينُ إنَّ الزّمانَ كفيلٌ بحَلِّ أَعْقَدِ المُشْكِلاتِ، فكيفَ؟ وقالَ إنَّها سَتَرْجِعُ مِن تِلقاءِ نَفْسِها، فكيفَ؟ لا أَمَلَ في ذٰلِكَ؛ بلى، لا أَمَلَ.. أُوّاهِ! كيفَ صاحَتْ؟ لا شَكَّ أَنَّ الخَدَمَ سَمِعُوها وهْيَ تَصْرُخُ بمِلْءِ فيها وتَقولُ- أَيُّها النَّذْلُ... وخَليلَتُكَ... وسوى ذٰلِكَ! هذا مُريعٌ، مُريعٌ جِدًّا!»

وما عَتَّمَ[2] أَنْ خَرَجَ مِنَ الحُجْرةِ، فاسْتَدْعى ماتفي وقالَ: «عليكَ يا ماتفي أَنْ تُعِدَّ غُرفةَ الضُّيوفِ لإقامةِ شَقيقتي أَنّا، فلا تَنْسَ ذٰلِك، إنَّها قادمةٌ اليومَ».

قالَ: «لا تَخْشَ يا سَيِّدي، فسأَحْسِبُ لكُلِّ شيءٍ حِسابَهُ» وأَلقى ستيفانُ مِعْطَفَهُ على

---

(١) تَقْلوني: تَكْرَهُني.

(٢) ما عَتَّمَ أَنْ: ما لَبِثَ أن.

مَنْكِبَيْهِ، ودَلَفَ خارِجًا، وتَبِعَهُ الخادِمُ العَجوزُ، وسأَلَهُ وهْوَ يَهُمُّ بِرُكوبِ العَرَبَةِ: «وهَلْ تُزْمِعُ العَودةَ لتَناوُلِ الطَّعامِ؟»

- «قد أَفْعَلُ، فخُذْ هٰذا المَبْلَغَ (وأَعْطاهُ عَشَرَةَ روبلاتٍ) لنَفَقاتِ البَيْتِ، وكُنْ مُقْتَصِدًا!»

- «كعادتي دَوْمًا!»

وأَغْلَقَ الخادِمُ بابَ العَرَبةِ ورَجَعَ أَدْراجَهُ.

وكانَتْ داريا في تِلْكَ الأَثناءِ قد تَدَبَّرَتْ أَمْرَ الطِّفْلِ الباكي، وعَلِمَتْ مِن صَوْتِ العَرَبةِ أَنَّ زَوْجَها غادَرَ البَيْتَ، فرَجَعَتْ إلى مَخْدَعِها. وكانَ المَخْدَعُ مَلْجَأَها الَّذي تَلوذُ بِهِ هَرَبًا مِنْ مَتاعِبِ البَيْتِ والأَولادِ.. حتّى الخَدَمُ كانوا يُسَبِّبونَ لها آلامًا كثيرةً.

وأَصابَها خَوْفٌ طاغٍ. لقد ذَهَبَ.. فهل ذَهَبَ على أَلَّا يَعودَ؟ هل عَزَمَ بَعْدَ أَنْ يَئِسَ منها أَنْ يَفْصِمَ العُرى، ويَقْطَعَ الوَشائِجَ[1]؟ «ولٰكِنْ، لو سلَّمْتُ جَدَلًا بأَنَّهُ سيَرْجِعُ ويُقيمُ هُنا وأُقيمُ أنا أَيضًا، فهل يُمْكِنُ أَنْ نَنْسى الماضِيَ؟ أُوّاهِ! لَكَمْ تَوَلَّهْتُ بحُبِّهِ! لَكَمْ شُغِفْتُ بِهِ! يا إِلٰهي، يا إِلٰهي!»

وطَفَرَتِ الدُّموعُ مِن عَيْنَيْها ومَضَتْ في نَجواها: «لقد أَحْبَبْتُهُ ولا أَزالُ أُحِبُّهُ، بل إِنَّ حُبِّي لهُ تَضاعَفَ الآنَ...».

وقَطَعَتْ عليها حَبْلَ فِكْرِها خادِمتُها (ماترينا فليمونوفنا) وهْيَ تَفْتَحُ البابَ وتَقولُ: «ذَريني أُرْسِلْ في طَلَبِ أَخي، ففي اسْتِطاعتِهِ تَجهيزُ بَعْضِ الأَطعِمَةِ للأَوْلادِ، وبذٰلِكَ نُجَنِّبُهُمْ قَضاءَ النَّهارِ طاوينَ ساغِبينَ»[2].

فقالَتْ: «أَصَبْتِ يا ماترينا، فابْغَني في طَلَبِهِ... ولٰكِنْ، هل جِئْتِ بالحَليبِ؟».

وغابَ عن بالِها أَنَّها غاضبةٌ، فانْهَمَكَتْ في أَعمالِها، وأَقْبَلَتْ على تَصْريفِ شُؤونِ بَيْتِها وأَوْلادِها.

والأُمُّ أُمٌّ... دائِمًا...

---

(١) الوَشائِج: الصِّلات، الرَّوابط.

(٢) طاوينَ ساغِبينَ: جائعينَ.

أسئلة تحليلية

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - ما الحالةُ الشعوريّةُ الَّتي عاشَتْها داريا بعدَ أنِ اكتشَفَتْ خيانَةَ زوجِها لها؟

٣ - أَكانَتْ داريا تُحِبُّ زوجَها، أَم كانَتْ تَكرَهُهُ؟

٤ - ماذا كانَتْ تُحِبُّ فيه؟ وماذا كانَتْ تَكرَهُ فيه؟

٥ - أَتَرى في داريا مُجرَّدَ امرأةٍ عنيدةٍ، أم سيِّدةً تحترمُ نفسَها وتحفَظُ عهدَها؟

٦ - ذكرَتْ داريا اسمَ زوجِها وهيَ تُخاطِبُهُ ساخِطَةً، فجاءَ الاسمُ مُصَغَّرًا. علامَ يدُلُّ ذلك؟

٧ - هل تُخمِّنُ أنَّ الأَزمةَ الَّتي عَصَفَتْ بأُسرةِ أوبلنسكي ستَهْدَأُ وتَنحَلُّ؟ وما الَّذي أَوْحى لك بذلك؟

٨ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الخامس

كانَ ستيفانُ أوبلنسكي، بالرَّغْمِ مِنَ الكَسَلِ الَّذي عَراهُ في الصِّغَرِ، وبالرَّغْمِ مِنِ استِهتارِهِ بَعْدَ أَنَ شَبَّ واكتَمَلَ، قد شَغَلَ مَنْصِبًا سامِيًا في موسكو. وما كانَ تَوْفيقُهُ في حَياتِهِ تِلْكَ إِلَّا بِفَضْلِ زَوْجِ شَقيقَتِهِ أَنّا ويُدْعى أَليكسيس كارنين، وكانَ قُطْبًا مِن أَقطابِ الحُكومةِ في ذٰلِكَ الحينِ.

وما كانَ ستيفانُ لِيُقَصِّرَ عَنِ الظَّفَرِ بِمِثْلِ هٰذا المَنْصِبِ لو لم يُعِنْهُ أَليكسي في ذٰلِكَ، فثَمّةَ مِئاتٌ غيرُ أَليكسي كانوا على تَمامِ الأُهْبَةِ لِيُقدِّموا لهُ المُساعَدَةَ اللّازِمةَ.. ثَمّةَ مِئاتٌ مِنَ الشّخْصِيّاتِ الرّفيعةِ الخطيرةِ الّتي تَشِجُها[1] بِستيفانَ صِلاتُ القُربى والصّداقةِ كانوا لا يَتَأَخّرونَ عن تَمهيدِ طَريقِ النّجاحِ للشّابِّ لو لم يَسْبِقْهُمْ كارنينُ إلى ذٰلِكَ.

فنِصْفُ أَهالي موسكو وبطرسبرج كانوا مِن ذَوي قَرابَتِهِ. وأَعني بالنِّصْفِ، تلكَ الطَّبَقَةَ المُتْرَفَةَ الَّتي تَضَعُ يَدَها على مَقاليدِ الأُمورِ، وتُهَيْمِنُ على شُؤونِ الدَّولةِ. لهٰذا كانَ خليقًا بِهِ أَنْ لا يَشْقى في الحُصولِ على ما يَبْتَغِي شَريطةَ أَنْ لا يَشْرَئِبَّ بعُنُقِهِ إلى أَعْلى.. أَي عَلَيْهِ أَنْ يَقْنَعَ بالَّذي ظَفِرَ بِه، فلا يَلِجَ مَقاحِمَ مَنْ هُمْ أَعْظَمُ قَدْرًا وأَخْطَرُ مَكانةً.

وكانَ ستيفانُ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ الجميعِ بِهِ؛ فهُوَ مُسالِمٌ بطَبْعِهِ، يَنْفُرُ مِنَ المُشاحَناتِ، ويَحْرِصُ على تَجَنُّبِ ما يُريبُ، حتّى وُفِّقَ بحُسْنِ خِلالِهِ إلى استِلالِ كُلِّ حَذَرٍ يَنوبُ رَئيسًا أو مَرْؤُوسًا.

كانَ يَصْدُفُ عَنِ المُجادلةِ، ويَبْتَعِدُ جُهْدَهُ عَنِ المُناقشةِ، ويَتَكَلَّمُ بلِسانٍ خاضِعٍ، وصَوْتٍ لَطيفٍ... ويَضْحَكُ في وَجْهِ كُلِّ إِنسانٍ، ويَعْفو ويَصْفَحُ مَهْما كانَتِ الإِساءةُ بالغةً.

ثُمَّ إِنَّهُ كانَ مجّانًا، مَرِحًا، يُوحي بَريقُ عَيْنَيْهِ بِبَياضِ قَلْبِه، وتُفْشي انطِلاقةُ أَساريرِهِ طيبَ

(١) تَشِجُها: تَرْبِطُها.

باطنِهِ وداخِلَتِهِ.

حتّى إنَّ كُلَّ صَديقٍ كان يُقابِلُهُ بتَحِيّةٍ حارّةٍ، فيَقولُ: «هٰذا أنتَ يا سْتيفا...» ويَبْتَسِمُ الصّديقُ ابتسامةً مُخلِصةً، ويُرَبِّتُ على ظَهْرِهِ مُتَوَدِّدًا مُتَحَبِّبًا.

واسْتطاعَ إِبّانَ الأَعْوامِ الثّلاثةِ الَّتي قَضاها في الوَظيفةِ أَنْ يُوَطِّدَ مَرْكَزَهُ في قُلوبِ الجَميعِ، وأَنْ يَدْعَمَ مُسْتقبَلَهُ بطريقةٍ فعّالةٍ. فهْوَ يُغْضي حتّى لا يَجْلِبَ المَضرّةَ للغيرِ والكَدَرَ لنفسِهِ... وهْوَ يَتَواضَعُ حتّى لا يَتَضاعَفَ كُرْهُهُ الفِطْرِيُّ مِنَ التّعالي والعَجْرفةِ... وهْوَ يُحِبُّ الجَميعَ ويُحِبُّ نفسَهُ... ثُمَّ هُوَ لا يَحمِلُ مَسْؤوليّةً، ويَعْمَلُ عَمَلًا هَيِّنًا، ويَرعى راحتَهُ ومَصْلَحَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَرعى مَطاليبَ الوَظيفةِ ومَصْلَحةَ العَمَلِ.

* * *

كانَ أوبلنسكي كما قُلْنا يَحْيا حياةً سَطْحيّةً؛ كانَ يَحْيا بجِسْمِهِ مَعَ زَوْجِهِ، وقَلْبُهُ فارِغٌ مِنَ الحياةِ. فلمّا وَقَعَتِ الواقِعَةُ، ومَضى في ذٰلكَ الصّباحِ المَشْؤومِ إلى مَقَرِّ عَمَلِهِ، كانَ شاردَ اللُّبِّ، زائغَ البَصَرِ، يَضْرِبُ أَخْماسًا لأَسداسٍ، كمَنْ يُظْهِرُ شيئًا ويُريدِ غيرَهُ.

فلمّا دَخَلَ مَكْتَبَهُ حَيّاهُ الجميعُ ورَحَّبوا بهِ. ثُمَّ دَخَلَ عليهِ شابٌّ كانَ أَشَدَّهُمْ ظَرْفًا وأَكْثَرَهُمْ كِياسةً، فَمَثَلَ بينَ يَدَيْهِ وعَرَضَ عليهِ مُختلِفَ الأَوْراقِ.

وأَنْصَتَ أوبلنسكي أو تظاهَرَ بالإنصاتِ، ولٰكِنَّهُ لم يَفْقَهْ ما يَقولُهُ الشّابُّ، بل مَضى يَهْجُسُ في مُصيبتِهِ، ثُمَّ ناجى نفسَهُ باسمًا: «أَوَاسْتَطيعُ أَنْ أَعْمَلَ؟ لَوِ اطَّلَعَ هَؤلاءِ الشُّبّانُ على جَريرةِ رَئيسِهِم، واسْتطاعوا أَنْ يَرَوهُ وهْوَ يَقِفُ في مَذَلَّةٍ أَمامَ زَوجِهِ لكانَ مَوْقِفُهُمْ مِنّي غيرَ مَوْقِفِهِمْ، ونَظْرَتُهُمْ إِليَّ غيرَ نَظْرَتِهِمْ».

ومَضَتِ السّاعاتُ؛ ثُمَّ دَخَلَ عليهِ في ساعةِ الظَّهْرِ شابٌّ مَديدٌ، مُنْتَصِبٌ، يَدُلُّ مَظْهَرُهُ على القُوَّةِ والعَزْمِ، وتُنْبِئُ سيماهُ بالصَّراحةِ والحَزْمِ.

وما كادَ ستيفانُ يَشْعُرُ بمَقْدَمِ الرَّجُلِ حتّى انْتَصَبَ واقِفًا ومَدَّ لهُ يَدَهُ مُصافِحًا، وقالَ: «على الرَّحْبِ، على الرَّحْبِ، متى قَدِمْتَ؟»

فأَجابَهُ الشّابُّ: «مُنْذُ يَسيرٍ، وها أَنَذا آتي إِلَيْكَ!»

وصَمَتَ فَيْنةً ثُمَّ أَتَمَّ: «ولي عِنْدَكَ مَأْرَبٌ، فهل لَدَيْكَ فُسْحةٌ مِنَ الوَقْتِ لتَسْمَعَ ما أَقولُ؟»

وكانَ هٰذا الشّابُّ يُدْعى ليفينَ، وهْوَ أَقْرَبُ أَصْدِقاءِ ستيفانَ إلى قَلْبِهِ. فقد تَبادَلَ الشّابّانِ الحُبَّ وهُما طِفْلانِ، ولمّا تَرَعْرَعا وشَبّا عَنِ الطَّوْقِ مَحَضَ[1] الواحِدُ مِنْهُما الآخَرَ الوُدَّ والصَّفاءَ، وأَخْلَصَ لَهُ أَيَّما إِخْلاصٍ.

وعَمِلَ ستيفانُ في الحُكومةِ؛ أَمّا صَديقُهُ ليفينُ، وكان نَفورًا بطَبْعِهِ مِن المُجْتَمَعاتِ، فقد فرَّ هارِبًا مِن موسكو، وانتَجَعَ الرِّيفَ حيثُ عاشَ هانِئًا سَعيدًا مُرتاحًا مِن مَشاكِلِ المَدينةِ ومَتاعِبِها.

ولمّا استَتَبَّ بالشّابِّ المُقامُ عادَ ستيفانُ يَقولُ بلَهْجَةٍ تَشِفُّ عن طيبتِهِ وصَراحتِهِ: «إِنَّني سَعيدٌ برُؤيتِكَ يا صَديقي، فأَيْنَ كُنْتَ؟ وما الَّذي حَبَسَكَ عنّا؟»

فأَجابَ ليفينُ: «كُنْتُ في الرّيفِ كما تَعْلَمُ، أَمّا مشاعري فقد كانَتْ في موسكو!»

- «وسنَتَناوَلُ طَعامَ الغَداءِ مَعًا اليَوْمَ».

- «بوُدّي لو قَدَرْتُ؛ وما سوفَ أَقولُهُ لَكَ، لا يَسْتَغْرِقُ بَثُّهُ أَكْثَرَ مِن دَقائِقَ».

- «قُلْ ما تَشاءُ بإيجازٍ، ثُمَّ بإسهابٍ حَوْلَ مائِدةِ العَشاءِ».

فتَمْلَمَلَ ليفينُ مُتَحَرِّجًا، ثُمَّ تَضَرَّجَ وَجْهُهُ حَياءً، وأُلْجِمَ لِسانُهُ. ولٰكِنَّهُ استَجْمَعَ قُواهُ بَعْدَ لَأْيٍ[2]، وقالَ وهْوَ مُطْرِقٌ: «أَرَدْتُ أَنْ أَجْتَمِعَ إليكَ لأُخْبِرَكَ أَنّي... أَنّي...!»

وصَمَتَ كأَنَّ القَوْلَ أُرْتِجَ[3] عَلَيْهِ، وما عَتَّمَ أَنْ أَرْدَفَ يَقولُ: «لن أُكْثِرَ القَوْلَ في ما لا مَنْفَعةَ فيهِ، فماذا تَسْتَطيعُ أَنْ تَزِفَّ إِليَّ مِن أَخْبارِ الأَميرِ شرباتسكي وعائِلتِهِ؟ قُلْ كُلَّ شَيْءٍ وسأَكونُ لكَ مِنَ الحامدينَ!»

فضَحِكَ أوبلنسكي ضِحكةَ المَرَحِ، وكأَنَّهُ نَسِيَ مُشكِلَتَهُ المُسْتَعْصيةَ وقالَ: «إِنَّهُمْ على خيرِ ما يُرامُ».

واسْتَعْرَضَ في ذِهْنِهِ صورةَ كاترينَ ابنةِ الأَميرِ وشقيقةِ داريا زَوجتِهِ، وفَكَّرَ في تَعلُّقِ ليفينَ بها وتَدَلُّهِهِ بحُبِّها.

---

(١) مَحَضَهُ الوُدَّ: أَخْلَصَهُ له.

(٢) بعدَ لَأْيٍ: بعدَ جَهدٍ ومَشَقَّةٍ.

(٣) أُرْتِجَ عليه القَوْلُ: أُغْلِق بابُه.

وصَعَّدَ في صَديقِهِ بَصَرَهُ، ثُمَّ بَشَّ ثانيةً وقالَ بوَجْهٍ طَلْقٍ: «وإنْ شِئْتَ رُؤيتَها، فما عَليكَ إلَّا أنْ تَؤُمَّ حَلْبةَ التَّزَلُّجِ في حَديقةِ الحَيواناتِ.. فهُناكَ تَجِدُها، هناكَ تَلْقى كاترينَ كُلَّ يومٍ قَبْلَ الأصيلِ، بينَ الثّالثةِ والخامسةِ!»

فاسْتَشْعَرَ ليفينُ الانْشِراحَ، وشَعَّتْ عَيْناهُ بنورِ الحُبورِ، ولٰكِنَّهُ تَنَبَّهَ إلى عَيْنَي صَديقِهِ المُتَرَقِّبَتَيْنِ، فتَضَرَّجَ وَجْهُهُ، وأيْقَنَ أنَّ شَوقَهُ قد فَضَحَهُ. ولٰكِنَّه أنْشَأَ يَقولُ وهْوَ يُغالِبُ حَياءَهُ: «وسأَلقاكَ هُناكَ إذًا في الحَلْبةِ... أَلَيْسَ كذٰلِكَ؟»

قالَ: «أَجَلْ، أَجَلْ... وسنَتَناوَلُ طَعامَ العَشاءِ مَعًا في ما بَعْدُ».

وانْسَرى هَمٌّ ليفينَ، وتَلاشى اضْطِرابُهُ، وأَقْبَلَ على صَديقِهِ يُصافِحُهُ ويَشْكُرُ لَهُ صَنيعَهُ.

وما أَبْطَأَ أنِ انْصَرَفَ لا يَلْوي على أَحَدٍ، وقد أَنْحى على نفسِهِ باللّائمةِ، وعَذَلَها على تردُّدِها وخَوَرِها وحَيائِها... وعَنَّفَ تلكَ النَّفسَ الخائِرةَ على فُقْدانِها مَعانيَ الشّجاعةِ، وإلَّا لكانَ ابْتَدَرَ صَديقَهُ أوبلنسكي بالواقِعِ، وقال: «ما جِئْتُ إلى موسكو إلَّا لَها، ما تَجَشَّمْتُ مَشاقَّ السَّفَرِ إلَّا لأُكَحِّلَ عَينَيَّ بمَرآى كاترينَ، فما قولُكَ؟»

* * *

كانَتْ عائِلتا «شِرْباتسكي» و«ليفينَ» مِنَ العائِلاتِ القَديمةِ المَعْروفةِ في موسكو، وكانَ بينَهُما مِن أَواصِرِ القُربى والصَّداقةِ الوَشيجةِ ما جَرى مَجْرى المَثَلِ. وقد تَوَثَّقَتْ عُرى المَحَبَّةِ والأُلفةِ بينَ ليفينَ الشّابِّ ونيكولا شِرْباتسكي، شقيقِ داريا وشقيقِ الحسناءِ كاترينَ، الَّتي افْتَتَنَ بها ليفينُ.

والعَجيبُ في الأَمْرِ أنَّ ليفينَ تَعَثَّرَ قلبُهُ في هَوى داريا قَبْلَ زَواجِها ثُمَّ لم يَلْبَثْ أنْ تَحوَّلَ إلى شَقيقَتِها، فكانَ حُبُّه حُبًّا شَديدًا مُضْطَرِمًا لا تَخْمَدُ لهُ وَقْدةٌ.

وطَفِقَ مِن بُعْدٍ يَتَرَدَّدُ على بَيْتِ العائلةِ العَريقةِ، وهْوَ يُحاوِلُ أنْ يَحوزَ مَغْنَمًا، ويَفوزَ بضالّةٍ. ولم يَزَلْ أَلْزَمَ لها مِن ظِلِّها كُلِّما أَمَّ موسكو، حتّى أَيْقَنَ الجَميعُ أَنَّهُ لا بُدَّ مُتَقَدِّمٌ إلى أَوْلياءِ أَمْرِها لخِطْبَتِها، وأَنَّهُ لن يَلْبَثَ طَويلًا حتّى يَطْلُبَ يَدَها.

ولٰكِنَّهُ وقد لَزِمَها شَهْرَيْنِ، وراقَبَها عن كَثَبٍ، وسَبَرَ غَوْرَها وأَصغى لحديثِها، راعَهُ ما رآه مِن سُمُوِّ خُلُقِها، وحَصافةِ تَفْكيرِها، والْتِزامِها جادّةَ الشَّرَفِ والاسْتِقامةِ، وأَيْقَنَ أنَّ تَصَدِّيَهُ

للظَّفَرِ بها حَليلةً، أَمْرٌ دونَهُ خَرْطُ القَتادِ[1]، ولم يَجِدْ مَندوحَةً في النِّهايةِ مِنَ الرُّجوعِ إلى قَريتِهِ والانْطِواءِ على نفسِهِ وعلى سَقَمِ قَلبِهِ ودَنَفِهِ[2]!

ولمّا مَنَّ اللهُ عَليهِ بتَقْويةِ نفسِهِ، أَفاقَ مِن غَيْبُوبتِهِ الَّتي رَماهُ فيها الحُبُّ المُبَرِّحُ، وعَجِبَ كيفَ داخَلَ حِسَّهُ وتَفكيرَهُ أَنَّ كاترينَ لن تُحِبَّهُ قَطُّ، ولن تَقْبَلَ بهِ بَعْلًا. كما أَنَّ أَفْرادَ عائلَتِها سيَرفِضونَ طَلَبَهُ ويَرُدّونَهُ خائِبًا خاسِئًا... أَلَيْسَ هُوَ شابًّا يَنتمي بعَمَلِهِ إلى طَبَقَةِ الفلَّاحينَ؟ أَلَيْسَ هُوَ شابًّا مَنْسِيًّا، لا تَعْتَرِفُ بهِ أَنديةُ موسكو اللَّيليّةُ؟ أَلا يُعنىَ بالسّائمةِ[3]، فيُرَبّيها ويَتَعَهّدَها ويُتاجِرَ بها؟ فأَينَ هُوَ إذًا مِن كاترينَ؟ وأَينَ مَكانتُهُ المَرْموقةُ في الحُكومةِ؟

فما إن تَحَلَ راجِعًا إلى موسكو حتّى هاجَ الحَنينُ بقلبِهِ، وثارَتْ كَوامِنُ شَوْقِهِ وحَنينِهِ، وعَزَمَ وقد أَدْنَفَتْهُ هٰذِهِ التَّباريحُ أَنْ يَسْتَطْلِعَ طِلْعَ مَحبوبتِهِ، ويَكْتَنِهَ رَأْيَ أَهْلِها في شَخْصيَّتِهِ، ولْيَفْعَلِ اللهُ ما يراهُ أَمْرًا عَقْضيًّا، ولْيَقْضِ عليهِ بالَّذي يَراهُ...

وقرَّرَ أَنْ يَتَقَدَّمَ مِن أَبَوَيْها فيَطْلُبَ يَدَها، فَمَنْ يَعْلَمُ؟ قد يُكْرِمانِ وِفادتَهُ، ويُبَلِّدانِ مَخاوِقَهُ، ويَسْتَجيبانِ إلى طَلَبِهِ، فيُحَقِّقانِ بذٰلِكَ سَعادةَ قلبِهِ وروحِهِ!

فإذا رَفَضا، وإذا رَفَضَتْ؟

وَيْلاهُ! ماذا هو صانعٌ إن رَفَضُوا؟

وطَرَدَ مِن رأْسِهِ هٰذِهِ الأفكارَ، وفَوَّضَ أَمرَهُ إلى اللهِ مُسَهِّلِ الأَوْطارِ، وعالِمِ الأَسرارِ!

---

(١) خَرْطُ القَتادِ: انْتِزاعُ شوكِ القَتادِ باليدِ وهو أَمرٌ بالغُ الصُّعوبَةِ.

(٢) دَنَفُه: مَرَضُهُ الثَّقيلُ الملازمُ له.

(٣) السّائِمةُ: الماشِيَةُ.

أسئلة تحليلية

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - ما الخصالُ الَّتي جعلتْ ستيفان أويلنسكي محبوبًا لدى أقربائهِ وأصدقائِهِ؟

٣ - أَتَرْضى أنتَ عن هذه الخِصالِ في المَرْءِ؟

٤ - حَدِّدْ خِصالَ شخصيّةِ ليفين كما بَدَتْ لك من خلالِ هذا الفصلِ.

٥ - أَتَقَعُ في ما قرأْتَ حتّى الآنَ، ولا سيَّما في هذا الفصلِ، على ملامحَ طبقيَّةٍ في المجتمعِ الروسيِّ؟ وما هيَ؟

٦ - أنتَ، في هذا الفصلِ، أمامَ ملامحِ عقدةٍ جديدةٍ، أتستطيعُ أن تُحدِّدَها؟ مَنْ بطلُها؟ وماذا تتوقَّعُ لها حلًّا؟

٧ - أَوْجِزْ مضمونَ الفَصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل السّادس

اِسْتَقَلَّ ليفينُ العَرَبَةَ في السّاعةِ الرّابعةِ، وتَرَجَّلَ مِنها في مَكانٍ بَعيدٍ عن حَلْبةِ التَّزَلُّجِ، ثُمَّ مَشى إليها بخُطُواتٍ بَطيئةٍ مُتَرَدِّدةٍ، ونَفْسٍ هاجِسةٍ مُتَوَجِّسةٍ، وهْوَ يَوَدُّ لو عادَ أَدراجَهُ حتّى يَسْلَمَ مِن هٰذا القَلَقِ الشّديدِ الَّذي طَفِقَ يَمْلأُ صَدْرَهُ. ولٰكِنَّهُ، على الرَّغْمِ مِن خَوفِهِ وذُعْرِهِ، مَشى مُتَّجِهًا إلى ذٰلِكَ المَكانِ حتّى لا يَهْدِمَ بحَيائِهِ وتَرَدُّدِهِ ما سَعى إليهِ للمَرَّةِ الأَخيرةِ، وحتّى لا يَلومَ في المُستقبَلِ نفسَهُ الَّتي أَضاعَتْ بجُبْنِها مُنْيَةَ قلبِهِ وهَناءَةَ روحِهِ. وقد يَقيهِ اللهُ، إن أَقْدَمَ، مَرارةَ الخَيبةِ، فيُنْجيهِ مِنَ العَثَراتِ، ويُوصِلُهُ إلى شاطِئِ السّلامةِ مَوْفورَ القُوّةِ والكَرامةِ.

وقَالَ وهْوَ يُشْرِفُ على الحَلْبةِ: «وَيْكِ يا نَفْسُ[1]! قَدِّمي لِصاحِبكِ صالِحًا! وَيْكِ يا نَفْسُ! لا تُراعي، وازْدَري الخَوفَ كما ازْدَرَيْتِ مِنْ قَبلُ زُخْرُفَ الحياةِ.

وضَعُفَتْ ثِقَتُهُ بنَفْسِهِ ساعةَ ظَهَرَ النّاسُ لبَصَرِهِ، وشَعَرَ بالسُّرورِ والغِبْطةِ، كما داخَلَهُ شيءٌ كَثيرٌ مِنَ الخَوْفِ والرَّهبةِ.

وأَيْقَنَ مِن لَمَحاتِ فِكْرِهِ واضطِراباتِ إحساسِهِ أَنَّ حَبيبةَ قَلْبِهِ موجودةٌ لا مَحالةَ.

فمَنْ، مَنْ يوصِلُهُ إلى نَيْلِ المُرادِ؟ وحَرَّضَهُ الشَّوقُ على أَنْ يَخْطوَ إلى الأَمامِ مُتَغَلِّبًا على حَيائِهِ وفَزَعِهِ.

وما هِيَ إلَّا دقيقةٌ حتّى بَدَتْ لَهُ كاترينُ، وتَراءَتْ كأَنَّها وَرْدَةٌ بينَ حَشائشَ، إنْ لم تَقُلْ بينَ أَشْواكٍ! وكُلُّ شيءٍ سَطَعَ حَوْلَها، فكانَتْ كالابتِسامةِ الَّتي أَضْفَتِ النُّورَ على مَنْ يُحيطُ بها.

«فهل يُمْكِنُني أَنْ أَسيرَ إليها؟ هل أَجْرُؤُ على الاقْتِرابِ منها؟» جَعَلَ ليفينُ يُناجي نفسَهُ.

---

(١) وَيْكِ: وَيْحَكِ.

وخُيِّلَ إليهِ أَنَّ المكانَ الّذِي احْتَلَّتْهُ ما هُوَ إِلَّا مِحرابٌ مُقَدَّسٌ لا يَرقَى إليهِ أَحَدٌ. واسْتَحْوَذَ عليهِ الهَلَعُ، وانْثَنى يُزْمِعُ الرُّجوعَ مِن حَيْثُ أَتى. لٰكِنَّهُ تَغَلَّبَ على خَوَرِهِ ووَهْنِ عَزيمتِهِ، وتَذَكَّر وهْوَ يَبْتَسِمُ ابْتِسامةً فاتِرةً أَنَّ غيرَهُ يَحومُ حَوْلَها على الرَّغْمِ مِن ضِيائِها وبَهائِها ورُوائِها! ومَشى مِن بَعيدٍ، مَشى لِدقائِقَ عَديدةٍ يَرْنو ولا يَدْنو، ويَخْتَلِسُ النَّظَرَ ولا يَتَقَدَّمُ!

في مِثْلِ ذٰلِكَ اليَوْمِ مِن كُلِّ أُسبوعٍ كانَ يَؤُمُّ حَلْبَةَ التَّزَلُّجِ خَليطٌ مِنَ النَّاسِ. كانَ مِنْهُمْ أَبْطالُ اللَّعِبِ على الثَّلْجِ، وكانَ مِنْهُمُ المُبْتَدِئونَ. كانَ مِنْهُمْ طُلّابُ المُتْعةِ، وكانَ مِنْهُمُ الباحثونَ عَنِ الشُّهْوةِ... ورَمَقَ ليفينُ حَبيبةَ قَلبِهِ، وتَفَرَّسَ في القَوْمِ الآخَرينَ، وأَيْقَنَ ساعَتذاكَ أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ جَميعًا، لأَنَّهُمْ يُحيطونَ بها إحاطةَ الهالةِ بالقَمَرِ.

وبينا هُوَ مُنْصَرِفٌ إلى هَواجِسِهِ وأَفْكارِهِ، لا تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ التَّقَدُّمَ، إِلَّا ويَدْفَعُهُ خَوْفُهُ ويَدْرَؤُهُ، إذ بقائِلٍ يَهْتِفُ: «هٰذا هُوَ بَطَلُ روسيا الأَوَّلُ في التَّزَلُّجِ! فمتى قَدِمْتَ يا ليفينُ؟ وكيفَ لم نَسْمَعْ بمَقْدَمِكَ؟»

وكانَ المُتَكَلِّمُ يُدْعى «نيكولاي شِرْباتسكي»، وهُوَ ابنُ عَمِّ كاترينَ.

واقْتَرَبَتْ كاترينُ في حَذَرٍ كأَنَّها تَخافُ السُّقوطَ، ووَجَفَ قَلْبُ ليفينَ، وتَحَجَّرَتْ نَظْرَتُهُ، وطَفِقَ يَتَأَمَّلُ صامِتًا في هٰذا الحُسْنِ الرّائعِ. ثُمَّ صَعَّدَ طَرْفَهُ إلى عَيْنَيْها اللَّتَيْنِ تَنْطِقانِ دَوْمًا بالطِّيبةِ والإِباءِ والصِّدْقِ.

وقالَتْ بصَوْتِها الحَنونِ الهادئِ: «ومَتى قَدِمْتَ موسكو؟» وأَعْطَتْهُ يَدَها، واسْتَتْلَتْ وهُوَ يُقَدِّمُ لها مِنْديلَها الَّذي سَقَطَ منها: «لكَ شُكري وامْتِناني».

وقالَ: «أنا؟ لم آتِ... إِلَّا... البارحةَ... أَعْني اليَوْمَ... وكُنْتُ أَنْوي زِيارتَكِ!» وكأَنَّهُ تَذَكَّرَ أَنَّهُ كانَ عازِمًا على الاجتِماعِ إليها، فَتَضَرَّجَ وَجْهُهُ حَياءً!

وتَأَلَّقَتْ شَفَتاها بابتِسامةٍ ساحِرةٍ خالِبةٍ، فمادَتِ الأَرْضُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، وكادَ يَتَهاوى ممّا حَلَّ بِهِ. ولٰكِنَّها أَنْقَذَتْهُ فقالَتْ: «أَنا جِدُّ مَسْرورةٍ بمَجيئِكَ!»

فقالَ: «لم أَكُ أَعْلَمُ أَنَّكِ ماهرةٌ في التَّزَلُّجِ».

فتَمَعَّنَتْ في وَجْهِهِ، وكأَنَّها تَرومُ سَبْرَ غَوْرِهِ، واستِشفافَ ما يُرْبِكُهُ ويُقْلِقُهُ، وما لَبِثَتْ أَنْ أَجابَتْ: «ثَناؤُكَ عليَّ لهُ قيمتُهُ، فكُلُّ امرِئٍ يَعْرِفُ أَنَّكَ أَمْهَرُ مَنْ تَزَلَّجَ في موسكو».

ونَفَضَتْ بإصْبَعِها ما عَلِقَ بثِيابِها مِن ذَرّاتِ الثَّلْجِ.

قالَ: «لقد استَهْوَتْني هٰذِهِ الرِّياضةُ، ومَلَكَتْ لُبّي، لهٰذا عَزَمْتُ مُنذُ زَمَنٍ على التَّفَرُّغِ لَها والتَّمَرُّسِ فيها».

فأَجابَتْ ضاحكةً: «كُلُّ ما يَسْتَهْويكَ تُصِرُّ على نَيْلِهِ كما أَرى، فهَلُمَّ، ضَعْ في رِجْلَيْكَ عُدَّةَ التَّزَلُّجِ ولْنَلْعَبْ مَعًا».

وفَكَّرَ ليفينُ: «نَتَزَلَّجُ مَعًا! أنا وهْيَ! هل أُصَدِّقُ سَمْعي؟ أَغَدَوْتُ مِنَ السُّعَداءِ؟»

وما عَتَّمَ أَنْ ذَهَبَ إلى مَكانِ استِبدالِ المَلابسِ. فرَحَّبَ بهِ الخَدَمُ، وجاؤوا إلَيْهِ بما أَرادَ، وساعَدوهُ على الاستِعدادِ. ثُمَّ خَرَجَ إلى الحَلْبةِ، فدَنا مِن كاترينَ بِخُضوعِ العَبْدِ ورِقّتِهِ. ولٰكِنَّ ابتِسامَتَها شَدَّدَتْ قَلْبَهُ وعَزيمتَهُ، فأَمْسَكَ يَدَها وانسابَ مَعَها على الثَّلْجِ بِبُطْءٍ ثُمَّ بسُرعةٍ مُتزايدةٍ.

وبَرَقَتْ عَيْنا الحَسْناءِ وهْيَ تَشْعُرُ بالثِّقةِ والقُدْرةِ، وجَعَلَتْ تَضْغَطُ على يَدِهِ وتَقولُ: «مَعَكَ أَسْتَطيعُ أَنْ أَبُذَّ غيري، فأَنْتَ حَقًّا مِن أَمْهَرِ مَنْ تَزَلَّجَ. أَما تَراني كيفَ أَنسابُ دونَ وَجَلٍ؟»

فأَجابَ: «وأنا أَشْعُرُ بالثِّقةِ وأنْتِ بجانِبي!»

وقَفَزَ قَلْبُهُ بينَ ضُلوعِهِ... ما هٰذا؟ ما هٰذِهِ الجُرأةُ الَّتي لم يَعْهَدْها مِن قَبْلُ؟

وقد أَثَّرَتْ هٰذِهِ الكَلماتُ في الصِّلةِ الَّتي تَرْبِطُ بَيْنَهُما، فهْيَ ما كادَتْ تَسْمَعُها وتَتَفَهَّمُها حتّى قَطَّبَتْ حاجِبَيْها، وفَقَدَ وَجْهُها تِلكَ المَسْحةَ الواضِحةَ مِنَ الصّداقةِ، وكأَنَّهُ الشَّمْسُ تَحْتَجِبُ خَلْفَ غَيْمةٍ.

ورأَى ليفينُ ذٰلِكَ، فأَيْقَنَ أَنَّها تُفَكِّرُ، فقالَ مُتَرَدِّدًا: «أَثَمَّةَ ما يُزْعِجُكِ؟ هل هُناكَ ما يُقْلِقُ بالَكِ؟»

فأَجابَتْ بشيءٍ مِنَ الجَفاءِ: «لا، لا شيءَ البَتَّةَ!»

وصَمَتَتْ ثُمَّ اسْتَتْلَتْ: «وهل تُزْمِعُ المَكْثَ في موسكو طَويلًا؟»

فأَجابَ مِنْ دونِ إعمالِ الرَّوِيَّةِ: «لا أَدْري!».

- «وكيفَ لا تَدْري؟ بَيِّنْ لي ما تَقولُ!»

- «لا أَدْرِي متى أَرْحَلُ، لأَنَّ رَحيلي مَسْألةٌ لا يُبَتُّ فيها قَبْلَ التَّثَبُّتِ مِنْ أَمرِكِ!».

وأَجْفَلَ، وعَجِبَ لإِقْدامِهِ على الإِفْصاحِ عمّا يُخالِجُهُ مِنْ مآرِبَ وأَوْطارٍ.

فلمّا سَمِعَتِ الحَسناءُ ذٰلِكَ وَجَّهَتْ إِلَيهِ نَظْرةً مُتَأَمِّلةً مُتَفَحِّصةً، وكأَنَّها أَجْمَعَتْ أَمْرَها على تغييرِ المَوضوعِ، فقالَتْ وهْيَ تُشيرُ بيَدِها: «هٰذِهِ أُمّي قادمةٌ، أَلَمْ تَرَها؟»

وذُعِرَ الفتى كمَنِ اسْتَفاقَ مِنْ حُلْمٍ، ومَدَّ يَدَهُ في شُرودٍ فصافَحَ المرأَةَ الكَهْلةَ، وحَنى لها رَأْسَهُ، وهْوَ لا يَعْلَمُ إِنْ كانَ قد جَنى مِنْ تَهَوُّرِهِ خَيرًا، وإِنْ كانَ أَجْدَرَ بهِ لو أَنْعَمَ النَّظَرَ قَبلَ أَنْ يَصْنَعَ ما صَنَعَهُ حتّى تَرضى مَحْبوبَتُهُ، فتَقَرَّ لِرضاها عَينُهُ.

وارْتَفَعَ صَوْتُ الأُمِّ يقولُ: «ما أَرى فيكَ إِلَّا الِاجْتِهادَ في الِابْتِعادِ والِانزِواءِ، ولَيسَ لكَ في نُفوسِنا يا سَيّدي إِلَّا الشَّوقُ والإِخْلاصُ!»

فأَحْنى رَأْسَهُ ثانِيَةً.

وأَرْدَفَتْ وهْيَ تَثْنَي إِلى ابْنتِها: «هَلُمّي يا كاترينُ، فقد حانَ وَقْتُ الذَّهابِ».

ثُمَّ عادَتْ تُحَدِّثُ ليفينَ بلَهجَتِها الجافّةِ: «وإِنَّنا يا عَزيزي نَسْتَقْبِلُ الضُّيوفَ في يومِ الخَميسِ مِنْ كُلِّ أُسبوعٍ».

فقالَ: «يَومَ الخميسِ! اليَومَ...».

قالَتْ: «أَجَلْ، اليَوْمَ، واعْلَمْ أَنَّنا نُسَرُّ بمَجيئِكَ، إِنْ طابَ لَكَ المَجيءُ!»

وفكَّرَتْ كاترينُ في أُمِّها وكَلامِها المُقْتَضَبِ الجافي، فأَشْفَقَتْ على الشّابِّ، ورَنَتْ إِليهِ باسِمةً، وقالَتْ في دَعةٍ: «ولن تُسَوِّلَ لكَ نَفْسُكَ أَنْ تَمْتَنِعَ عنّا، فإِلى المُلْتَقى إِذًا في بَيْتِنا».

وهَمَّتْ بالمُضِيِّ مَعَ أُمِّها، إِلَّا أَنَّ ستيفانَ أوبلنسكي وَصَلَ في تِلكَ اللَّحظةِ، فتَرَيَّثَتِ الأُمُّ وطَلَبَتْ إِليهِ أَنْ يُحَدِّثَها عنِ ابْنتِها زَوْجتِهِ.

فَلَمْ يَجِدِ الرَّجُلُ بُدًّا مِن كِتمانِ ما شَجَرَ بَينَهُ وبَينَها، وزَعَمَ لها أَنَّها على خَيرِ ما يُرامُ، وأَنْ لَيسَ لها حاجةٌ إِلى مَزيدٍ مِن سَعادةٍ وهَناءٍ.

وانبَسَطَتْ أَساريرُ المَرْأَةِ لمّا بَلَغَها هٰذا القَوْلُ، فرَمَقَتْ زَوْجَ ابْنتِها بنِظْرَةِ الإِعْجَابِ والشُّكرِ، كأَنَّها تَجْعَلُ لهُ في نَفْسِها ميثاقَ الإِخلاصِ والمَحَبَّةِ، وذَهَبَتْ مَعَ ابْنتِها مُوَلِّيةً وَجْهَها شَطْرَ البيتِ.

وتَبِعَهُما ستيفانُ بعَيْنَيْهِ، فلمّا غابتَا عَنْ بَصَرِهِ تَأَبَّطَ ساعِدَ صَديقِهِ ليفينَ وقالَ: «لقد سَمِعْتُ كَلامًا لم أَصْدُقْ فيهِ كَثيرًا أو قليلًا...».

وضَحِكَ مُقَهْقِهًا وأَرْدَفَ: «هَيّا بِنا... هَيّا بِنا... فلَكَ عَلَيَّ حَقُّ الصَّديقِ، ولي عَلَيْكَ حَقُّ الاطِّلاعِ على ما جَرى وما سَوْفَ يَجري!»

أسئلة تحليلية

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - أَرأَيْتَ مِن كاترين وأُمِّها احتفاءً واضحًا بليفين؟

٣ - علامَ تَدلُّ قولةُ ليفين وهو يجيبُ عن سؤال كاترين: «أنا؟ لم آتِ إلّا... البارحةَ... أَعْني اليومَ»؟

٤ - إلامَ لَمّحَتْ كاترين إذ قالتْ له: «كلُّ ما يَسْتَهْويكَ تُصِرُّ على نيلِهِ كما أَرى»؟

٥ - أَتَرى أنَّ كاترين كانت تميلُ إلى ليفين كما يميلُ إليها؟ علِّلْ إجابتكَ ببعضِ ما قرأْتَهُ في هذا الفصلِ.

٦ - ما الَّذي جعلَ ليفين غيرَ مرغوبٍ فيه صِهرًا في الطَّبقةِ الرّفيعةِ من المجتمَعِ؟ وما رَأْيُكَ في ذلك؟

٧ - في هذا الفصلِ حِوارٌ وسَرْدٌ ونَجوى داخليَّةٌ. هاتِ مِثالًا لكلٍّ من هذه الأَساليبِ.

٨ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل السَّابع

ومَشيا صامِتَيْنِ مُطْرِقَيْنِ، ثُمَّ استَقَلَّا العَرَبَةَ إلى مَطْعَمٍ فَخْمٍ، وَلَجاهُ وانْتَبَذا رُكْنًا مُنْفَرِدًا مُنْعَزِلًا مِنْهُ.

ولاحَظَ ليفينُ وهُما يَدْلِفانِ إلى المَكانَ أَنَّ وَجْهَ صَديقِهِ يَنِمُّ عَن اضطِرابٍ يُحاوِلُ جاهِدًا أَنْ يُخْفِيَهُ، فحَدَّثَتْهُ نفسُهُ أَنْ يَسْتَفْسِرَ منهُ عمّا يَشْغَلُ لُبَّهُ، ولٰكِنَّهُ أَرْجَأَ ذٰلِكَ، وجَلَسَ مَعَ صَديقِهِ وطَلَبا إلى النّادِلِ أَنْ يَأْتِيَهُمَا بكَأْسَيْنِ مِنَ الخَمْرِ، ثُمَّ ما لَبِثا أَنْ طَلَبا الطَّعامَ.

وَبَعْدَ أَنْ أَكَلاَ وَشَرِبا طَفِقَا يَخوضانِ في مواضيعَ شَتّى إلى أَنْ سأَلَ أوبلنسكي صَديقَهُ أَخيرًا فقالَ: «هل تُزْمِعُ اللَّيلةَ الذَّهابَ إلى مَنزِلِ كاترينَ شِرْباتسكي؟»

فأَجابَ ليفينُ: «أَجَلْ، إنّي ذاهِبٌ، مَعَ أَنَّهُ تَراءى لي أَنَّ الأَميرةَ الأُمَّ قابَلَتْني بوَجْهٍ مُنْقَبِضٍ، ودَعَتْني إلى زِيارتِها بشَيْءٍ كثيرٍ مِنَ الفُتورِ».

- «لا تُعَجِّلْ في الحُكْمِ، فتِلْكَ عادَتُها، وهٰذا دَيْدَنُها[1]- تَقْطيبٌ مُزْمِنٌ، وعُبوسٌ راسِخٌ في أَمائِرِها! وأنا الآخَرُ أَنْوي زِيارةَ القَوْمِ إلّا أَنّي سآتي مُتَأَخِّرًا بَعْضَ الشَّيْءِ. والآنَ أَخْبِرْني، كيفَ تُسَوِّلُ لَكَ نَفْسُكَ مُبارَحةَ موسكو في المَرّةِ الأَخيرةِ كالهارِبِ الفارِّ مِنْ وَجْهِ العَدالةِ؟ فما أَكْثَرَ ما سأَلَني عَنْكَ الأَصْدِقاءُ، وأَخُصُّ أُسرةَ شِرْباتسكي... وكُنْتُ أَتَهَرَّبُ مِنَ الجَوابِ لِحَيْرتي في ما يَكونُ الجَوابُ! فأَنتَ شاذٌّ عَجيبٌ... أَنتَ نَسيجُ وَحْدِكَ في أَطْوارِكَ وأَعمالِكَ وأَفْعالِكَ!»

- «لا أُنْكِرُ ما جُبِلْتُ عَليهِ يا صَديقي... وعَوْدَتي الفُجائيَّةُ اليَوْمَ لأَبْلَغُ دَليلٍ على شُذوذي... لقد عُدْتُ، عُدْتُ مِنْ أَجْلِ...».

فقاطَعَهُ أوبلنسكي: «لَكَمْ أَغْبِطُكَ على حَظِّكَ المُشرِقِ أَيُّها الصَّديقُ!» وحَدَّقَ إلى عَيْنَيْهِ.

---

(١) دَيْدَنُها: عادَتُها.

- «لماذا؟»

فقالَ أوبلنسكي ضاحِكًا: «اِعْرِفِ الجَوادَ الأَصيلَ مِنْ خَطَرانِهِ... والعاشِقَ، اِعْرِفْهُ مِن عَيْنَيْهِ ولِسانِهِ!» واسْتَتْلى: «والفُرْصةُ مُتاحةٌ لكَ فأَقْدِمْ».

- «وأَنْتَ، أَوَلَّتْ فُرْصتُكَ في الحياةِ؟»

- «كلّا، بَيْدَ أَنَّ المُستَقْبَلَ لكَ، والحاضِرَ لي... الحاضِرُ... ماذا أَقولُ؟ قَد تَقَعُ أُعجوبةٌ».

- «ماذا تَعني؟ أَوْضِحْ!»

- «أَحْيانًا تَنْعَكِسُ الرِّيحُ على حينِ غِرّةٍ... على أَنّي لا أَرْغَبُ في التَّحَدُّثِ عن نفسي، ولو أَرَدْتُ لما تَسَنَّى لي رسمُ صورةٍ صادقةٍ عن الحالةِ... والآنَ أَخْبِرني، ما جاءَ بكَ إِلى موسكو؟»

فحَدَّدَ الفتى طَرْفَهُ في وَجْهِ أوبلنسكي وأَجابَ: «أَلم تَحْزُرْ مُنذُ دَقائقَ؟ لقد أَصابَ حَدْسُكَ!»

- «لا أُنْكِرُ أَنّي علِمْتُ مِنَ الوَهْلةِ الأُولى مَأْرَبَكَ هُنا، بَيْدَ أَنّي لم أَتَكَلَّمْ، لأَنَّكَ الفَريقُ الَّذي يَخْلُقُ بِهِ أَنْ يَسْتَهِلَّ الكَلامَ».

فاضْطَرَبَ ليفينُ، وصَعِدَ الدَّمُ إِلى رَأْسِهِ وقالَ: «فما قَوْلُكَ إِذًا؟ وكيفَ تَنْظُرُ إِلى المَسألةِ؟»

فجَرَعَ ستيفانُ أوبلنسكي ما تَبَقّى في كأْسِهِ وأجابَ: «هٰذا جُلُّ ما أَتَمَنّاهُ، أَتَمَنّى أَنْ تَبْلُغَ وَطَرَكَ وتَفوزَ بضالَّتِكَ». فَنَظَرَ إِليهِ ليفينُ نِظرَةَ مَنْ غَشِيَهُ الأَمَلُ والأَلَمُ وقالَ مُتَسائلًا: «أَتَمْحَضُني كاترينُ الصِّدْقَ؟ أَتُبادِلُني المَحبَّةَ؟ أَواثِقٌ أَنْتَ ممّا تَقولُ؟»

- «إِنّي لَكَ ماحِضٌ كُلَّ إِخاءٍ يا صاحِ، فاطْمَئِنَّ إِلَيَّ، واعْلَمْ أَنّي بأَمْرِكَ عَليمٌ!»

- «وهل يَسْتوي لي الأَمْرُ؟ هل أَنالُ الجَمالَ؟»

- «لا تَتَطَيَّرْ ولا تَتَشاءَمْ، فكُلُّ شيءٍ جائزٌ في الدُّنيا».

- «لا تَتَعَلَّقْ بخيوطِ الأَوْهامِ، بل أَخْبِرْني صَراحةً، هل تَظُنُّ أَنّي لن أَرْجِعَ بخُفَّيْ حُنَينٍ؟ هل تُرَجِّحُ القَبولَ؟ لَشَدَّ ما أَخافُ الرَّفْضَ، لَشَدَّ ما أَرْتَعِشُ خَوْفًا مِنَ الإِخْفاقِ».

- «تُرَّهاتٌ... أباطيلُ... أوْهامٌ».

- «كلّا، كلّا... بل إنَّ الرَّفْضَ يَضيرُني، وهْوَ كَذٰلِكَ يَحْمِلُ الأذى لَها».

- «ولِمَ ذاكَ؟ وهل تُضارُ فَتاةٌ متى كَثُرَ الرّاغبونَ في زَواجِها؟»

- «قد يَنْطَبِقُ ذٰلِكَ على سائِرِ الفَتَياتِ، أمّا هِيَ فلا... لا...».

وابْتَسَمَ ستيفانُ... وقَرَأَ أفْكارَ ليفينَ، وأيْقَنَ أنَّ العَاشِقَ المُتَيَّمَ يَقْسِمُ فَتَياتِ العالَمِ إلى قِسْمَيْنِ: القِسْمُ الأوَّلُ، الفَتَياتُ جَميعًا إلّاها، وهُنَّ مُتَّصِفاتٌ بالضَّعْفِ البَشَرِيِّ، والخَوَرِ، والوَهَنِ... والقِسْمُ الثاني هِيَ وَحْدَها، الكاملةُ، القَوِيَّةُ، المُتَسَنِّمةُ الذُّرْوَةَ، فَوْقَ الجَميعِ، فَوْقَ الجَميعِ!

واسْتَتلى ليفينُ يقولُ: «واعْلَمْ أنَّ المَسألَةَ هِيَ مَسْأَلَةُ حَياةٍ أو مَوْتٍ بالنِّسبةِ إليَّ. ولم يَسْبِقْ أنْ بُحْتُ بسِريّ لأحَدٍ قَبلَ اليَوْمِ، وليسَ في نِيّتي إماطةُ اللِّثامِ عن عاطِفتي إلّا لَكَ وَحْدَكَ... نحنُ ضِدّانِ في المَشْرَبِ والطَّبْعِ والعادةِ إلّا أنّي مُوقِنٌ بأنَّكَ تُحِبُّني وتَفْهَمُني؛ ولِهٰذا تَراني كَلِفًا بكَ إلى أبْعَدِ حَدٍّ... وأُناشِدُكَ اللهَ أنْ تَصْدُقَني القَولَ، كُنْ صَريحًا معي!»

فقالَ أوبلنسكي ضاحِكًا: «أَلَمْ أُكاشِفْكَ بما أَراهُ وأَعْتَقِدُهُ؟ وأَزيدُكَ الآنَ، فأُنْبِئُكَ أنَّ زَوْجي امرأةٌ مُدْهِشَةٌ».

وتَنَهَّدَ ستيفانُ أوبلنسكي تَنَهُّدَةَ الكآبةِ، فقد تَذَكَّرَ الخِلافَ المُحْتَدِمَ بَيْنَهُ وبينَ زَوْجِهِ، ولٰكِنَّهُ أَرْدَفَ يَقولُ: «ولها القُدرةُ على التَّكَهُّنِ بما تأتي بِهِ الأيّامُ، إنَّها تَرْجُمُ بالغَيبِ[1]، وخُصوصًا في ما يَمُتُّ إلى أُمورِ الزَّواجِ... وهْيَ تُظاهِرُكَ الآنَ وتَتَحَمَّسُ لكَ».

- «أَوْضِحْ، أَوْضِحْ...».

- «إنَّها تَميلُ إليكَ، وتَزْعَمُ أنَّ كاترينَ ستكونُ لا محالةَ زَوْجَتَكَ».

فانْبَسَطَتْ أَساريرُ ليفينَ، وأَشرَقَ مُحيّاهُ، وكادَتْ دُموعُ التَّأثُّرِ تَطْفُرُ مِن عَيْنَيْهِ، ولٰكِنَّهُ كَتَمَ ما داخَلَهُ، وصاحَ بصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ مُنْفَعِلٍ: «هٰذا ما تَقولُهُ؟ إنّني دائمًا جَهَرْتُ برَأيي فيها- في زَوْجتِكَ- إنَّها امرأةٌ رائعةٌ مِثاليّةٌ.. ونِعْمَ الزَّوْجُ هِيَ!»

---

(١) تَرْجُمُ بالغَيبِ: تَتَنَبَّأُ بما يأتي بِهِ الغَيبُ.

ونَهَضَ واقِفًا، وجَعَلَ يَذْرَعُ ذٰلكَ الرُّكنِ جيئةً وذَهابًا ويَقولُ: «واعْلَمْ أَنَّ ما أَشْعُرُ بِهِ ليسَ حُبًّا، إِنَّهُ قُوّةٌ خارِقةٌ استَوْلَتْ على مَشاعري، وأَحاسيسي، وإرادتي... وقد اختَفَيْتُ مِن موسكو ظَنًّا منّي أَنَّ ما أَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ هُوَ الثَّرَيَّا، هُوَ سَعادةٌ لا يَلْقاها المَرْءُ في الدُّنيا. وخَلَّفَتْني الذِّكرى حَليفَ عِراكٍ مُمِضٍّ مُضْنٍ.. كُنْتُ أُفَكِّرُ لَيْلَ نَهارَ.. كُنْتُ أُفَكِّرُ، وأُفَكِّرُ... حتّى داخَلَ رَوْعي أَخيرًا أَنّي لن تَطْمَئِنَّ بي حَياةٌ ولن يَسْتَقِيمَ أَمْرٌ إِلّا بكاترينَ... أَجَلْ، إِنَّها كُلُّ شيءٍ لي... أَفَما تَرى أَنَّ مَشاعري الحَقيقيّةَ هِيَ قُوّةٌ تَبُذُّ الحُبَّ بمَراحِلَ؟!»

* * *

واغْرَوْرَقَتْ عينا ليفينَ بالدُّموعِ، فقَطَعَ حَديثَهُ كَيْما يُكَفْكِفَها ثُمَّ جَلَسَ ثانيةً إِزاءَ صَديقِهِ واسْتَغْرَقَ في الفِكْرِ.

وتَمَلْمَلَ أوبلنسكي في مَقْعَدِهِ، وقالَ بصَوْتٍ هادِئٍ رَصينٍ: «ولا بُدَّ مِنْ أَنْ تَطَّلِعَ على الأُمورِ كُلِّهَا يا ليفينُ، فهل لكَ سابِقُ مَعْرِفةٍ بالشّابِ «فرونَسْكي»؟»

- «لا، لا أَعْرِفُهُ، فمَنْ هُوَ؟ ولِمَ السُّؤالُ؟»

- «لأَنَّ في نفسِهِ حاجةً، لأَنَّهُ طالِبُ زَواجٍ، وبَصَرُهُ وقَلْبُهُ مَطْمَحُهُما كاترينُ...».

واسْتحالَ وَجْهُ ليفينَ في مِثْلِ لَمْحِ البَصَرِ مِنَ النُّضْرةِ والدَّعةِ، إِلى الاِمْتِقاعِ والاحْتِدامِ والتَّوَعُّدِ، حتّى إِنَّ ستيفانَ بُهِتَ ممّا رأَى، ونَفَرَ قَلْبُهُ قليلًا، وسارَعَ يَقولُ: «وهْوَ نَجْلُ الكُونْتِ إِيفانَ فرونسكي، فتًى غُرانِقٌ[1] يَشْدَهُ مَرآهُ النّاظرينَ، وتُلْقي إِليهِ الحِسانُ المَقادةَ والزِّمامَ. وهْوَ كأَبيهِ أَرْيَحِيٌّ جَوادٌ لا ضَهِيٌّ[2] لَهُ في بطرسبرج، وقد تَقابَلْنا وتَعارَفْنا في «تفير»، يَوْمَ قَصَدْتُ المَدينةَ في عَمَلٍ لي... أَمّا ثَراؤُهُ فواسِعٌ، وأَمّا جاهُهُ فمُنْبَسِطٌ عَريضٌ... ونُفوذُهُ لا يُقارِنُهُ نُفوذُ سَرِيٍّ[3] آخَرَ في البِلادِ... ولا جَرَمَ أَنَّ المُسْتَقْبَلَ مَفتوحٌ أَمامَهُ، وتَقَدُّمَهُ في مِضمارِ السِّياسةِ والمَراتِبِ العُليا أَمْرٌ لا يَشُكُّ فيهِ إِنْسانٌ!»

فخَفَقَ قَلْبُ ليفينَ، ولٰكِنَّهُ لَمْ يُحِرْ جَوابًا، بل أَخْلَدَ إِلى الصَّمْتِ مُفَكِّرًا.

---

(١) غُرانِق: شابٌّ أَبيضُ جميلٌ.

(٢) لا ضَهِيَّ له: لا مُنافِسَ له.

(٣) سَرِيٌّ: شَريفٌ.

واسْتَمَرَّ ستيفانُ أوبلنسكي يَقولُ: «وجاءَ عَقِبَ رَحيلِكَ إلى موسكو، فَفَتَتْهُ الغادةُ واسْتَوْلَتْ على لُبِّهِ، وهُوَ الآنَ غارِقٌ في حُبِّها، وأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ أُمَّها...».

فقاطَعَهُ ليفينُ: «كلّا، لا أَعرِفُ شَيئًا!»

- «لا تُسَلِّمْ أَمْرَكَ لليَأْسِ، فما كانَ لي مَحيصٌ عن كَشْفِ النِّقابِ عن كُلِّ ما أَعْرِفُ، حتّى تكونَ على بَيِّنَةٍ مِن أَمرِكَ، فتَتَصَرَّفَ تَصَرُّفَ العارفِ المُلِمِّ. وأنا، إنْ أَرَدْتَ أَنْ تَسْمَعَ مِنّي رَأْيي، أَعْتَقِدُ يقينًا أَنَّ كِفَّتَكَ هِيَ الرَّاجحةُ...».

وتَهافَتَ[1] ليفينُ وأَطْرَقَ برَأْسِهِ.

وأَتَمَّ أوبلنسكي: «وأُزْجي إليكَ النُّصْحَ في المبادرةِ إلى إتمامِ الأَمرِ، اللَّيْلَةَ... اللَّيْلَةَ...».

وأَتْرَعَ الكَأْسَيْنِ الخاوِيَتَيْنِ.

فقالَ ليفينُ: «شُكرًا... لا أُريدُ أَنْ أَزيدَ حتّى لا تَصْعَدَ سَوْرَةُ الشَّرابِ[2] إلى رَأْسي. هَلاَّ خَبَّرْتَني عن نَفسكَ شَيْئًا! تَكَلَّمْ أَيُّها الصَّديقُ، قُلْ لي أَخْبارَكَ».

فلم يَكْتَرِثْ أوبلنسكي لكَلِماتِهِ الَّتي أَرادَ منها تَغْييرَ دَفَّةِ الحَديثِ، بل أَنْشَأَ يَقولُ: «أَجَلْ، أَنْصَحُكَ بالتَّقدُّمِ إلى أُمِّها في طَلَبِ يَدِها مِن دونِ أَنْ تُؤَجِّلَ المَسألةَ إلى الغَدِ!»

فقالَ: «أَلا تَأْتي إلينا في الرَّبيعِ للتَّمَتُّعِ بمَباهِجِ الرّيفِ ومُزاولةِ الصَّيدِ الَّذي حَبَسَتْكَ عنهُ شَواغِلُكَ؟».

ولا شَكَّ أَنَّهُ نَدِمَ كثيرًا على إطْلاعِ ستيفانَ أوبلنسكي على سِرِّهِ، وخَيَّلَ إليهِ الزَّهْوُ أَنَّ كَرامَتَهُ قد جَرَحَها وُجودُ مُنافِسٍ لهُ في حُبِّ كاترينَ.

وفَطِنَ ستيفانُ إلى ما دارَ في خَلَدِ صَديقِهِ مِن عَوامِلِ النَّدامةِ، فتَبَسَّمَ وقالَ: «سوفَ آتي في أَحَدِ الأَيّامِ؛ غيرَ أَنَّ النِّساءَ يا عَزيزي هُنَّ المِحْوَرُ الَّذي تَدورُ حَوْلَهُ الدُّنيا بأَسْرِها، وعُقَدي في الوَقتِ الحاضِرِ كَثيرةٌ، وليسَ لها حَلَّالٌ، والسَّبَبُ في كارثتي هوَ المَرأةُ...».

وأَشْعَلَ ستيفانُ سيجارةً واسْتَطْرَدَ يَقولُ: «هَبْ أَنَّكَ رَجُلٌ مُتَزَوِّجٌ، تُحِبُّ زَوْجَكَ، ولٰكِنَّ

---

(١) تَهافَتَ: ضَعُفَتْ نَفْسُه.

(٢) سَوْرَةُ الشَّراب: حِدَّتُه.

امرَأَةٌ أُخرى تَعْتَرِضُ طَريقَكَ وتَسْتولي على قَلبِكَ، وتَفْتِنُكَ...».

فعارَضَهُ ليفينُ قائلًا: «اِصْفَحْ عَنّي إنِ اعْتَرَضْتُ عليكَ- فأنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَسْتَوْعِبَ ما قُلْتَ الآنَ، كما لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْهَمَ كيفَ يَتَسَنّى لي، بَعْدَ أَنْ شَبِعْتُ هُنا، أَنْ أَسْتَرِقَ الخَطْوَ إلى دُكّانِ خَبّازٍ وأَسْرِقَ مِنْهُ رَغيفًا!»

فبَرَقَتْ عينا ستيفانَ أوبلنسكي أَكْثَرَ مِنَ المُعتادِ وقالَ: «وما المانِعُ؟ قد يَكونُ للرّغيفِ المَسْروقِ رائحةٌ لَذيذةٌ لا قِبَلَ لكَ على مُقاومةِ إغْرائِها... واعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ المرأةَ، مَخْلوقٌ أَنيسٌ جَميلٌ، ضَحَّتْ بكُلِّ شيءٍ في سَبيلِ حُبِّها ومِن أَجْلِ حَبيبِها المُتَزَوِّجِ، فكيفَ يُطاوِعُكَ قَلْبُكَ على إهمالِ أَمرِها بَعْدَ الَّذي ظَهَرَ مِنها؟ ولو سَلَّمْنا جَدَلًا أَنَّ الرَّجُلَ يُفارِقُها إبقاءً على حَياتِهِ العائليّةِ وصَوْنًا لمُسْتَقْبَلِ أَولادِهِ، فهل يَقْدِرُ على مَحوِها مِن ذاكرتِهِ؟ هل يَسْتطيعُ أَنْ يَطْمِسَ شَبَحَها في مُخَيِّلتِهِ؟»

- «ولٰكِنْ... ولٰكِنْ...».

- «إنَّ زَوْجَكَ، تَتَقَدَّمُ في العُمْرِ، إنَّها تَفْقُدُ رَواءَها، وتُخَلِّفُ فِتْنَتَها وراءَها، بينما تَحْتَفِظُ أَنْتَ بحَيَويّتِكَ ورَغْبَتِكَ وشَهوتِكَ... وقَبلَ أَنْ يَسْمَحَ لكَ الوَقْتُ بالالتِفاتِ إلى الخَلْفِ، تَشْعُرُ بأَنَّهُ يَتَعَذَّرُ عليكَ مُبادلةُ زَوجتِكَ الحُبَّ، مهما كانَ احترامُكَ وتَقْديرُكَ لها، وعلى حينِ بَغْتةٍ يَتَغَلْغَلُ الحُبُّ مِن جِهةٍ ما إلى قَلْبِكَ، يَخْتَرِقُ شَغافَ هٰذا القَلْبِ كالنَّصْلِ، ويَجْثُمُ في سُوَيْدائِهِ، في حَبَّتِهِ... وتَقَعُ حينذاكَ الطّامَّةُ الكُبرى، وتَحِلُّ النازلةُ، وتُلِمُّ المُصيبةُ!».

وتَنَفَّسَ ستيفانُ الصُّعَداءَ مِن شِدَّةِ الكَرْبِ واسْتَطْرَدَ: «لقد قُضِيَ عليكَ إذًا متى وَقَعْتَ، فما العَمَلُ؟»

فقالَ ليفينُ بابتِسامةٍ عابسةٍ: «لا تَسْرِقِ الخُبزَ!»

فاسْتَغْرَبَ ستيفانُ ضاحِكًا وكأَنَّهُ نَسِيَ مُصيبتَهُ، وكأَنَّهُ ما سَبَرَ البَلْوى الَّتي تُوشِكُ أَنْ تُطَوِّحَ بدَعائم بَيتِهِ، وقالَ بَعْدَ يَسيرٍ: «لا تُلْجِئْني، يا ليفينُ، إلى مُبادلتِكَ دُعابةً بدُعابةٍ، فالمَوْقِفُ يَسْتَوجِبُ الرَّوِيَّةَ وإعمالَ الفِكْرِ. هُناكَ امْرَأَتانِ، إحْداهما تُطالِبُ فقط بحُقوقِها، وهٰذِهِ الحُقوقُ هِيَ حُبُّكَ الَّذي لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَتَبَرَّعَ بِهِ لأَيِّ كانَ، والأُخرى تُضَحِّي بكُلِّ شيءٍ مِن أَجْلِكَ، ولا تَطْلُبُ منكَ شَيئًا. فماذا يا تُرى تَفْعَلُ؟ وكيفَ تَتَصَرَّفُ؟ وفي أَيِّ طريقةٍ تَرْقَأُ دُموعَ هٰذِهِ، وتُلاشي زَفَراتِ تِلْكَ؟ إنَّ في هٰذا الأَمرِ مأْساةً وأَيُّ مأْساةٍ، يَنْطوي عليها وُقوعُ

الرَّجُلِ بينَ مِطْرقةٍ وسِنْدانٍ!»

– «لو عَبِثْتَ برَأْيي، فإنّي أَقولُ صَراحةً أَنْ لا وُجودَ لهٰذهِ المَأْساةِ، إنَّ الحُبَّ بحَسَبِ وُجْهَةِ نَظَري، الحُبَّ المُتَفَرِّعَ إلى فَرْعينِ، الَّذي يَضَعُهُ أفلاطونُ كمِحَكٍّ للرِّجالِ، لا يَفْهَمُ فَرْعَيْهِ أَحَدٌ، بل هُناكَ فَريقٌ يَفْهَمُ هٰذا وفَريقٌ يَفْهَمُ ذاكَ. أَمّا أُولٰئِكَ الَّذينَ لا يَعْتَرِفونَ بالحُبِّ الأفلاطونيِّ المُجَرَّدِ، فليسَ لَهُمْ أَنْ يَتَكَلَّموا على المَأْساةِ ووجودِ المَأْساةِ، لأَنَّهُ لا يُعْوِزُهُمْ أَكْثَرُ مِن بِضْعِ كَلِماتٍ يَقولونَها في مَجالِ التَّرْضيةِ والاسْتِرضاءِ، كأَنْ يَقولوا للمَرْأَةِ المَنكودةِ: «لَكِ مِنّا أَبلغُ شُكرِنا، فقد يَسَّرْتِ لنا مُتْعَةً ولَذَّةً وشَهْوةً».

وكذٰلك لا ينطوي الحُبُّ الأفلاطونيُّ على المَأْساةِ، لأَنَّه حُبٌّ نَقِيٌّ، طاهِرٌ، خالٍ مِنَ الشَّوائِبِ، ومِثْلُ هٰذا الإحْساسِ المُصَفًّى لا يُمْكِنُ للمأْساةِ أَنْ تَتَغَلْغَلَ إليهِ، أو تَتَرَعْرَعَ فيهِ!»

وتَنَهَّدَ أوبلنسكي وحَبَسَ لِسانَهُ فلم يَتَكَلَّمْ، وأَمْسَكَ عن زَفْرةٍ كادَتْ أَنْ تَخْرُجَ مِن فيهِ.

واسْتَرْسَلَ الاثْنانِ في الفِكْرِ، واعْتَمَلَ في صَدْرَيْهِما خَليطٌ عَجيبٌ مِنَ الأَحاسيسِ والمَشاعِرِ... ولا رَيْبَ أَنَّهُما، بالرَّغْمِ مِنَ الصَّداقةِ الوَثيقةِ العُرى الَّتي تَربِطُ بَيْنَهُما، وبالرَّغْمِ مِن مَجالسِ الأُنسِ واللّهوِ الَّتي جَمَعَتْ بَيْنَهُما، وبالرَّغمِ مَنِ الوُدِّ المَتينِ الوَشائِجِ الَّذي كانَ الصِّفةَ المأْثورةَ عنهُما، شَعَرا في تلكَ اللَّحظَةِ بالابْتِعادِ والتَّنائي، بل خُيِّلَ إلى كُلٍّ مِنهُما أَنَّ الآخَرَ غريبٌ لم يَرَهُ مِن قَبْلُ، وأَنَّهُ ذو مَطامِحَ ومَطامِعَ ومُيولٍ.

ولم يَجِدا مَنْدوحةً في نِهايةِ الأَمرِ، وقد ضاقا ذَرْعًا بالصَّمْتِ، وبَرِما بِهٰذا الشُّعورِ، وتَرَمَّضَتْ نَفْساهُما بذٰلِكَ الإحساسِ الْمُبْهَمِ الغامضِ الَّذي طَفِقَ يوسِعُ الشِّقَّةَ بينَ قَلْبَيْهِما، لم يَجِدِ الاثْنانِ بعدَ هٰذا التَّنافُرِ البَاطِنِيِّ إِلَّا أَنْ يَبْرَحا المَكانَ إبْقاءً على ما رَبَطَ بَيْنَهُما مِن أُلفةٍ، وإشفاقًا على تِلْكَ الصَّداقةِ الوَثيقةِ مِنَ التَّصَدُّعِ والزَّوالِ!

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - بدأتْ تتوضَّحُ في هذا الفصلِ خيوطُ العُقْدَةِ الثّانيةِ في الرِّوايةِ؛ فهَلّا حدَّدتَ مكانَ بَدْئِها!

٣ - لِمَ حاوَل ليفين أن يغيِّرَ الحديثَ فيحيدَ عن حديثِ حبِّه لكاترين؟

٤ - ما مَعنى قولِ ليفين: «لا أستطيعُ أن أَفْهَمَ كيف يَتَسَنّى لي، بعدَ أن شَبِعْتُ هنا، أن أَستَرِقَ الخَطْوَ إلى دُكّانِ خَبّازٍ وأسرقَ منه رغيفًا.»؟

٥ - ما المعنى المَقْصودُ بالحُبِّ الأَفلاطونيِّ؟

٦ - مَن هوَ مُنافِسُ ليفين على قلبِ كاترين؟

٧ - بمَ وصَفَ ستيفانُ هذا الشّابَّ؟

٨ - بمَ امتازَتْ شخصيَّةُ السيِّدةِ شرباتسكي كما بدتْ من خلالِ وصفِ صهرِها ستيفان؟

٩ - للحوارِ دورٌ في رَسْمِ الشَّخْصِيّاتِ. اذكرْ نقاطَ التّناقُضِ بين شَخْصِيَّتَي ليفين وستيفان كما بدَتْ لكَ من خلالِ الحوارِ بينهما في هذا الفصلِ.

١٠- أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الثَّامن

لا يَخْتَلِفُ اثْنانِ في أَنَّ كاترينَ شرباتسكي زهرةٌ اكتَمَلَ طَلْعُها وسَطَعَ عَبيرُها. لا يَخْتَلِفُ اثْنانِ في أَنَّها ما كادَتْ تَتَرَعْرَعُ وتَبْلُغُ مِنَ العُمُرِ ثمانيةَ عَشَرَ عامًا حتّى زَها حُسْنُها بها، وكأَنَّ الحُسْنَ يَفْخَرُ بأَنْ يُنْسَبَ إليها؛ وتألَّقَ الجمالُ بسَناها، وكأَنَّ الجَمالُ يُعْوِزُهُ نورٌ يَنْبَثِقُ مِن ثَناياها.

وما كانَتْ أُمُّها لِتُصَدِّقَ، لولا وُقوفُها مِنَ المُجتَمَعِ عن كَثَبٍ، ما لاقَتْهُ كَريمتُها مِن إعْجَابٍ في الوَسَطِ الرّاقي، فما مِن شابٍّ في موسكو إلَّا وزارَهُ طَيْفُها مِرارًا، وما مِن فتًى عَريقٍ عَريضِ الجاهِ إلَّا وأَدْرَكَهُ مِن عَرْفِها[1] شذًا.

وسُرعَانَ ما بَرَزَ إلى الأمامِ شابّانِ مِن خيرةِ الشَّبابِ، هُما ليفينُ الشّابُّ القَوِيُّ الجادُّ، والكُونتُ فرونسكي المُتْرَفُ الأَنيقُ الَّذي تَعْنُو[2] لسِحْرِهِ الجِباهُ.

ولم يَكُنْ ليفينُ مِن رَهْطِ اللَّهْوِ، بل كانَ طالِبَ مُصاهرةٍ. . فما كادَ يُظْهِرُ رَغْبَتَهُ في تردُّدِهِ على بَيْتِ كاترينَ، حتّى فَطِنَ أَبواها إلى اكتِمالِ أُنوثَتِها ونُضْجِ جَمالِها، وحتّى آلى كلٌّ مِنْهُما أَنْ يَبْحَثَ لها عن أَكْرَمِ صِهْرٍ، لَدومَ بذٰلكَ سَعادتُها، وتَعيشَ أَيَّامَها في نِظامٍ مِن الهَناءِ والصَّفاءِ بَديعٍ!

إلَّا أَنَّ رَغْبَتَهُما تَشَعَّبَتْ، وأَمْرَ زَواجِها مِنَ الرَّجُلِ الأَفْضَلِ أَثارَ بينَهُما عاصِفةً مِنَ الشِّجارِ والمُشاحَنةِ. فالأَبُ يَميلُ كُلَّ المَيْلِ إلى ليفينَ، ويَرى فيهِ مِثالَ الرَّجُلِ الصّالحِ الكَريمِ، والأُمُّ هِيَ، الأُمُّ، وقَبْلَ أَنْ تَكونَ كذلكَ، هي امرَأَةٌ. ومِنْ عادةِ المَرْأَةِ أَنْ لا تَستَقيمَ على أَمْرٍ، بل مِن شَأْنِها أَنْ تُماطِلَ وتُسَوِّفَ وتَتَرَدَّدَ. فكَرَّةً تَقولُ إنَّ كاترينَ طِفْلَةٌ لم تَبْلُغْ طَوْرَ الشَّبابِ، وأُخرى تَزْعُمُ أَنَّ ليفينَ مُحتارٌ في أَمْرِهِ، يُقْدِمُ ثُمَّ يُحْجِمُ، وأَنَّ كاترينَ لم تُظْهِرْ نحوَهُ أيَّ حُبٍّ

(١) العَرْفُ: الرّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ.

(٢) عَنا (يَعْنو) لهُ: خَضَعَ لهُ.

أو رِضًا.

وقد جابَهَتْ زَوْجَها أخيرًا برَفْضِها، وأَخْبَرَتْهُ صَراحةً أَنَّ آخِرَ زَوْجٍ تَتَمنّاهُ لابْنتِها هُوَ ليفينُ.

ودَرى ليفينُ بما شَجَرَ مِنْ خِلافٍ بينَ الزَّوْجَيْنِ بسَبَبِهِ، فارْتَحَلَ عن موسكو. وكانَ رَحيلُهُ البَشيرَ بزَوالِ الغَمامةِ الَّتي ظَلَّلَتْ سَماءَ البَيتِ السَّعيدِ رَدَحًا مِنَ الوَقْتِ. ولم تَكْتُمِ الأُمُّ فَرْحتَها، بل إنَّها خاطَبَتْ زَوْجَهَا عَقِبَ ذَهابِهِ بقَوْلِها: «ها هوَ صاحِبُكَ يَتَصَرَّفُ كالأَخْرَقِ الّذي لا يَفْهَمُ مِنْ معاني الآدابِ إلَّا اسْمَها مُجَرّدًا مِن كلِّ صِفةٍ! لقد ظَعَنَ[1] مِن دونِ أَنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ مَنْ يَرْمي إلى البَتِّ في أَمْرٍ!»

ولمّا بَزَغَ نَجْمُ الشّابِّ فرونسكي في موسكو، وغَدا مَطْمَحَ أَنْظارِ الحِسانِ، تَضاعَفَ ارْتياحُ الأُمِّ لذَهابِ ليفينَ، وَجَعَلَتْ تَحْتَفي بفرونسكي وتُظهِرُ لَهُ الشَّيءَ الكثيرَ مِن ضُروبِ المَوَدَّةِ.

فمَنِ الَّذي يَجْرُؤُ على المُقارنةِ بينَهُ وبينَ ليفينَ؟ مَنْ يَسْتَطيعُ أَنْ يُقارِنَ بينَ المَحبوبِ والمَكْروهِ، أو بَيْنَ الزَّهْرِ والشَّوْكِ؟

كانَ ليفينُ خَشِنًا يَنْفُرُ مِنَ النَّاسِ، ويَبْتَعِدُ عَنِ المُجْتَمَعِ. كانَ يُعْنى بسائمتِهِ أَكْثَرَ مِن عِنايتِهِ بالنّاسِ، وكانَتْ حَظائرُ الخَنازيرِ أَدعى لهَنائِهِ وراحَتِهِ مِن رُدُهاتِ الاسْتِقبالِ!

ثُمَّ، هل عَزَمَ على أَمْرٍ؟ هل تَقَدَّمَ طالبًا يَدَ كاترينَ؟ لا، لم يَفْعَلْ شيئًا مِن هٰذا القَبيلِ، مَعَ أَنَّهُ غَشِيَ مَنْزِلَها أَسابيعَ وأَسابيعَ. لقد تَرَدَّدَ كَثيرًا، كأَنَّهُ يَضِنُّ على أَهْلِها بهٰذا الشَّرَفِ، وكأَنَّهُ يَعْتَبِرُ نفسَهُ أَعْلى مَرْتبةً مِنْهُمْ، أو كأَنَّهُ لا يُريدُ أَنْ يَفْهَمَ واجِبَهُ الَّذي يَفْرِضُهُ عليهِ العُرْفُ والعادةُ.

وعلى حينِ فَجْأَةٍ يَلوذُ بأَذْيالِ الهَرَبِ، فيَفِرُّ مِنَ المدَينةِ، كأَنَّ المُقامَ في موسكو نبا[2] بهِ، لخَوْفٍ غَشِيَهُ مِن كاترينَ وعائِلَتِها، ولمَكروهٍ خَشِيَ أَنْ يُصيبَهُ مِنْهُمْ!

وعلى نَقيضِهِ كانَ فرونسكي- فهْوَ في رَأْيِها الشّابُّ السَّعيدُ الَّذي رَزَقَهُ اللهُ مِنَ العَقْلِ

---

(١) ظَعَنَ: رَحَلَ.

(٢) نَبا بهِ: جَفاهُ، لم يَطِبْ لهُ.

أَفْضَلَ الحَظِّ، ومِنَ الحَصافةِ[1] أَجْزَلَها، ومِنَ الغِنى أَكْثَرَهُ. وهْوَ الشَّابُّ الَّذي سَدَّدَ اللهُ خُطاهُ في أَنفَعِ السُّبُلِ، وجَلَبَ لكُلِّ مَنْ أَلَمَّ بهِ الحَظَّ والسَّعْدَ، وبَلَغَ الرُّتبةَ القُصْوى بأَفْعالِهِ وخِصالِهِ! وقد انْطَبَعَتْ في ذِهْنِها صورةٌ رائِعةٌ لهُ كزَوْجٍ لابنَتِها. وهْوَ فَوْقَ هٰذا ضابطٌ رَفيعٌ في البَلاطِ، ومُسْتَقْبَلُهُ في المَجالِ العَسْكَرِيِّ يُبَشِّرُ بكُلِّ تَقَدُّمٍ... وحَدِّثْ ولا حَرَجَ عن حُسْنِ طَلْعَتِهِ وأَناقةِ مَظْهَرِهِ... وهٰذا ما تَرغَبُ فيهِ المَرأةُ وتَتوقُ إليهِ!

ولمّا فَرَغَتْ ممَّا أَرادَتْ مِن تَكْوينِ الرَّأْيِ، بَدَأَتْ تَنْظُرُ إليهِ نَظَرَها إلى صِهْرِها، وتُظْهِرُ كَثيرًا مِن ضُروبِ الحَفاوةِ والسُّرورِ، إذا ما جاء زائرًا، فتُحيطُهُ بعِنايتِها، وتُمَهِّدُ لهُ سَبيلَ الخَلْوةِ بابْنتِها... وقد وَقَعَتْ كاترينُ في قَلْبِهِ مَوْقِعًا حَسَنًا فهْوَ لا يُفارِقُها كُلَّما اجْتَمَعا في حَفْلٍ، وهْوَ لا يُراقِصُ سِواها، وهْوَ يَنْظُرُ إليها نَظَرَهُ إلى سيِّدةٍ مُحترَمةٍ جَديرةٍ بالتَّقديرِ والتَّبجيلِ، خَليقةٍ أَنْ يَتَّخِذَها الإنسانُ لهُ حَليلةً.

واسْتَبْشَرَتِ الأُمُّ ساعةَ لَمَّحَ لها الشّابُّ برَغْبَتِهِ. لم يَقُلْ لها مُباشَرةً إنَّهُ يَهْوى ابْنَتَها ويَوَدُّ لو تَزَوَّجَها، بل قالَ مِنَ الكَلامِ ما فَهِمَتْ مِن فَحْواهُ أَنَّهُ يَصْبو إلى تَحقيقِ هٰذهِ الأُمْنِيةِ.

فقد انْتَهَزَ فُرصةَ انْشِغالِهِ بالحَديثِ مَعَ الفتاةِ، فقالَ لها إنَّهُ لا يَنْقُضُ رأْيَ والِدتِهِ، بل يَسْتَشيرُها في كلِّ صَغيرةٍ وكَبيرةٍ، وإنَّ والِدتَهُ آتِيَةٌ عن قَريبٍ إلى موسكو، وسيَأْخُذُ رَأْيَها في أَمْرٍ على جانِبٍ عَظيمٍ مِنَ الخُطورَةِ.

أَلَيْسَ هٰذا مِن قَبيلِ التَّلميحِ؟ أَلا يَعْني بكَلِماتِهِ أَنَّهُ تَوّاقٌ إلى مُباحثةِ أُمِّهِ في أَمْرِ زواجِهِ مِن كاترينَ؟!

ولم تَحْدُسْ كاترينُ مَغْزى كَلماتِهِ، بل إنَّها نَقَلَتْ عِبارتَهُ إلى أُمِّها، فما كانَ مِنها إلَّا أَنْ مَدَحَتْهُ وأَطْرَتْ شَمائِلَهُ وصفاتِهِ.

لهٰذا، فما رَجَعَ ليفينُ إلى موسكو حتّى تَوَلّى الأُمَّ قَلَقٌ وانزِعاجٌ، وآلَتْ أَنْ تَحُولَ بينَهُ وبينَ كَريمتِها، حتّى ولو قَدَرَ أَنْ يَجْمَعَ لها بينَ شَرَفِ الدُّنيا والآخِرةِ.

وقد جَرى الحَديثُ التّالي بينَ الأُمِّ والابْنةِ في أَثْناءِ أَوْبَتِهِما مِن حَلْبةِ التَّزَلُّجِ؛ قالَتِ الأُمُّ مُتسائلةً: «متى عادَ ليفينُ؟ هل تَثَبَّتَّ مِنْ أَمْرِهِ؟»

---

(١) الحَصافةُ: الفِطْنَةُ وجودَةُ الرَّأْيِ.

- «إنَّه جاءَ موسكو اليَوْمَ يا أُمّاه».

- «ثمَّةَ شيءٌ أَوَدُّ أَنْ أُطْلِعَكِ عليهِ...».

فقاطَعَتْها الفتاةُ ووَجْهُها يَتَضَرَّجُ حَياءً: «أُمّاه، أَرْجوكِ، أَرْجوكِ أَنْ لا تَقولي شيئًا، فأنا أَعْرِفُ، أَعْرِفُ كُلَّ شيءٍ».

كانَتْ رَغْبَتُها مُتَّفِقةً مَعَ رَغْبةِ أُمِّها، إِلَّا أَنَّ العَوامِلَ الَّتي كَوَّنَتْ رَغْبةَ أُمِّها، آلَمَتها.

وقالَتِ الأُمُّ: «وَدِدْتُ أَنْ أَقولَ إِنْ بُعِثَ الأَمَلُ...».

- «أَرْجوكِ، ناشَدْتُكِ اللهَ أَنْ لا تَفْعَلي، فالتَّكَلُّمُ في هٰذا الأَمْرِ يُرْمِضُ نفسي ويُكْرِبُني!»

- «لا تُراعي يا حَبيبتي، لا تَبْكي، فلن أَتَكَلَّمَ، مَعَ أَنَّكِ طالما أَكَّدْتِ أَنْ لن يكونَ بَيْنَنا سِرٌّ مَكْتومٌ».

- «كلّا لن يَحولَ بَيْني وبينَ قَلْبِكِ أَمْرٌ يا أُمّاه، ولٰكِنّي لا أَعْلَمُ ماذا أَقولُ، ولو شِئْتُ الحَديثَ لجَهِلْتُ مِنْ أَينَ أَبْدَأُ، ولو خُيِّرْتُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ لاحْتَرْتُ ولم أَخْتَرْ».

إِنَّها صادِقةٌ... صادِقةٌ... ولا يَتَسَنَّى لهاتَيْنِ العَيْنَيْنِ الصّافيَتَيْنِ الصَّريحَتَيْنِ أَنْ تَأْفِكا[1] وتُنافِقا.

وابْتَسَمَتِ الأَميرةُ الأُمُّ وهي تَرْمُقُ ابنَتَها بنظْرةِ المَحَبَّةِ والإِعْزازِ، وتُفَكِّرُ في ما هِيَ مُقْدِمةٌ عليهِ مِنْ زَواجٍ، داعيةً اللهَ في ما بَيْنَها وبينَ نفسِها أَنْ يُمَهِّدَ أَمامَها طريقَ السَّعادَةِ والسَّلامِ.

* * *

بَعْدَ العَشاءِ وفي الفَترةِ الَّتي سَبَقَتِ الحَفلةَ السّاهرةَ كانَ شُعورُ كاترينَ أَشْبَهَ بِشُعورِ الجُنْديِّ المُقبِلِ على مَعْرَكَةٍ.

ورَأَتْ نَفْسَها في مَفْرَقِ طُرُقٍ، وأَيْقَنَتْ أَنَّ مُسْتَقْبَلَها سُيَقرَّرُ في تلكَ اللَّيْلَةِ متى الْتَقى الشَّابّانِ، فالْتِقاؤُهُما في صَعيدٍ واحدٍ هُوَ، كما أَيْقَنَتْ، نُقْطَةُ التَّحوُّلِ في حَياتِها.

وارْتَعَشَتْ مِنَ الهَلَعِ، وأَنْشَأَتْ تُفَكِّرُ في كُلٍّ مِنْهُما على حِدةٍ وتُقابِلُ بينَ النِّدَّيْنِ، وتُفاضِلُ وتَخْتارُ، وتُعْجَبُ وتَسْتَهْجِنُ.

---

(١) أَن تَأْفِكا: أَن تَكْذِبا.

وأَثارَ ليفينُ حَنانَها وعَطْفَها، فهْوَ صَديقٌ قَديمٌ، صَديقٌ مُخلِصٌ حَميمٌ، وإِنْ لم يَتَمادَ الشُّعورُ نحوَهُ مُخْتَرِقًا نِطاقَ الشَّفَقةِ والرِّثاءِ، والتَّأَسُّفِ على شَيْءٍ لا تَكْنُهُ[1] حقيقتَهُ.

أَمّا فرونسكي فقد عَلِقَ قَلْبُها بغُموضِهِ، ولَعَلَّ رَواءَهُ وحُسْنَ دياجيهِ خَلَقا في مُخَيِّلَتِها البِكْرِ نَوْعًا مِنَ الاعْتِقادِ الرّاسِخِ بأَنَّهُ قادِرٌ على إِسْعادِها، مُتَمَكِّنٌ مِنْ إِحاطَتِها بجَوٍّ مِنَ البُلَهْنِيَةِ[2] والدَّعَةِ. فهْوَ كما تَراءى لَها قد اجْتَمَعَتْ فيه خِلَّتانِ حَميدتانِ: الجمالُ والكَمالُ، وبهاتَيْنِ الخِلَّتَيْنِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْكُنَ إِلى حياةٍ رَضِيَّةٍ رَغيدةٍ.

وصَعِدَتْ في السَّلالِمِ إِلى الطَّبَقَةِ الثّانيَةِ لاسْتِبدالِ مَلابِسها اسْتِعدادًا للحَفْلَةِ. فلمّا نَظَرَتْ إِلى نَفْسِها في المِرآةِ، رَأَتْ، والسُّرورُ مُسْتَحوِذٌ عليها، أَنَّها في أَحْسَنِ حالاتِها، وأَنَّها مُتَمَلِّكَةٌ لشُعورِها، مُسيطرةٌ على أَعْصابِها، واثِقةٌ مِن نَفسِها، مُطْمَئِنَّةٌ إِلى قُوَّتِها وإِرادَتِها، وهْيَ في مَسيسِ الحاجةِ إِلى العَزيمةِ حتّى تَخْرُجَ سالمةَ القَلْبِ والإِحساسِ مِنْ مَعْرَكَةِ اللَّيْلَةِ، مَعْرَكةِ العَواطفِ والمَشاعِرِ، المَعْرَكةِ الفاصِلةِ بالنِّسبةِ إِليها وإِلى مُسْتَقْبَلِها!

وما كادَتْ تَهْبِطُ السَّلالِمَ في السّابعةِ والنِّصْفِ حتّى أَعْلَنَ الحاجِبُ قُدومَ ليفينَ. ولم يَكُنْ في القاعةِ أَحَدٌ سِواها، ولم يَكُنْ لها نُدْحَةٌ[3] مِنِ استِقبالِهِ.

وما كانَ لَها صَديقةٌ مَحَضَتْها ثِقَتَها، واسْتَأْمَنَتْها على سِرِّها، واصْطَفَتْها لمَشورتِها؛ لهٰذا اتَّجَهَتْ نَحْوَ الضَّيْفِ، ثُمَّ وَقَفَتْ مُتَرَدِّدةً في مُنْتَصَفِ الطَّريقِ، وقد آلَمَها ما شَعَرَتْ بهِ، آلَمَهَا أَنْ تُقَرِّرَ مَشاعِرُها الخَفِيَّةُ أَنَّ الشّابَّ المُقبِلَ نَحْوَها لن يَفوزَ مِنها بطائِلٍ، وأَنَّها ستُسَبِّبُ كَثيرًا مِنَ الأَلَمِ والعَذابِ لرَجُلٍ يَكُنُّ لها أَسمى آياتِ الحُبِّ والإِخْلاصِ.

ونَظَرَتْ إِليهِ بعَيْنَيْنِ مُتَضَرِّعَتَيْنِ، وكأَنَّ ناظِرَيْها نَطَقا بخَبَرِها، وقَصّا عليهِ قِصَّتَها.

ولٰكِنَّهُ لم يَفْقَهْ لُغةَ اللَّحاظِ بل مَدَّ لَها يَدَهُ مُصافِحًا، وضَغَطَ قليلًا على الأَنامِلِ الرَّخصةِ وقالَ: «المَعْذِرةَ إِنْ بَكَرْتُ في الحُضورِ، ولٰكِنّي لم أَجِدْ ما يَشْغَلُني عَنِ الشَّوْقِ...».

وتَلَفَّتَ حَوْلَهُ في قَلَقٍ، ثُمَّ أَرْدَفَ: «وإِنّي وَايْمُ الحَقِّ تَمَنَّيْتُ أَنْ أَجِدَكِ وَحيدةً، ولَسْتُ في شَكٍّ مِن أَنَّكِ ستُصيخينَ إِلى ما أَقولُ حتّى النِّهايةِ...».

---

(١) تَكْنُهُ حَقيقَتَه: تُدْرِكُها.

(٢) البُلَهْنِيَةُ: العَيْشُ الرَّخِيُّ.

(٣) نُدْحَةٌ: مَهْرَبٌ أَو مَفَرٌّ.

وتَمَلْمَلَ في مَكانِهِ قَلِقًا مُضْطَرِبًا. وقالَتْ كاترينُ بصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «لن تَلْبَثَ أُمِّي أَنْ تَأْتيَ يا سيّدي!»

وتَضَرَّجَ وَجْهُها، وأَطْرَقَ هُوَ برَأْسِهِ، وقالَ بَعْدَ لَأْيٍ[1]: «اعْلَمي أَنَّ مُقامي في موسكو يَطولُ أو يَقْصُرُ تَبَعًا لمَوْقِفِكِ». وسَرَتْ قُشَعْريرةٌ باردةٌ في جِسْمِهِ. كيفَ؟ كيفَ جَرُؤَ؟ كيفَ تَجاسَرَ على النُّطْقِ بهٰذِهِ الكَلِماتِ؟

وغَضَّتْ كاترينُ مِن طَرْفِها[2]، واخْتَلَجَتْ أَهْدابُها في انْفِعالٍ وحَيْرةٍ. وأَرْدَفَ بَعْدَ أَنِ استَعادَ رَباطَةَ جَأْشِهِ[3]: «أَجَلْ أَوَدُّ أَنْ أَقولَ... أَنْ أُخبِرَكِ... أَنْ أُفْضِيَ إليكِ بأَنّي... بأَنّي... أَنْ أَسْأَلكِ عن رَأْيِكِ في شَخْصي لو تَقَدَّمْتُ إليكِ بطَلَبِ الزَّواجِ! هل تَقْبَلينَ بي؟ هل تُوافِقينَ؟»

وظَهَرَ عَليهِ فَجْأَةً وُجومُ مَنِ اشْتَدَّ هَمُّهُ وعَظُمَ غَمُّهُ، ولٰكِنَّهُ ظَهَرَ عليهِ أيضًا الارْتِياحُ لما قامَ بهِ وأَدّاهُ، وما عليهِ الآنَ سوى انْتِظارِ الجَوابِ، فإمّا القَبولُ وإمّا الرَّفْضُ... فإنْ أَجابَتْ بالقَبولِ طابَتْ نفسُهُ واغْتَبَطَتْ، وإنْ رَدَّتْهُ خائِبًا داخَلَهُ مِنَ الشَّقاءِ ما يَنْتَزِعُهُ انتِزاعًا، ويَقْتَلِعُهُ اقتِلاعًا مِنْ موسكو!

وأُلْجِمَ لِسانُ كاترينَ، ووَجَبَ قلبُها، وداخَلَها مِنَ الذُّعْرِ ما شَلَّ حَرَكَتَها وكَبَّلَ إرادتَها.

وجَعَلَتْ تَتَلَدَّدُ[4] في مَكانِها مُتَمَلْمِلَةً.

وطَغى عليها على حينِ غِرَّةٍ شُعورٌ عَجيبٌ مِنَ الإعْجابِ والسُّرورِ والزَّهْوِ. ثُمَّ رَفَعَتْ إليهِ طَرْفًا مُخْضَلًّا، فإذا بوَجْهِ فرونسكي يَحْجُبُ وَجْهَ ليفينَ عن ناظِرَيْها، وإذا بخَيالِهِ الجميلِ يَرنو إلَيْها مُتَسائلًا، وإذا بها تُتَمْتِمُ بجَزَعٍ: «لا... لا...».

وجَمْجَمَ المِسْكينُ مِن دونِ أَنْ يَنْظُرَ نحوَها: «إنَّ الفاشِلَ مَأْخوذٌ دائمًا بفَشَلِهِ، إنَّ عاثِرَ الحَظِّ لا يُخطِئُهُ الإخْفاقُ... وهٰذا كانَ مُنْتَظَرًا».

وأَحنى هامَتَهُ باحْترامٍ، وتَحَوَّلَ عنها، وهْوَ يُجَرِّرُ وَراءَ ساقَيْهِ المُرْتَعِشَتَيْنِ أَذيالَ الخَيبةِ،

---

(١) لَأْيٍ: مَشَقَّةٍ.
(٢) طَرْفِها: نَظَرِها.
(٣) رباطةَ جَأْشِهِ: شجَاعَتَهُ.
(٤) تَتَلَدَّدُ في مكانِها: تَتَلَبَّثُ (تُقيمُ) فيهِ متَحَيِّرَةً.

حتّى لكأنَّهُ كانَ يَتحامَلُ على نفسِهِ حَذَرَ الانهيارِ! ولٰكِنَّ دُخولَ الأُمِّ في تلكَ الهُنَيْهةِ، واقْتِرابَها منهُ، جَعَلَهُ يَترَيَّثُ مُسْتَمهِلًا ويَتماسَكُ مُتجَلِّدًا.

وصَعَّدَتِ الأُمُّ عَيْنَيْها في الشّابَّيْنِ مُتَوَجِّسةً[1] مُسْتريبةً، ولٰكِنَّها ما لَبِثَتْ أَنِ انْبَسَطَتْ أساريرُها؛ فأَمائِرُ الفتى تَدُلُّ على أَنَّهُ لَمْ يَحْظَ مِنِ ابنَتِها بطائِلٍ، وتَقاطيعُ الفَتاةِ تُشيرُ إلى أَنَّها لم تَقْضِ لهُ مِن مَآرِبِهِ وَطَرًا.

لقدِ اسْتجابَتْ لها كَريمتُها، واتَّخَذَتْ مِن مِثاليّةِ فرونسكي نِبراسًا تَسْتَضيءُ بِهِ وتَسْتَرشِدُهُ! وها هِيَ تَضَعُ حَدًّا لأَحْلامِ ليفينَ، وتُفْهِمُهُ صَراحةً أَنَّها لن تكونَ لهُ.. فنِعْمَ الابْنَةُ ابْنَتُها!

وسُرعانَ ما بَشَّتْ لهُ حينَ حَيّاها، وطَلَبَتْ إليهِ بِلُطْفٍ أَنْ يَجْلِسَ، ثُمَّ أَقبَلَتْ عليهِ تَسْأَلُهُ عَن حالِهِ، وتَسْتَوْضِحُهُ أُمورَ القَريةِ، وما يَفْعَلُهُ هُناك، وما يَقومُ بِهِ مِن نَشاطٍ.

واقْتَضَبَ ليفينُ أَجْوِبَتَهُ، وإِنْ حاوَلَ جاهِدًا أَنْ لا يكونَ جافًّا في مَقالَتِهِ.

وما مَضى مِنَ الزَّمَنِ ساعةٌ حتّى تَوافَدَ المَدْعُوّونَ والمَدْعُوّاتُ، وفي مُقَدِّمَتِهِمُ النَّبيلةُ الحَسيبةُ «الكونتس نوردسون».

وهٰذِهِ المرْأَةُ، نَصَفٌ بينَ النِّساءِ، فهْيَ نَحيلةٌ هَزيلةٌ، قَميئةٌ، حادَّةُ الطَّبْعِ، مُتَوَتِّرةُ الأَعْصابِ، كَلِفَتْ بكاترينَ وآثَرَتْها بحُبِّها، حتّى إِنَّ شوقَها إلى ضَمانِ المُسْتَقبَلِ الزّاهرِ لها فاقَ شَوقَ أُمِّها. وكانَتْ تُشايِعُ فرونسكي وتَحْقِدُ على ليفينَ، لهٰذا كَرَّهَتْ كاترينَ بالأَخيرِ، حتّى نَفَرَ قَلْبُ الفتاةِ وخَشِيَتِ الاقْتِرابَ منهُ، ناهيكَ عَنِ الاقْتِرانِ بهِ.

ولولا ما حَظَّرَهُ الأَدَبُ عَلَيْها مِن مُعاملةِ النّاسِ بالقَسْوةِ والشِّدَّةِ لما تَوَرَّعَتْ كاترينُ عن مُجابهةِ ليفينَ بما لا يُحِبُّ في حَلْبةِ التَّزَنُّجِ!

لَقد أَثَّرَتْ فيها هٰذِهِ المَرأةُ تأثيرًا كَبيرًا، ولا غَرْوَ، فالمَرأةُ متى مَقَتَتْ، كادَتْ[2] وأَوْقَعَتْ... وقد مَقَتَتْ هٰذِهِ المَرأةُ ليفينَ، فآلَتْ أَنْ تَقْهَرَهُ وتَكيدَ لَهُ، وقد طالَما رَدَّدَتْ: «أَعْجِبْ بنا مِن نِدَّيْنِ لا نَجْتَمِعُ، هو يَكْرَهُني وأنا أُبادِلُهُ البُغْضَ، وأَجِدُ في ما يَعْتَمِلُ في صَدْرَيْنا مِن نَزعاتِ الكَراهِيَةِ والوَجْدِ كَثيرًا مِنَ المُتْعَةِ واللَّهْوِ».

---

(١) مُتَوَجِّسةً: مُصْغِيةً بخوفٍ.

(٢) كادَ (يَكيدُ) لشَخْصٍ: احْتالَ في إِلْحاقِ الضَّرَرِ به.

أَمّا ليفينُ، فلم يَكُنْ يَمْقُتُها، بل كانَ يَحْتَقِرُها، واحْتِقارُهُ لَها كانَ لغُرورٍ رَكِبَ رَأْسَها، فأَعْماها عن حَقيقَتِها وحَقيقَةِ سِواها مِنَ الخَلْقِ.

فما كادَتْ تُبْصِرُ بهِ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ حتّى طابَتْ لها الشَّحْناءُ، فهاجَمَتْهُ مُتَهَجِّمَةً وهي تُصافِحُهُ، وقالَتْ: «أَراكَ رَجَعْتَ إلى «بابلَ»، رَجَعْتَ بَعْدَ أَنْ هَجَرْتَها ونَأَيْتَ عنها، فماذا حَداك على الرُّجوعِ؟ ماذا حَفَّزَكَ إلى طَرْقِ أَبْوابِ «بابلَ الفاسِدَةِ»؟ (كانَ ليفينُ يُشَبِّهُ موسكو ومَباذِلَها ببابلَ وفُسْقِها) فهل تَغَيَّرَتْ بابِلُ؟ هل أَصْلَحَ مِن شأْنِها المُصْلِحونَ، أو تَدَنَّيْتَ أنتَ حتّى أَصْبَحْتَ في مُستوى أَهْلِها الفاسدينَ المارقينَ؟!»

وكانَ ليفينُ في ما مضى، قد فَنَّدَ آراءَ هٰذِهِ المَرأةِ الدَّعِيَّةِ، وظاهَرَ[١] أَهْلَ الرّيفِ، ونَصَرَهُمْ وأَيَّدَهُمْ. فلمّا جابَهَتْهُ الكونتس بهٰذِهِ الكَلماتِ عَلِمَ أَنَّها تُحاوِلُ النَّيْلَ منهُ على رُؤوسِ الأَشْهَادِ، فلم يَزِدْ على أَنْ قالَ: «لمِمّا يَمْلأُني زَهْوًا أَنَّ كَلامي راسِخٌ في مُخيِّلتِكِ يا سيِّدتي».

وأَعرَضَ عنها وأَشاحَ، كأَنَّهُ لا يَرْغَبُ في مُتابعةِ الكَلامِ. واسْتَرْعى انْتِباهَهُ في تلك اللَّحْظَةِ ضابطٌ وَسيمٌ أَنيقٌ يَدْلِفُ[٢] إلى القاعةِ بخُطُواتٍ مُتَّزِنةٍ قَوِيَّةٍ.

وأَنْبَأَهُ حِسُّهُ أَنَّ الشّابَّ هُوَ منافِسُهُ في قَلْبِ كاترينَ؛ وأَيْقَنَ مِنْ ذٰلِكَ عندما قابَلَتْهُ كاترينُ بوَجْهٍ طَلْقٍ، وأَقْبَلَتْ عليهِ تُحَيِّيهِ وتُرَحِّبُ بهِ. وقارَنَ بينَ مُقابَلتِها لهُ ومُقابَلتِها للضّابطِ، وأَدْرَكَ، والأَسى يَمْلأُ صَدْرَهُ، أَنَّ كاترينَ تُحِبُّ فرونسكي، وأَنَّ أَمَلَهُ قد انْطَفَأَتْ شُعلتُهُ إلى الأَبَدِ.

وتَأَهَّبَ ليَذْهَبَ، وتَحَرَّكَ مِنْ مَكانِهِ حتّى يَهْرُبَ مِنَ الجَنَّةِ الَّتي انْقَلَبَتْ في مِثْلِ غَمْضةِ عَيْنٍ وفَتْحَتِها إلى سَعيرٍ مُتَلَظّي النّيرانِ. ولٰكِنَّهُ عادَ فكَتَمَ ما في نفسِهِ وعَزَمَ على إطالةِ مَكْثِهِ، ولو على مَضَضٍ، حتّى يُشاهِدَ ما يَجْري عن كَثَبٍ، وحتّى يُلِمَّ بأَحوالِ نِدِّهِ ويَعْرِفَ المَزيدَ مِنْ أَمْرِهِ.

وإذا هاجَتِ الأَحْزانُ في قلبِ امْرِئٍ، وتأَلَّبَتْ عَلَيهِ المِحَنُ، أَضْحى أَحْيانًا خَسيسًا لا يَرى إِلَّا السَّيِّئاتِ والنَّقائِصَ، أَمّا الفَضائِلُ فتُصْبِحُ كالقَذى في عَينِهِ كُلَّما لَمَسها في غيرِهِ.

---

(١) ظاهَرَ القَومَ: نَصَرهُمْ على غَيرِهِمْ.

(٢) دَلَفَ (يَدْلِفُ). مَشى مُقارِبَ الخَطْوِ، وهوَ هُنا بمَعْنى دَخَلَ.

بَيْدَ أَنَّ ليفينَ كانَ مِن طينةٍ أَسْمى، فهُوَ لا يَرْغَبُ في تَعَرُّفِ مَواطِنِ الضَّعْفِ فحَسْبُ، بل يَوَدُّ مِن صَميمِ فُؤادِهِ أَنْ يَتَحَسَّسَ مَكامِنَ القُوّةِ في إِنْسانٍ غيرِهِ، مهما تَنافرا في المِزاجِ والطَّبْعِ والهَدَفِ.

وحارَ ليفينُ في أمرِهِ، فالإشفاقُ يُثَبِّطُ عَزيمَتَهُ، والشَّوْقُ إلى مَنْ خَيَّبَتْ رجاءَهُ يُنَشِّطُ ذِهْنَهُ، وهُوَ بَيْنَ هٰذِهِ الِانْفِعالاتِ كَريشةٍ تَهُزُّها الرِّيحُ وتَتَلاعَبُ بها.

وقد نَظَرَ بتَمَعُّنٍ وتَفَكُّرٍ إلى غَريمِهِ، فأَلْفاهُ شابًّا كامِلَ الرُّجولةِ لا يَنْقُصُهُ منها مَنْظَرٌ ولا مَظْهَرٌ ولا إرادةٌ. وأُلْقِيَ في رَوْعِهِ أَنَّ هٰذا الفَتى لا يَميلُ كغيرِهِ مِنْ أبناءِ الطَّبَقةِ المُتْرَفَةِ إلى تَكَلُّفِ ما ليسَ فيهِ، فهُوَ يَتَكَلَّمُ مَعَ الجَميعِ بِلَهْجَةٍ واحِدةٍ وابْتِسامةٍ واحِدةٍ، وهُوَ يُصافِحُ الجَميعَ بطريقةٍ واحِدةٍ، وهُوَ يَتَحَرَّكُ مِن دونِ كُلْفةٍ.

وتَوَغَّرَ صَدْرُ ليفينَ وهُوَ يَرى هاتيكَ الفَضائلَ، إلَّا أَنَّهُ لم يَمْقُتْ غَريمَهُ بلِ اسْتَمَرَّ يُراقِبُهُ بانتِباهٍ. وقد رآهُ يُقْبِلُ على الأَميرَةِ المُضيفَةِ فيُصافِحُها بحَرارةٍ ثُمَّ يَعْطِفُ على كاترينَ ابْنَتِها فيُبادِلُها بَعْضَ الحَديثِ، ويَضْحَكُ هُوَ وتَضْحَكُ هِيَ، وتَخْتُرُ[1] نَفْسُ ليفينَ!

وجَلَسَ فرونسكي في مَقْعَدٍ خالٍ مِن دونِ أَنْ يَلْتَفِتَ إلى ليفينَ أو يَشْعُرَ بوُجودِهِ، إلَّا أَنَّ المُضيفةَ تَنَبَّهَتْ فَجْأَةً إلى ما يَجِبُ عليها عَمَلُهُ، فأَسْرَعَتْ تَقولُ: «لقد سَها عن بالي تَقْديمُ كُلٍّ مِنْكُما إلى الآخَرِ. وأَوْمَأَتْ إلى ليفينَ، واستَتْلَتْ: «الكونتُ فرونسكي، الكونت ليفينُ!»

وانْتَصَبَ فرونسكي واقِفًا، وحَذا ليفينُ حَذْوَهُ، وتَصافَحَ الشّابّانِ، وأَحْنيا رَأْسَيْهِما قَليلًا؛ ثُمَّ قالَ فرونسكي ووَجْهُهُ يَطْفَحُ بِشْرًا: «كنّا سنجتَمِعُ في هٰذا المَنْزِلِ على مائدةِ الأَميرةِ، بَيْدَ أَنَّ رَحيلَكَ المُفاجِئَ، في ذٰلِكَ الحينِ حَبَسَ عنّا نَفحةَ رَيّاكَ».

فقالَ ليفينُ: «وهٰذا مِن بَواعِثِ أَسَفي، إلَّا أَنّي اضْطُرِرْتُ يَوْمَذاكَ إلى السَّفَرِ».

قالَ: «ورُدْتَ -ولا شَكَّ- أَرْضَكَ في الرّيفِ يومَ ظَعَنْتَ[2] عن موسكو، وإخالُ كُلَّ شَيءٍ في الحياةِ هُناكَ مُمِلًّا مُضْجِرًا، هٰذا إذا مَكَثَ الإِنْسانُ وأَقامَ بصورَةٍ دائمةٍ، خُصوصًا في فَصْلِ الشِّتاءِ، يَوْمَ يَهْبِطُ القَرُّ وتَتَساقَطُ الثُّلوجُ».

---

(١) تَخْتُرُ النَّفْسُ: تَغْثو وتضْطَرِبُ.
(٢) ظَعَنْتَ: رَحَلْتَ.

قالَ: «إنَّ للسّعَادَةِ مَهابَّ مُخْتَلِفةً، وسَعادَةُ القريةِ في العَمَلِ والدَّأْبِ، ومَنْ يَعْمَلْ هُناكَ لا يُداخِلْهُ السَّأَمُ».

قالَ: «ولا أُخْفِيكَ أَنّي أُحِبُّ الحَياةَ الحُرَّةَ في القَريةِ السّاكِنةِ الهادِئَةِ المُتَحَرِّرةِ مِنَ القُيودِ».

وحانَتْ مِنَ الكونتس نوردسون لَفْتَةٌ، وسَنَحَتْ لها فُرْصَةُ القولِ، فراحَتْ تُخاطِبُ فرونسكي وتَقولُ: «وهل تُسَوِّلُ لَكَ نفسُكَ المَكْثَ في الحَقْلِ؟ هل تَسْتَطيعُ أَنْ تَبْقى هُناكَ يا كونت فرونسكي لا تَبْرَحُ ولا تَريمُ؟»

فأَجابَها الشّابُّ وهْوَ يُهاجِمُها بَطَرْفٍ مُسْتَطْلِعٍ: «هٰذا سُؤالٌ يَسْتَعْصي الجَوابُ عنهُ، فما نَزَلْتُ في الرّيفِ إِلَّا لِمامًا، وكُلَّما قَصَدْتُهُ زائرًا، وأَلْمَمْتُ بِهِ عامِلًا، أَقَمْتُ رَدَحًا قَصيرًا... وأَصْدُقُكِ أَنّي لم أَعرِفْ مَذاقَ الرّيفِ في روسيا، ولم أَتَعَلَّقْ بِهِ إِلَّا بَعْدَ ما قَضَيْتُ في «نيسَ» شتاءَ العامِ الماضي. هُناكَ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُقارِنَ، وهُناكَ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَرى الحَقيقةَ وأَعْلَمَ أَنَّ ريفَنا جَنَّةُ نَعيمٍ!»

قالَتْ: «وماذا شاهَدْتَ في نيسَ؟»

قالَ: «نيسُ مَدينةٌ صَغيرةٌ مُوحِشَةٌ، ولا تَقَرُّ العَينُ بمُلازَمَتِها زَمَنًا طَويلًا. وأَصْدُقُكِ أَنَّ ريفَنا أَمْتَعُ مِنها وأَبْهَجُ مِنْ سِواها مِنَ المُدُنِ، كنابولي مثلًا».

وازْدَلَفَتْ[1] كاترينُ في تِلكَ الأثناءِ إِلى المَكانِ الَّذي وَقَفَ فيهِ ليفينُ، ونَظَرَتْ إِلى وَجْهِهِ المُنْقَبِضِ، والْتَقَتِ العُيونُ فَجْأَةً، فبَرَزَ مِن عَيْنَيْهِ أَسًى بالِغٌ، ونَطَقَ لِسانُ عَيْنَيْها فقالَ: «أَلا اصْفَحْ... اِغْفِرْ... لقد تَحَقَّقَتِ الآمالُ فلا تَزْجُرْ، ولا تَنْقُمْ...».

وأَجابَها ليفينُ، أَجابَها باللَّحْظِ أيضًا فقالَ: «أَلا تَبًّا لكِ! لقد جَرَّ عليَّ حُبُّكِ الغَصَصَ، وكَرَّهَني بالحياةِ. فأنا أَبْغُضُكِ، وأنا أَمْقُتُ نفسي، وأنا أَكْرَهُ الدُّنيا قاطبةً!»

وتَشَعَّبَتِ الأَحاديثُ وتَفَرَّعَتْ، وطَفِقَ القَوْمُ يَتَبادَلونَ الكَلامَ على الحَفَلاتِ الرّاقصةِ، والصَّيْدِ والقَنْصِ، ثُمَّ عَرَّجُوا على الحَفلَةِ السّاهرةِ الَّتي يُزْمِعُ أَنْ يُحْيِيَها آلُ شِرْباتسكي بَعْدَ أَيّامٍ قَليلةٍ لا تَتَجاوَزُ الأُسْبوعَ.

---

(١) ازْدَلَفَتْ: دَنَتْ واقْتَرَبَتْ.

واغْتَنَمَ ليفينُ انْشِغالَ الضَّيفِ[1] عنهُ بأَحاديثِهِم، وتَسَلَّلَ خارِجًا بَعْدَ أَنِ استَأْذَنَ رَبَّةَ الدّارِ بالذَّهابِ!»

* * *

ولمّا وَلّى قِطْعٌ[2] كبيرٌ مِنَ اللَّيْلِ، وخَلا البَيْتُ مِمَّن ازدَحَمَ فيهِ، انْفَرَدَتْ كاترينُ بأُمِّها فأَطْلَعَتْها على ما كانَ بينَها وبينَ ليفينَ. ولم تَكُنِ الحَسْنَاءُ مُغْتَبِطةً أو مُبْتَئِسةً، بل إِنَّ إِحساسَها كان يَضْطَرِمُ بنارِ الِانْفِعالِ، فهيَ تَسْمَعُ لأَوَّلِ مَرّةٍ في حَياتها عَرْضًا للزَّواجِ، وممَّنْ؟ مِن شابٍّ تَتَمنّاهُ أَجْمَلُ الغيدِ، مِن ليفينَ النَّبيلِ الثَّريِّ.

ولمّا لاذَتْ بفِراشِها جَفاها الكَرى[3]، فجَعَلَتْ تَتَقَلَّبُ في مَضْجَعِها هَاجِسةً بما يَعْتَمِلُ في صَدْرِها، وقد لاحَقَها وَجْهُ ليفينَ، فهْيَ لا تُغْمِضُ عَيْنَيْها إِلَّا لِتَراهُ ماثِلًا في مُخَيِّلَتِها، وهْيَ لا تَفْتَحُ تَيْنِكَ العَيْنَيْنِ الجميلتَيْنِ إِلَّا ليَظْهَرَ لها وَجْهُهُ الحَزينُ الكَسيفُ القانِطُ.

واجْتاحَتْها مَوْجةٌ عارمةٌ مِنَ الحُزنِ، وانْهَمَرَتِ الدُّموعُ مِنْ مآقيها غَزيرةً تَهْتانةً. بَيْدَ أَنَّها فَكَّرَتْ بالشّابِّ الآخَرِ الَّذي ضَحَّتْ بليفينَ مِن أَجلِهِ، فأَشْرَقَ وَجْهُها فَجْأَةً بنورِ السَّعادةِ، وجَفَّتْ مَدامِعُها، وطَفِقَتْ تَتَخَيَّلُهُ بقامتِهِ المَمْشوقةِ، ووَجْهِهِ الجَميلِ، ونَبْرتِهِ النَّافِذةِ القَوِيَّةِ.

وطَغى عَلَيْها في هٰذِهِ الهَدْأَةِ سُرورٌ عَظيمٌ، ولٰكِنَّها شَعَرَتْ في قَرارتِها أَنَّ سُرورَها هٰذا يَشوبُهُ أَلَمٌ غامِضٌ، وكَأَنَّهُ السُّمُّ في الدَّسَمِ. فما هُوَ هٰذا الشَّيءُ يا تُرى؟ وما نَوْعُ هٰذا السُّمِّ؟ وهَتَفَتْ مُتَهَدِّجةً: «اللَّهُمَّ ارْحَمْنا... اللَّهُمَّ ارْحَمْنا...».

وما فَتِئَتْ تُرَدِّدُ هاتَيْنِ الكَلِمَتَيْنِ حتّى اسْتَولى عليها سُلطانُ النَّوْمِ فأَغْفَتْ.

---

(١) الضَّيفُ: النَّزيلُ عندَ غيرِ أَهْلِهِ ويُسْتَعْمَلُ للمُفْرَدِ والجَمْعِ.

(٢) قِطْعٌ من اللَّيلِ: جُزْءٌ منه.

(٣) الكَرى: النُّعاسُ أو النَّوْمُ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - بدأَ الفصلُ بوصفِ مزايا كاترينَ الجَماليَّةِ، فما دورُ هذا الوصفِ في الرّواية؟

٣ - ماذا عَنَتْ كاترينُ إذ قالَت لليفين حينَ أخذَ يُحَدِّثها: «لن تَلْبَثَ أُمّي أَن تأْتيَ، يا سيّدي»؟

٤ - مَن هو الشابُّ فرونسكي؟ وما مِهْنتُهُ؟

٥ - ما الفكرة التي كَوَّنَتْها أُمّ كاترين عن كلٍّ من ليفين وفرونسكي؟

٦ - بَدأَتِ العُقْدةُ الثانيَةُ في حكايةِ ليفينَ تعرفُ طريقَها إلى الحَلِّ. فهل أَرْضاكَ أن تَكونَ كاترين لفرونسكي؟ ولماذا؟

٧ - لِمَ راوحَتْ مشاعرُ كاترينَ بين الحزنِ والفرحِ؟ وأيَّ الأساليبِ استخدمَ الكاتبُ لتصوير حالتِها هذه؟

٨ - بِمَ امتازتْ شَخصيَّةُ الكونتس نوردسون؟ وهل كانَ ليفينُ محِقًّا في كرهه إيّاها؟

٩ - أَرأيتَ في أقوالِ نبلاءِ موسكو طعنًا بحياةِ الرّيفِ؟ ولماذا؟

١٠- أيَّ أساليبِ القصِّ استخدمَ الكاتِبُ لتطويرِ الأحداثِ (السَّرد، الوصف، الحوار، المناجاة)؟ أَوضِحْ ذلكَ.

١١- أَوْجِزْ مَضمونَ الفَصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل التَّاسع

في السّاعةِ الحادِيَةَ عَشْرَةَ مِن صَباحِ اليَوْمِ التَّالي، اسْتَقَلَّ فرونسكي عَرَبَتَهُ إلى مَحَطّةِ القِطارِ ليَكونَ في استِقْبالِ والدتِهِ. وكانَ أوبلنسكي أَوَّلَ رَجُلٍ صادَفَهُ هُناكَ. وكانَ الأَخيرُ يَنْتَظِرُ مقْدَمَ شَقيقتِهِ في القِطارِ نَفْسِهِ.

فلمّا رآهُ أوبلنسكي هَتَفَ قائِلًا: «مَنْ تُراكَ تَنْتَظِرُ يا كونتُ؟»

فأَجابَهُ فرونسكي والابتِسامةُ لا تُفارِقُ فمَهُ: «أُمّي... إنّها قادِمةٌ مِن بطرسبرج، وستَصِلُ اليَوْمَ في قِطارِ الصَّباحِ».

- «لقد بَحَثْتُ عنكَ البارحةَ، فإلى أَينَ ذَهَبْتَ عَقِبَ مُغادَرتِكَ مَنْزِلَ آل شرباتسكي؟»

- «تَوَجَّهْتُ إلى البَيْتِ، لأَنّي لم أَطْمَعْ في المَزيدِ... فقد لَقِيتُ هُناكَ ما مَلأَ قَلْبي وحِسّي قَناعةً ورِضًى، حتّى لم أَشْعُرْ بالمَيْلِ إلى مُواصَلَةِ ما انْقَطَعَ مِن مُتْعةٍ في مَكانٍ آخَرَ».

- «هذا جميلٌ...». وابْتَسَمَ كما ابْتَسَمَ في وَجهِ ليفينَ ساعةَ أَطْلَعَهُ على كَلَفِهِ بكاترينَ.

وما لَبِثَ أَنْ صَعَّدَ فيهِ طَرْفَهُ، وابْتَدَرَهُ بالكَلِماتِ الَّتي قالَها لليفينَ قَبْلًا: «اِعْرِفِ الجَوادَ الأَصيلَ مِن خَطَرانِهِ... والعاشِقُ اعْرِفْهُ مِن عَيْنَيْهِ ولِسانِهِ!»

ولَمَعَتْ عَيْنا فرونسكي، وافتَرَّ ثَغْرُهُ، ونَطَقَتْ أَمائِرُهُ وأَساريرُ وَجْهِهِ بما فَهِمَهُ مِن كَلامِ أوبلنسكي، وما أَبْطَأَ أَنْ قالَ بلَهجةٍ تَشِفُّ عن طَيبةِ قَلبِهِ وسَلامةِ طَوِيّتِهِ: «أَشْكُرُ لَكَ صَراحَتَكَ، فأَنْتَ كَريمٌ، أَنْتَ حَميمٌ قَريبٌ إلى القُلوبِ...».

واسْتَتْلَى كأَنَّهُ يَتَعَمَّدُ التَّحَدُّثَ في أَمْرٍ آخَرَ: «ومَنْ مِنَ النّاسِ تَنْتَظِرُ في هٰذِهِ السّاعةِ؟».

- «إنّي في انتِظارِ مَليحةٍ بينَ النِّساءِ!»

فشُدِهَ فرونسكي وتَساءَلَ قائِلًا: «تَسْتَقْبِلُ امرَأَةً! ومَنْ هِيَ يا تُرى؟»

فضَحِكَ أوبلنسكي حتّى بانَتْ نَواجِذُهُ، وأَجابَ: «الرَّيْثَ، الرَّيْثَ، يا صَديقي، فالمَرأَةُ

الَّتي أَنْتَظِرُ هِيَ شَقيقتي أَنّا».

- «أَنّا كارنينا؟»

- «أَجَلْ... أَلَكَ بها سابِقُ مَعْرِفةٍ؟»

فقالَ فرونسكي، وهو يُحاوِلُ أَنْ يَسْتَعيدَ إِلى الذّاكرةِ أَمْرًا غامِضًا يَتَعَلَّقُ بهٰذِهِ المَرأَةِ: «قد أَعْرِفُها، لا أَذْكُرُ، قد أَعْرِفُها».

- «على أَنَّكَ تَعْرِفُ، مِنْ غيرِ شَكٍّ، زَوْجَها «أَليكسيس كارنين». ومَنْ لا يَعْرِفُ الرَّجُلَ؟ إِنَّهُ أَشْهَرُ مِن أَنْ يُعَرَّفَ».

- «أَصَبْتَ، كُلُّنا يَعْرِفُهُ، وقد سَمِعْتُ بِهِ، ورَأَيْتُ وَجْهَهُ، وهْوَ ولا غَرْوَ رَجُلٌ لهُ مَكانَتُهُ الرَّفيعَةُ، كما أَنَّهُ حائِزٌ على احتِرامِ النّاسِ وتَقْديرِهِم».

- «ما دُمْنا قد خُضْنا في حَديثِ النّاسِ، فهل قابَلْتَ اللَّيْلَةَ البارِحَةَ صَديقي ليفينَ؟»

- «قُدِّمْنا بَعْضُنا إِلى بَعْضٍ، بَيْدَ أَنَّهُ ما أَبْطَأَ أَنْ غادَرَ الحَفْلَةَ خِلْسةً في ساعةٍ مُبَكِّرةٍ».

- «إِنَّه نِعْمَ الصَّديقُ، وهْوَ فَوْقَ ذٰلِكَ أَديبٌ أَريبٌ[1]، وإِخالُكَ تُوافِقُني على نَظْرتي إِلَيْهِ، ورَأْيي فيهِ».

- «لَمْ أُكَوِّنْ عنهُ رَأْيًا بَعْدُ، غيرَ أَنَّهُ كما تَراءى لي، يَنْأَى بجانِبِهِ عَنِ المُجْتَمَعِ، ويَزْوَرُّ عَنِ النّاسِ، ولا يَكادُ يُخالِطُهُمْ حتّى يَمَلَّهُمْ! ثُمَّ إِنَّهُ عَصَبِيُّ المِزاجِ، يَحْتَدِمُ غَضَبُه سَريعًا، ويَنْزو بهِ الانْفِعالُ، أَلَيْسَ كذٰلِكَ؟»

فتَفَرَّسَ أوبلنسكي في الشّابِّ مُتَفحِّصًا، وما لَبِثَ أَنْ قالَ: «قد يَكونُ ذٰلِكَ، وقد تَكونُ مُخطِئًا فيما ذَهَبْتَ إِليهِ مِنْ رَأْيٍ؛ وفي ذِهْني عنهُ رَأْيٌ آخَرُ، ولا أَشُكُّ قَطُّ في أَنَّهُ كانَ البارحةَ على مُفْتَرَقِ طُرُقٍ، وأَنَّ سَعادَتَهُ وشَقاءَهُ كانَ كُلٌّ مِنْهُما في كِفَّةِ ميزانٍ... لقد لَعِبَ القَدَرُ لُعْبَتَهُ، ولَسْتُ أَدري حتّى الآنَ ماذا أَصابَ ليفينَ مِنْ خَيْرِ القَدَرِ أو مِن شَرِّهِ!»

فالْتَفَتَ إِليهِ فرونسكي، وحَدَجَهُ بنَظْرةٍ حادَّةٍ مُسْتَشِفَّةٍ وقال مِنْ دونِ تَحَرُّجٍ: «أَفْصِحْ عمّا يُخامِرُكَ.. أَكانَ ليفينُ مِنَ الصّابينَ إِلى بُلوغِ وَطَرِ الزَّواجِ بكاترينَ؟ وهل عَوَّلَ البارحةَ على

(١) أَريبٌ: ماهِرٌ.

طَلَبِ يَدِها؟»

قالَ: «قد تَكونُ مُصيبًا، وانْصِرافُهُ قَبْلَ سِواهُ دَليلٌ دامِغٌ على إخفاقِ مَسْعاهُ... يا لَلْمِسكينِ! إنَّهُ مُتَيَّمٌ بها مُولَعٌ بحُبِّها، ولا جَرَمَ أَنَّ خَيْبَتَهُ كانَتْ طَعْنةً نَجْلاءَ[1] اخْتَرَقَتْ سُوَيْداءَهُ... إنّي أَرْثي لَهُ!»[2]

فقالَ فرونسكي بصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «إنَّهُ أَقْدَمَ على أَعْظَمِ خَطْبٍ، فكاترينُ تَسْتَأْهِلُ زَوْجًا خَيْرًا منهُ... ولٰكِنْ ما لي أَتَسَرَّعُ في الحُكْمِ، ومَعْرِفتي بهِ سَطْحِيَّةٌ لم تَزِدْ على التَّحِيَّةِ وتَبادُلِ بِضْعِ كَلِماتٍ؟ إنَّ القِطارَ مُقْبِلٌ مِنْ بَعيدٍ، ولن يَلْبَثَ حتّى يَلِجَ المَحطَّةَ».

ومَزَّقَ الفَضاءَ في تِلكَ الفَيْنةِ صَفيرٌ شَديدٌ، وهَدَرَتِ الآلَةُ وزَمْجَرَتْ، واهْتَزَّتِ الأَرْضُ تحتَ عَجَلاتِها، ودَلَفَ القِطارُ إلى المَحطَّةِ مُسْتَأْنِيًا مُسْتَمْهِلًا وهْوَ يَنْفُخُ دُخانَهُ كالمُتْعَبِ، وقد علا القاطِرَةَ بَعْضُ الجَليدِ، كما كَلَّلَ رَأْسَ السّائِقِ ومُعاوِنِهِ.

وجَعَلَ المُسافِرونَ يَتَرَجَّلونَ زَرافاتٍ ووِحْدانًا، وطَفِقَ فرونسكي يَتَأَمَّلُ فيهِمْ وهْوَ مُوَزِّعُ الفِكْرِ، ساهِمُ الطَّرْفِ، يُفَكِّرُ... ولا شَكَّ أَنَّ فِكْرَهُ كانَ مُنْصَبًّا في تِلْكَ اللَّحظةِ على الحَسْناءِ الفاتِنةِ الَّتي سَلَبَتْ لُبَّهُ ومَلَكَتْ قَلْبَهُ.

وأُنْسِيَ أُمَّهُ، وغابَ عن بالِهِ أَنَّها قادِمَةٌ مِن بطرسبرج، وداخَلَهُ سُرورٌ طاغٍ غامِضٌ، هُوَ نِتاجُ شُعورِهِ بنَشوةِ الظَّفَرِ دون ليفينَ بفتاةِ أَحْلامِهِ. على أَنَّ هٰذا السُّرورَ قد يكونُ مَرَدُّهُ إلى أَمْرٍ آخَرَ، إلى سِرٍّ مَكْنونٍ لم يَتَمَخَّضْ عنهُ الغَيْبُ بَعْدُ!

ونَبَّهَهُ إلى نَفْسِهِ صَوْتُ ضابِطٍ مِن ضُبّاطِ الحَرَسِ يُخاطِبُهُ قائلًا: «كَلَّفَتْني والدتُكَ أَنْ أُنَبِّهَكَ إلى وُجودِها في تلكَ المَرْكَبَةِ يا سيّدي، فاذْهَبْ إليها مِن دونِ إبْطاءٍ».

وأَرْجَعَتْهُ كَلِماتُ الضّابطِ إلى عالَمِ الحَقيقةِ، ففَكَّرَ في أُمِّهِ، لٰكِنَّهُ لم يَشْعُرْ بالشَّوْقِ إليها، فَهْوَ في قَرارتِهِ يَحْتَرِمُها! وهْوَ من دونِ أَنْ يَعْتَرِفَ بذٰلِكَ لم يَكُنْ يَمْحَضُها الحُبَّ، مَعَ أَنَّهُ في الظّاهِرِ، وبَيْنَ المَلِإ، وأَمامَ نفسِهِ، كانَ يَحْتَرِمُها أَعْظَمَ الاحْتِرامِ، ويُلَبِّي طَلَباتِها بسُرعةٍ، ويُصْدَعُ بأَمْرِها، ويُبْرِمُ ما تُشيرُ بهِ. على أَنَّهُ كُلَّما زادَ احْتِرامُهُ لها في تَصَرُّفاتِهِ وأعمالِهِ، قَلَّ

(١) نَجْلاء: واسِعَة.
(٢) أرثي له: أُشْفِقُ عليه.

احْتِرامُهُ لها وحُبُّهُ لشَخْصِها كأُمِّهِ، في أعماقِ قَلْبِهِ!

* * *

وأَوْمَأَ الشّابُّ للضّابطِ شاكِرًا، واتَّجَهَ نحوَ المَرْكَبَةِ، ولٰكِنَّهُ تَرَيَّثَ لَدى البابِ، حتّى يُفْسِحَ في المَجالِ لسَيِّدةٍ كانَتْ تَهُمُّ بالهُبوطِ.

وأَدْرَكَ لِلوَهْلةِ الأُولى أَنَّ هٰذِهِ السَّيِّدةَ تَنْتَمي إلى عَلِيَّةِ القَوْمِ، وأَنَّها مِنَ الصَّفْوةِ المُخْتارَةِ، فالنِّعْمَةُ بادِيَةٌ على مَلامِحِها مُنْطَبِعَةٌ على قَسَماتِ وَجْهِها؛ ومَلابسُها تَنِمُّ عن رَخاءٍ وتَرَفٍ وذَوْقٍ سَليمٍ.

وأَحْنى لَها رَأْسَهُ وتَمْتَمَ بكَلِمةِ أَسَفٍ، ثُمَّ رَفَعَ ساقَهُ لِيَصْعَدَ، ولٰكِنَّ حافِزًا غامِضًا أَرْغَمَهُ على الِالْتِفاتِ، لا لأَنَّها كانَتْ فاتِنةً جِدًّا، ولا لأَنَّها كانَتْ ذاتَ بَهاءٍ ورَواءٍ، بل لأَنَّ شيئًا فيها كانَ يَذوبُ رِقّةً ولُيونَةً وعاطِفةً مَشبوبَةً!

ولمّا الْتَفَتَ، الْتَفَتَتْ... ورَسَتْ عَيْناها الدَّعْجاوانِ[1] المُتَّسِعتانِ اللَّتانِ تُظَلِّلُهُما أَهْدابٌ سودٌ طَويلةٌ، على وَجْهٍ بنَظْرةٍ ناعِمَةٍ دافِئةٍ، ثُمَّ انْثَنَتْ إلى ناحيةٍ أُخْرى بحَرَكَةٍ خَفيفَةٍ كأَنَّها تَبْحَثُ عن إنسانٍ آخَرَ.

ووَلَجَ فرونسكي المَرْكَبَةَ، فَنَظَرَتْ إليه أُمُّهُ وزَوَتْ ما بَيْنَ عَيْنَيْها. وعادَتْ فتَأَمَّلَتْ فيهِ، ثُمَّ ابْتَسَمَتْ قليلًا بشَفَتَيْها الرَّقيقَتَيْنِ.

وكانَتِ الأُمُّ امرَأَةً هَزيلةً ناضِبَةً، سَوداءَ العَيْنَيْنِ، يُزَيِّنُ أُذُنَيْها قُرْطانِ لامِعانِ، ويُحَلّي إِصْبَعَها خاتَمٌ كَبيرٌ.

فلمّا دَنا مِنْها مَدَّتْ لهُ يَدًا معروقةً فلَثَمَها، ثُمَّ رَفَعَتْ رأْسَهُ وقَبَّلَتْهُ في وَجْنَتِهِ وقالَتْ: «هل وَصَلَتْكَ بَرْقِيَّتي؟ أَهانِئٌ أَنْتَ بمَعيشَتِكَ؟ شُكْرًا للهِ!»

فجَلَس الِابْنُ في جِوارِ والدتِهِ وقالَ: «عَسى أَنْ لا تَكونَ وَعْثاءُ[2] السَّفَرِ قد نالَتْ مِنْكِ كَثيرًا يا أُمّاهُ!»

ولم يَحْفِلْ رَدَّها على كَلِماتِهِ، بل أَصاخَ إلى صَوْتِ امْرَأَةٍ انْبَعَثَ مِنَ الخارِجِ، وتَراءى لهُ

(١) الدَّعْجاوان: السَّوداوانِ الواسِعتان.
(٢) وَعْثاءُ السَّفَرِ: مَشَقَّتُهُ.

أَنَّ هٰذا الصَّوْتَ الفَتِيَّ المُتماوِجَ هُوَ صَوْتُ الغادَةِ الفاتِنةِ الَّتي قابَلَها مُنْذُ لَحَظاتٍ على مَدْخَلِ المَرْكَبَةِ.

وكانَتْ صاحِبَةُ الصَّوْتِ تَقولُ في شَيءٍ مِنَ الحِدَّةِ: «لا أُجاريكَ في ما ذَهَبْتَ إِليهِ مِنْ رَأْيٍ، يا عَزيزي، ولا أُقِرُّكَ على هٰذا المَبْدإِ الَّذي اتَّخَذْتَهُ مَذْهبًا!»

فأَجابَها صَوْتٌ آخَرُ، صَوْتُ رَجُلٍ: «هٰذِهِ وُجْهَةُ نَظَرِ امْرِئٍ مِنْ بطرسبرج».

قالَتْ: «لا، بل وُجْهَةُ نَظَرِ كُلِّ أُنْثى!»

- «ذَريني أَلْثُمْ يَدَكِ!»

- «إِذْهَبْ مَحفوظًا يا إيفان بتروفتش، وإِنِ التَقَيْتَ أَخي في طَريقِكَ فوَجِّهْهُ إِليَّ لأَنّي في انتِظارِهِ مُنْذُ حينٍ».

ورَجَعَتِ الغادةُ ثانيةً إِلى المَرْكَبةِ، فهَشَّتِ الكونتسُ الكَهْلةُ لها وبَشَّتْ، وقالَتْ مُتسائِلةً: «أَلَم تَجِدي أَخاكِ يا عَزيزتي؟»

في تِلكَ اللَّحظَةِ أَدْرَكَ فرونسكي أَنَّ السَّيِّدةَ الجميلةَ هِيَ «أَنّا كارنينا».

فانْبرى يَقولُ وهْوَ يَنْتَصِبُ واقِفًا: «رأَيْتُ أَخاكِ، فهْوَ هُنا... على أَنّي مَدينٌ لَكِ باعتِذارٍ، فأنا لم أَعْرِفْكِ عندَما اعْتَرَضْتُ سَبيلَكِ اتِّفاقًا، ولا شَكَّ أَنَّكِ لم تَتَذَكَّريني أيضًا». وأَحْنى هامَتَهُ باحْتِرامٍ.

فقالَتْ وثَغْرُها يُضيءُ بِبَسْمةٍ فاتِنةٍ: «كانَ عليَّ أَنْ أَعْرِفَكَ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَني أَنْتَ، لأَنَّنا قَضَيْنا ساعاتٍ ونحنُ نَتَحَدَّثُ عنكَ، فوالدتُكَ مُتَعَلِّقَةٌ بكَ كثيرًا! ولٰكِنْ... أَيْنَ أَخي؟ أَيْنَ هُوَ؟»

وقالَتِ الأُمُّ العَجوزُ: «عَجِّل يا أَليكس... اِذْهَبْ وابْحَثْ عنهُ، ولا تَرْجِعْ مِن دونِهُ».

وقَفَزَ فرونسكي مُتَرَجِّلًا ورَفَعَ عَقيرتَهُ[1] يُنادي: «أوبلنسكي...! هنا... هنا...».

أَمّا أَنّا كارنينا فإِنَّها لم تَنْتَظِرْ مَجيءَ أَخيها، بل غادَرَتِ المَرْكَبَةَ، ومَشَتْ ثابِتَةَ الخَطْوِ، مُرتفِعةَ الرَّأْسِ. وما كادَتْ تُبْصِرُ أَخاها قادِمًا نَحْوَها، حتّى أَسْرَعَتْ إِليهِ فلفَّتْ يَدَها اليُسرى

(١) عَقيرَتَهُ: صَوْتَهُ.

حَولَ عُنُقِهِ بحَرَكةٍ رَشيقةٍ أَذْهَلَتْ فرونسكي وقَبَّلَتَهُ في وَجْهِهِ.

ولم يَسْتَطِعْ فرونسكي أَنْ يُحوِّلَ ناظِرَيهِ عنها، بل شَخَصَ إلى وَجْهِها في ذُهولٍ وإِعْجابٍ، وابْتَسَمَ ابْتِسامةً عَريضةً تَطْفَحُ بالبِشْرِ والسَّعادةِ. بَيْدَ أَنَّهُ تَذَكَّرَ أُمَّهُ، فانْثَنى راجِعًا إليها.

وقالَتِ الأُمُّ: «إِنَّها رائِعةٌ أَليسَ كذٰلِكَ؟ لقد رَجاني زَوْجُها أَنْ أُلازِمَها، وكانَتْ مُزامَلتي لها في السَّفَرِ سَعادةً، وأَنا لم أَشْعُرْ بالمَلَلِ طيلةَ المَسافةِ الَّتي قَطَعْناها».

وانْقَطَعَتْ عَنِ الكلامِ وحَدَجَتْهُ بنَظْرَةٍ ذاتِ مَعانٍ، واستَطْرَدَتْ باللِّسانِ الفَرَنْسِيِّ: «قيلَ عنكَ إِنَّكَ ظَفِرْتَ بفتاةٍ تَنْتمي إلى فُضْلَياتِ العائلاتِ، فإنْ صَحَّ هٰذا، فلْيَهْنِكَ الظَّفَرُ بأُمنيةٍ طالما طَلَبْتُها لَكَ».

فقاطَعَها بصَوْتٍ أَجَشَّ: «ماذا تَقْصِدينَ بكَلامِكِ يا أُمّاهُ؟ إِنّني لا أَفْهَمُ حَرْفًا مِمّا تَقولينَ!»

وعادَتْ أَنّا كارنينا في تِلكَ اللَّحظةِ لتُوَدِّعَ الكونتس، وما كادَتْ تَصِلُ وتَجْلِسُ حتّى ابْتَدَرَتِ المَرْأَةَ قائِلَةً: «لقدِ اجْتَمَعَ الشَّمْلُ أَخيرًا، فالتَقَيْتِ ابنَكِ، والتَقَيْتُ أَخي، وذٰلكَ بعدَ أَنْ فَرَغَتْ جَعْبَتانا مِنَ الحَديثِ».

فقالَتِ العَجوزُ بلَهْجةِ الصِّدْقِ والصَّراحَةِ: «كلّا... كلّا... فأنا أَسْتَطيعُ أَنْ أَقْطَعَ مَعَكِ الفَيافيَ والقِفارَ، وأَجوبَ الأَمْصارَ والأَقْطارَ مِن دونِ أَنْ يَطْرَأَ على مَشاعِري مِن قُربِكِ وحَديثِكِ سَأَمٌ... فأَنْتِ مِنَ النِّساءِ اللَّواتي يَفيضُ مِنْهُنَّ الحُبورُ، حتّى يُصْبِحَ الصَّمْتُ في صُحْبَتِهِنَّ لَذيذًا، والكَلامُ أَلَذَّ! وأُوصيكِ يا عَزيزتي أَنْ تَتَجَمَّلي بالصَّبْرِ فلا يُرْمِضُك بُعْدُكِ عن وَلَدِكِ، فالفِراقُ سُنَّةٌ، ولا بُدَّ لَكِ مِن أَنْ تُرَوِّضي نفسَكِ ومَشاعِرَكِ عليهِ».

ورَفَعَتْ أَنّا كارنينا رأْسَها وهْيَ لا تَزالُ تَبْتَسِمُ.

وتَحوَّلَتِ الكونتسُ إلى ابنِها، وقالَتْ مُوَضِّحةً: «إِنَّ أَنّا كارنينا أُمٌّ، ولها طِفْلٌ في الثامنةِ لم يَسْبِقْ لها أَنْ غادَرَتْهُ وَحيدًا في بطرسبرج، ولهٰذا تَجِدُها مُنْزَعِجَةً أَشَدَّ الإِنْزِعاجِ».

وقالَتْ أَنّا كارنينا وهْيَ تَرْمُقُ فرونسكي بعَيْنَينِ ضاحِكَتَيْنِ وكأَنَّها تَخُصُّهُ بابْتِسامَتِها: «أَجَلْ، كُنْتُ أَنا والكونتس نَتَجاذَبُ الحَديثَ طيلةَ الوَقْتِ الَّذي أَمْضَيْناهُ مَعًا. كُنّا نَتَحدَّثُ، أَنا عَنِ ابْنِي، وهْيَ عَنِ ابْنِها...» ورَنَتْ إليهِ مُداعِبةً.

وفَطِنَ هُوَ إلى مَوْطِنِ الدَّعابةِ مِن حَديثِها ونَظْرتِها فقالَ: «وأَخْشى ما أَخْشاهُ أَنْ تَكوني قد ضَجِرْتِ مِمّا طَرَقَ سَمْعَكِ».

ويَبدو أَنَّها لم تَشَأْ أَنْ تَسْتَرسِلَ في مِثْلِ هٰذا الكَلامِ، فقد الْتَفَتَتْ إلى الكونتسِ وقالَتْ: «ذَريني أَشْكُرُكِ، فأَنْتِ مُرافِقةٌ كَريمةٌ، ولا يَسَعُني إلَّا الإعْرابُ عن أَسَفي لانتِهاءِ الرِّحْلَةِ بِمِثْلِ هٰذهِ السُّرعةِ، فإلى اللّقاءِ...».

فقالَتِ الكونتسُ: «رافَقْتُكِ السَّلامةُ يا عَزيزتي؛ دَعيني أُقَبِّلْ مُحيّاكِ الحَسَنَ... إنّني هَرِمةٌ لا أَعْرِفُ المُوارَبَةُ، بل أَلِجُ البُيوتَ مِن أَبْوابِها... ولا أُغالي إنْ جَهَرْتُ برَأْيي في سِحْرِكِ، فلِسِحْرِكِ سُلْطانٌ عَظيمٌ، وقد ذَهَلْتُ عَنْ نَفْسي طيلةَ اجْتماعي إليكِ، وكانَ شَغَفي بكِ كبيرًا، وكَلَفي بمَحاسِنِكِ ومَناقِبِكِ أَكْبَرَ وأَشَدَّ».

واعْتَقَدَتْ أَنّا كارنينا أَنَّ المَرأَةَ تُعَبِّرُ عن خَلَجاتِها الحَقّةِ، فتَضَرَّجَ وَجْهُها حَياءً وجَذَلًا، ثُمَّ انْحَنَتْ قَليلًا وأَدْنَتْ خَدَّها مِن فَمِ الكونتس، فقَبَّلَتْهُ هٰذِهِ برِفْقٍ.

ثُمَّ انْتَصَبَتْ فمَدَّتْ يَدَها إلى فرونسكي، فلَثَمَها الفَتى، وشَعَرَ بالغِبْطَةِ، وداهَمَتْهُ فَرحةٌ.

وما عَتَّمَتْ أَنْ غادَرَتْ مَرْكبةَ القِطارِ بحَيَويّةٍ وقُوّةٍ فكانَتْ في مِشْيَتِها كأَنَّها لا تَكادُ تَطَأُ الأَرْضَ تيهًا وزَهْوًا!

وجَمْجَمَتِ الأُمُّ بصَوْتٍ مَهْموسٍ: «رائعةٌ! إنّها رائعةٌ!»

وكانَ هٰذا ما راوَدَ فِكْرَ ابْنِها أيضًا... وقد تَتَبَّعَ الحَسْناءَ بنَظَرِهِ، حتّى رآها تُقْبِلُ على شَقيقِها فتَضَعُ يَدَها في يَدِهِ، وتَنْهَمِكُ مَعَهُ في حَديثٍ خَطيرٍ، حَديثٍ لا يَتَعَلَّقُ بهِ هُوَ، بل بشَخْصٍ آخَرَ، أو بشَيْءٍ آخَرَ. وشَعَرَ الشّابُّ بالقَلَقِ البالغِ. لِمَ لا تَتَحَدَّثُ عنهُ؟ يَجِبُ أَنْ تَتَحَدَّثَ عنهُ.

واسْتَدارَ إلى أُمِّهِ وابْتَدَرَها قائلًا: «كُلُّ شيءٍ على ما يُرامُ كما أَرى يا أُمّاهُ».

قالَتْ: «كُلُّ شَيءٍ، وأَنّا كَيّسةٌ ظَريفةٌ، والجَميعُ في خَيرٍ».

وعَلِقَتْ تُحَدِّثُهُ عَمّا يَعْنيها مِن أُمورِ دُنْياها، عن حَفيدِها الَّذي جَعَلَها تَمْكُثُ كُلّ هٰذا الزّمانِ في بطرسبرج، وعَنِ اللّفتةِ الكَريمةِ الّتي تَلَطَّفَ بها القَيْصَرُ على أَكْبَرِ أَبْنائِها.

ثُمَّ نَهَضَ الشّابُّ فتَأَبَّطَ ذِراعَ أُمِّه وقالَ: «هَلُمّي يا أُمّاهُ، لقد خَفَّتِ الزَّحمةُ وانْفَضَّ الجَمْعُ».

وحَمَلَتِ الخادِمَةُ حَقيبةً صَغيرةً، وحَمَلَ الخادِمُ مَعَ رَجُلٍ آخَرَ بَقِيَّةَ الأَمْتِعةِ.

ولٰكِنَّهما ما ابْتَعَدا قَليلاً حتّى شاهَدا عَدَدًا مِنَ الرِّجالِ يُهَرْوِلونَ في ذُعْرٍ واضطِرابٍ. وكانَ مِنْ جُملَتِهِمْ ناظِرُ المَحَطّةِ الَّذي نَطَقَ وَجْهُهُ بالهَلَعِ الشَّديدِ.

ولا شَكَّ أَنَّ أَمْرًا غيرَ عادِيٍّ قد وَقَعَ. وبَدَأَتِ الجُموعُ الَّتي غادَرَتِ القِطارَ تَرْجِعُ أَدْراجَها.

وتَعالى اللَّغَطُ، وسُمِعَتْ هٰذِهِ الكَلِماتُ تَتَلَقَّفُها الآذانُ، وتَتساءَلُ بها الأَلْسُنُ: «ماذا؟... ماذا؟... أَيْنَ؟... كَيفَ؟... لقد لاقى حَتْفَهُ، ماتَ!...».

ورَجَعَ ستيفانُ أوبلنسكي وشَقيقَتُهُ فيمَنْ رَجَعَ مِنَ النّاسِ، وقد بانَ الخَوْفُ على مَلامِحِهما.

ولاذَتِ السَّيِّدتانِ بالمَركبةِ، بَيْنما لَحِقَ فرونسكي وستيفانُ بالجَمْعِ لاسْتِجلاءِ حَقيقةِ الأَمْرِ.

ولم يَلْبَثا أَنْ عَلِمَا أَنَّ حارِسًا أَعْماهُ السُّكْرُ، أو شَدَهَهُ البَرْدُ القارِسُ، فلم يَشْعُرْ باقتِرابِ القِطارِ قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَهُ ويُمَزِّقَ جَسَدَهُ شَرَّ مُمَزَّقٍ.

وقَبْلَ أَنْ يَرجِعَ الرَّجُلانِ اطَّلَعَتِ السَّيِّدتانِ على تَفاصيلِ الحادثةِ.

وكانَ الشّابّانِ قد شاهَدا الجُثّةَ المُمَزَّقةَ، فلمّا انْضَمّا إلى السَّيِّدَتَيْنِ قالَ أوبلنسكي وهُوَ يَكادُ يَنْشِجُ بالبُكاءِ: «أُوّاهِ يا أَنّا! يا لَهُ مِن مَنْظَرٍ مُرْعِبٍ! إِنَّهُ حادِثٌ مُريعٌ!»

أَمّا فرونسكي فقد لاذَ بالصَّمْتِ. وكانَ وَجْهُهُ الجَميلُ مُقَطِّبًا بَعْضَ الشَّيْءِ، إِلّا أَنَّ الهُدوءَ لم يُفارِقْهُ لَحظةً.

وتابَعَ أوبلنسكي يَقولُ: «ويا لَمَنْظَرِ زَوْجَتِهِ وهْيَ تَنْحَطُّ على الأَشْلاءِ! لقد كانَتْ تُعْوِلُ، وما أَرْهَبَ صَوْتَها وهْيَ تَنْدُبُ زَوْجَها! ويُقالُ إِنَّ عائلَتَهُ كَبيرةٌ... كَبيرةٌ...».

فانْبَرَتْ أَنّا كارنينا تَقولُ بصَوْتٍ يَخْتَلِجُ تَأَثُّرًا: «أَلا يَسْتَطيعُ المَرْءُ أَنْ يُسْدِيَ، خِدمةً ما لهٰذِهِ العائِلَةِ المَرْزوءَةِ؟»

ورَماها فرونسكي بنَظْرةٍ خاطفةٍ، ثُمَّ غادَرَ العَرَبةَ وهُوَ يَقولُ: «لن أَلْبَثَ أَنْ أَقْفِلَ راجعًا يا أُمّاه!»

فلمّا عادَ يَميسُ بقَوامِهِ البَديعِ، كانَ ستيفانُ أوبلنسكي قد نَسِيَ المأساةَ، وطَفِقَ يُجاذِبُ أُخْتَهُ أَنّا حَديثًا طَلِيًّا، ويَصِفُ لها المُتْعَةَ الَّتي يُلاقيها المَرْءُ في مَلاهي موسكو ومَسارِحِها وأَنْدِيتِها. ثُمَّ عَكَفَ يُشيدُ بمَهارةِ مُطْربةٍ حَديثةٍ ما بَرِحَ أَهْلُ موسكو يَنْتَظِرونَها مُنذُ حينٍ.

وقَطَعَ الرَّجُلُ حَديثَهُ بَعْد قَليلٍ، وتَحَرَّكَ القَوْمُ، ثُمَّ ساروا مُبْتَعِدينَ. وقد مَشى فرونسكي مَعَ أُمِّهِ في المُقَدِّمةِ، ووَراءَهُما مَشَتْ أَنّا كارنينا وشَقيقُها.

وما كادوا يَقْتَرِبونَ مِنَ البابِ الضَّخْمِ حتّى أَدْرَكَهُمْ ناظِرُ المَحَطَّةِ، وخاطَبَ فرونسكي قائلًا: «لقد مَنَحْتَ مُساعدي مِتَتي روبلٍ، فهلّا قُلْتَ لمَصلحةِ مَنْ هٰذا المالُ؟»

فهَزَّ فرونسكي مَنْكِبَيْهِ وأَجابَ: «للأَرْمَلةِ... وما حاجَتُك إلى السُّؤالِ؟ لمن أَعْطَيْتُ المالَ؟ أَما تَعْرِفُ؟»

ونَظَرَ حَوْلَهُ، واسْتَطْرَد: «لم أَظُنَّ قَطُّ أَنَّهُمْ عَديمو الفَهْمِ والإدْراكِ!»

وهَتَفَ أوبلنسكي مُتَعَجِّبًا: «هل تَبَرَّعْتَ بهٰذا المَبْلَغِ؟»

وضَغَطَ على يدِ شَقيقتِهِ وأَضافَ: «جَميلٌ مِنْكَ أَنْ تَفْعَلَ هٰذا... أَنْتَ رائعٌ...». ومَضى فرونسكي وأُمُّهُ في سَبيلِهِما. وتَرَيَّثَ أوبلنسكي وشَقيقتُهُ رَيثما تَلْحَقُ بهِما الخادمةُ.

وكانَ القادِمونَ والرَّائِحونَ لا يَزالونَ يَتَحَدَّثونَ عَنِ الكارثةِ الَّتي دَهَمَتِ الحارسَ.

وقد قالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ على مَسْمَعٍ مِنَ الآخَرينَ: «ما أَبْشَعَها مِنْ ميتةٍ! يَقولونَ إنَّ القِطارَ شَطَرَهُ شَطْرَيْنِ».

فرَدَّ عَلَيْهِ آخَرُ: «بل إنَّها، على ما أَظُنُّ، أَسْهَلُ ميتةٍ، فقد لَفَظَ أَنْفاسَهُ في لَمْحةٍ خاطِفةٍ».

وقالَ ثالثٌ مُتَسائِلًا: «وكيفَ لا يَتَّخِذونَ ما يَلْزَمُ مِنَ الاحتِياطاتِ؟»

ووَقَفَتْ عَرَبةٌ، واسْتَقَلَّتْها أَنّا كارنينا. ولمّا هَمَّ شَقيقُها ستيفانُ بالصُّعودِ إلى جانِبِها تَعَجَّبَ ممّا رآهُ مُنْطَبِعًا على أَساريرِها، وأَفْزَعَتْهُ دَمْعةٌ تَرَقْرَقَتْ في مَآقيها، فسَأَلَها مُتَوَجِّسًا: «ماذا دَهاكِ؟ ماذا أَلَمَّ بِكِ يا أَنّا؟»

– «لا شَيْءَ البَتَّةَ؛ إلّا أَنّي تَشاءَمْتُ ممّا حَدَثَ!»

- «تَشاؤُمُكِ لا يُعَوَّلُ عليهِ... لقد وَصَلْتِ سالمةً، وهٰذا بَيْتُ القَصيدِ[1]. ولن تَحْدُسي الحَقيقةَ لو حاوَلْتِ الاطِّلاعَ على مِقدارِ ما أُعَلِّقُهُ على وُجودِكِ مِنْ آمالٍ جِسامٍ».

قالَتْ: «وهل تَعْرِفُ فرونسكي مُنذُ زَمَنٍ بعيدٍ؟»

- «أَجَلْ، ونَأْمُلُ أَنْ يَبْنيَ في القَريبِ العاجِلِ على كاترينَ».

- «أَحَقًّا تَقولُ؟ هَلُمَّ حَدِّثْني عَنْكَ، عَن أُمورِكَ، عَن مَشاكِلِكِ... هاكَ رِسالتَكَ، وقد أَسْرَعْتُ بالمَجيءِ عَقِبَ اطّلاعي على مُحْتَوَياتِها... فما الخَطْبُ؟ ماذا جَرى بَيْنَك وبينَ زَوجِكَ؟»

وطَفِقَ ستيفانُ أوبلنسكي يَسْرُدُ على مَسامِعِ شَقِيقتِهِ ما جَرى لهُ مِن دونِ أَنْ يُخْفِيَ شيئًا. وكانَ يَتَكَلَّمُ بصرَاحةٍ وطَلاقةٍ وكأَنَّ الحَديثَ لا يَهُمُّهُ وكأَنَّهُ لا يَعْنيهِ!

ووَصَلا أَخيرًا، فتَرَجَّلَ مِنَ العَرَبةِ وأَعانَ أُخْتَهُ على الهُبوطِ، وما عَتَّمَ أَنْ ضَغَطَ على يَدِها مُتَوَدِّدًا ومَضى في سَبيلِهِ إلى مِكانِ عَمَلِهِ.

---

(١) هذا بيتُ القَصيد: هذِه هي الغايَةُ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - ظهرتْ في هذا الفصلِ شَخصيَّةٌ جديدةٌ، فهل تَرى أَنَّه سيكونُ لها دورٌ رئيسٌ في الرّواية؟

٣ - ماذا بدا لكَ من ملامحِ هذه الشّخصيَّةِ الجديدةِ؟

٤ - لِمَ قدِمَتْ أَنّا كارنينا إلى موسكو؟

٥ - ما المشهد الدّامي الَّذي رأَتْهُ أَنّا كارنينا في مَحطَّةِ القِطارِ؟

٦ - ما الَّذي جمعَ بين أَنّا كارنينا والضّابطِ فرونسكي في اللّقاء الأوّل؟

٧ - هل حَدَسْتَ أَمرًا ما في اللّقاءِ الَّذي جَمَعَ الاثنَيْنِ في محطّة القِطارِ؟ ما هو؟ وإلامَ استنَدَ حَدْسُك؟

٨ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ؟

الفصل العاشر

عِنْدَما دَخَلَتْ أَنّا، كانَتْ داريا الزَّوْجةُ المَهيضةُ الجَناحِ المَكسورةُ الخاطِرِ، تَجْلِسُ في غُرفةِ الاسْتِقْبالِ الصّغيرةِ قَريبًا مِنْ طِفْلِها الَّذي كانَ صورةً صادقةً لأَبيهِ. وكانَتْ تُلَقِّنُهُ دَرْسًا في الفَرَنْسِيّةِ وتُحاوِلُ جاهِدةً أَنْ تَصْرِفَهُ عَنِ العَبَثِ بزِرٍّ واهٍ في سُتْرَتِهِ.

ولمّا عيلَ صَبْرُها قَطَعَتِ الزِّرَّ ووَضَعَتْهُ في جَيْبِها وهْيَ تَقولُ للغُلامِ مُحْتَدِمةً: «اِنْتَبِهْ... اُنْتَبِهْ... لا تَعْبَثْ بيَدِكَ».

وكانَتِ الأَحْزانُ قد سَحَقَتْها، ومَعَ ذٰلِكَ فإِنَّهُ لم يَغْرُبْ عن بالِها أَنَّ أَنّا كارنينا قادِمةٌ، وأَنَّها زَوْجةُ رَجُلٍ مَرْموقٍ تَحتَرِمُهُ بطرسبرجِ بأَسْرِها... ثُمَّ، ما ذَنْبُ أَنّا حتّى تَهْجُرَ الدّارَ في الوَقْتِ الَّذي تُلِمُّ هِيَ بها زائرةً؟ ما جَريرتُها وقد اقْتَرَفَ أَخوها، أي زَوْجُ داريا، تِلكَ الحَماقةَ الكُبْرى؟

وأَنْشَأَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَها وتَقولُ: «إِنَّها خَيْرُ امْرَأَةٍ، ولا أَعْرِفُ عنها إِلّا كُلّ حَسَنٍ مِنَ الأَخْبارِ، ولم أَلْقَ مِنْها سِوى اللُّطْفِ والرِّقَّةِ والعَطْفِ السّابغِ».

لا شَكَّ أَنَّها لن تَرْتاحَ في أَثْناءِ إِقامتِها مَعَ أَنّا كارنينا في موسكو إِلى الوَتيرةِ الَّتي كانَتْ حَياةُ الزَّوْجينِ تَسيرُ عليها، فالتَّكَلُّفُ كانَ الظّاهِرَةَ البارِزَةَ الَّتي سادَتْ ذٰلِكَ البَيْتَ، بَيْدَ أَنَّ هٰذا لا يَعْنيها في كَثيرٍ أو قَليلٍ، ولا يُسَوِّغُ فِرارَها مِنْ وَجْهِها... وطَفِقَتْ تُناجي نَفْسَها: «سأَسْتَقْبِلُها أَحْسَنَ اسْتِقْبالٍ، وأَتَمَنَّى على اللهِ أَنْ لا تَسْعى إِلى تَسْرِيةِ هَمّي. فكُلُّ عِباراتِ العَزاءِ وكُلُّ كَلِماتِ الإِقْناعِ، ممّا يَدْخُلُ في مَعاني الصَّفْحِ، والغُفْرانِ، والهَدْيِ المَسيحِيِّ، لن تَشْفَعَ لهُ. لَقد فَكَّرْتُ في كُلِّ شَيْءٍ ولن يُجْدِيَ هٰذا، لن يُجْدِيَ!»

وسَمِعَتْ خَفْقَ نِعالٍ لدى البابِ، فالْتَفَتَتْ مُسْتَطْلِعةً، وعَبَّرَتْ تَقاطيعُها الذّابلةُ عن حُبورٍ مُباغِتٍ... وعَجَّلَتْ بالنُّهوضِ مِن مَكانِها وهُرِعَتْ إِلى شَقيقةِ زَوْجِها فاحْتَضَنَتْها وعانَقَتْها.

وتَبادَلَتِ المَرْأَتانِ كَلِماتِ الشَّوْقِ، وعَبَّرَتْ كُلٌّ مِنْهُمَا عن سُرورِها بلُقيا الأُخْرى بدَمْعةٍ تَدَحْرَجَتْ على خَدِّ كُلٍّ مِنْهُما.

واسْتَدَعَتِ الأُمُّ أَطْفالَها، فقَبَّلَتْهُمْ أَنّا ثَمَّ صَرَفَتْهُمْ. ولمّا انْفَرَدَتِ المَرْأَتانِ كُلٌّ مِنْهُما بالأُخْرى قالَتْ أَنّا: «داريا، لقد أَطْلَعَني أَخي على كُلِّ شَيْءٍ».

فنَظَرَتْ إِليها داريا ببُرودٍ وتَرَقُّبٍ، وانْتَظَرَتْ أَنْ تَنْهالَ عَلَيها أَنّا بعِباراتِ التّعزِيةِ، إِلّا أَنَّ الزّائرةَ اكْتَفَتْ بأَنْ قَالَتْ: «عَزيزتي داريا، لا أَرْغَبُ في تخفيفِ الخَطْبِ بإثارةِ شَفَقَتِكِ عليهِ وعلى أَوْلادِكِ، فهٰذا مُسْتَحيلٌ. والَّذي أَرْغَبُ في بَثِّهِ لَكِ، هُوَ أَنّي في غايةِ الأَسى، وأَنَّ حُزْني عَميقٌ يَمَسُّ حَبَّةَ الشَّغافِ».

ولَمَعَتِ الدُّموعُ مِن وَراءِ أَهْدابِها السُّودِ الكَثيفةِ، واقْتَرَبَتْ مِن زَوْجِ شَقيقِها وتَناوَلَتْ يَدَها...

ولم تَنْكَمِشْ داريا أو تَتَرَدَّدْ، إِلّا أَنَّ وَجْهَها لم يَفْقِدْ تِلكَ النَّظْرَةَ الجامِدةَ القاسِيةَ. وما لَبِثَتْ أَنْ قالَتْ: «إِنَّ مُؤاساتي على ما جَرى أَمْرٌ عَسيرٌ دونَهُ خَرْطُ القَتادِ، فقد ضاعَ كُلُّ شَيْءٍ، وخَبا الأَمَلُ، وغَبَّتِ[1] السّعادةُ!»

ورَقَّتْ تَقاطيعُها بَغْتةً، ورَفَعَتْ أَنّا يَدَ المَرْأَةِ الوالِهة إِلى فَمِها فلَثَمَتْها وهْيَ تُتَمْتِمُ: «فما العَمَلُ إِذًا، ما العَمَلُ؟ وكيفَ يَتَصَرَّفُ الإِنْسانُ في هٰذا المَوْقِفِ العَصيبِ؟ فَكِّري يا عَزيزتي، واشْحَذي بَصيرتَكِ».

قالَتْ: «لقدِ انْتَهى كُلُّ شَيْءٍ، وليسَ هُناكَ ما يَرْبَأُ الصَّدْعَ. وثالِثَةُ الأَثافيّ هِيَ أَنّي لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُقصِيَهُ بسَبَبِ الأَطْفالِ، ومَعَ ذٰلِكَ فليسَ في وُسْعي العَيْشُ مَعَهُ تحتَ سَقْفٍ واحِدٍ، فهٰذا ضَرْبٌ مِنَ المُحالِ، ولن يُسَبِّبَ لي سِوى الأَلَمِ والعَذابِ ممّا يَهونُ إِزاءَهُ كُلُّ مُصابٍ».

- «ولٰكِنَّهُ، كما أَيْقَنْتُ ممّا رَأَيْتُ، في مَقامِ مُجاذَبَةٍ بينَ الأَسى والنَّدَمِ».
- «وهَل هُوَ مِنْ أُولٰئِكَ الَّذينَ يَسْتَشْعِرونَ الشَّجَنَ؟ هل يَنْدَمُ؟ هل يُبَكِّتُهُ الضَّميرُ؟»
- «أَجَل، إِنّي أَعْرِفُهُ. كِلْتانا تَعْرِفُهُ. إِنَّهُ طَيِّبُ القَلْبِ وإِنْ كانَ مُتَشامِخًا... إِلّا أَنَّ

(١) غَبَّتِ السَّعادَةُ: صارَتْ إلى نِهايَتِها.

تَشامُخَهُ انْقَلَبَ الآنَ إلى مَذَلّةٍ... وهٰذا ما أَثَّرَ فيَّ كَثيرًا... (وهنا حَدَسَتْ أَنّا ماذا يؤثّرُ كَثيرًا في داريا). إِنَّهُ يتَعَذَّبُ لأَمْرَيْنِ- للأَوْلادِ، ولأَنَّهُ، وهْوَ المُحِبُّ- أَجَلْ، المُحِبُّ الَّذي يَفْتَديكِ بروحِهِ، قد آلَمَكِ وطَعَنَكِ في الصَّميمِ، في مُهْجَتِكِ! ولا يَفْتَأُ المِسْكينُ يُرَدِّدُ: «كلّا، كلّا... إِنَّها لن تَصْفَحَ، لن تَصْفَحَ..».

وأَلْقَتْ داريا نَظْرَةً حالِمةً على شَقيقةِ زَوْجِها، وما أَبْطَأَتْ أَنْ قالَتْ: «إِنَّ مَوْقِفَهُ فَظيعٌ، وهْوَ ولا غَرْوَ يَتَأَلَّمُ أَكْثَرَ مِنّي لأَنَّهُ مُذْنِبٌ. ولٰكِنْ، كيفَ يَتَسَنّى ليَ العَفْوُ؟ كيفَ أُصْبِحُ زَوْجَتَهُ مَرّةً أُخْرى بَعْدَها، بَعْدَ تِلْكَ المَرْأَةِ المَقبوحةِ؟!»

وخَنَقَتْها العَبَراتُ فكَفَّتْ عَنِ الكَلامِ، واحْتَوَتْها أَنّا بذِراعَيْها وهَدْهَدَتْ صَدْرَها وقالَتْ:

«كُنْتِ لَهُ دائمًا شَيْئًا مُقَدَّسًا، ولا زِلْتِ ذٰلِكَ الشَّيءَ المُقَدَّسَ، أَمّا قَريفَتُهُ[1] الأَخيرَةُ فلم تَكُنْ خِيانةً ارتَكَبَها القَلْبُ...».

- «ولو أَعادَ الكَرّةَ؟»

- «لن يَعودَ إِلى ما ارْتَكَبَ ثانيةً، لن يَفْعَلَ ما فَعَلَهُ، ثِقي بما أَقولُ».

- «ولٰكِنْ، لو تَعَرَّضْتِ أَنْتِ لمِثْلِ ما تَعَرَّضْتُ أنا لَهُ، فهل كُنْتِ تَصْفَحينَ؟»

- «لا أَدْري... بل أَدْري، فأَنا أَعْفو».

ولا شَكَّ في أَنَّها قالَتْ ذٰلِكَ بحافزٍ مِن شُعورٍ باطِنيٍّ غامِضٍ، شُعورٍ غامضٍ بَدَأَ القَدَرُ يَتَمَخَّضُ عَنهُ مُذْ وَطِئَتْ قَدَماها أَرْضَ موسكو.

واسْتَتْلَتْ: «أَجَلْ، أَسْتَطيعُ أَنْ أَعْفُوَ، أَسْتَطيعُ أَنْ أَعْفُوَ، وأَسْتَطيعُ أَنْ أُزاوِلَ حَياتي كأَنَّ شيئًا لم يَحْدُثْ قَطُّ».

وقالَتْ داريا: «أَجَلْ، أَجَلْ. إذا صَفَحَ الإنسانُ وَجَبَ عَليهِ أَنْ يَنْسى الإساءةَ برُمَّتِها. هَلُمّي الآنَ إِلى غُرْفتِكِ». وقَبَّلَتْها ومَضَتْ تَقولُ: «لَشَدَّ ما أنا مُغْتَبِطَةٌ بمَجيئِكِ يا عَزيزتي أَنّا، فقدُومُك سَهَّلَ الأُمورَ، وهَوَّنَ وَقْعَ الكارثةِ على قَلبي وإِحْساسي، فشُكْرًا لَكِ!»

* * *

(١) قَريفَتُهُ: الذَّنْبُ الَّذي اقْتَرَفَهُ.

اسْتَطْلَعَتْ أَنّا كارنينا طَلْعَ زَوجةِ أَخيها، وخَبِرَتْ حَقيقتَها، وكانَتْ أَنّا امْرَأَةً ماهِرَةً حَنَّكَها الدَّهْرُ قَبلَ الأَوانِ، وعَلَّمَها مِنَ الدُّروسِ والعِبَرِ ما لم يُعَلِّمْهُ سِواها مِنَ النِّساءِ. فلمّا تَناهى إِليها أَنَّ أَخاها أَطاعَ الهَوى وأَفْرَطَ في الخِيانةِ، بادَرَتْ إِلى إِعادَةِ المياهِ إِلى مَجاريها بينَ الزَّوْجِ وزَوْجتِهِ في ساعةٍ واحدةٍ.

وقَدِ انْفَثَأَ[1] كَرْبُ زَوْجِ أَخيها، وانْسَرى هَمُّها، فسَرَتِ الابْتِسامَةُ الوادِعَةُ مَسْراها العادِيَّ في أَساريرِ وَجْهِها. واطْمَأَنَّتْ أَنّا لما فَعَلَتْهُ، واهْتَزَّ قَلْبُها طَرَبًا لما أَدَّتْهُ لأَخيها، وقَضَتِ النَّهارَ بطُولِهِ مَعَ داريا والأَوْلادِ، ولم تَشَأْ أَنْ تُقابِلَ أَيَّ زائِرٍ مُشتاقٍ جاءَ لمُقابَلَتِها والتَّرحيبِ بقُدومِها.

وما وافى المَساءُ حتّى كَتَبَتْ لأَخيها رُقْعةً صَغيرةً، تَطْلُبُ إِليهِ فيها أَلّا يَتَأَخَّرَ في المَجيءِ، وتَقولُ: «لقد نَجَحَ المَسْعى والحَمدُ للهِ... عُجْ عَلينا حتّى نَتناوَلَ طَعامَ العَشاءِ مَعًا».

وهٰذا ما جرى فقد جاءَ أوبلنسكي خَفيفًا مُبْتَهِجًا، وهْوَ لا يُصَدِّقُ ما قَرَأَهُ في رُقْعةِ شَقيقتِهِ. ولٰكِنَّهُ أَيْقَنَ مِن صِحَّتِها ساعَةَ رَأَى الهُدوءَ مُخيِّمًا على المَنْزِلِ، والسَّلامَ يُرَفْرِفُ بأَجْنِحَتِهِ على مَنْ فيهِ جَميعًا.

وأَكَلَ الثّلاثةُ طَعامَهُمْ مَعًا، وتَجاذَبوا أَلْوانًا مُسْتَمْلَحَةً مِنَ الحديثِ، وتَبادَلَ أوبلنسكي وزَوجُهُ الابْتِسَامَ لأَوَّلِ مرّةٍ مُنذُ أيّامٍ، وإِنْ كانَ ابْتِسامُهُما لا يَنِمُّ عن راحَةِ الفِكْرِ وهُدوءِ البالِ؛ لٰكِنَّ فِكرةَ الانْفِصالِ استُبْعِدَتْ تمامًا. وهٰكَذا نَجَحَتْ أَنّا كارنينا في مَسْعاها، وأَبْقَتْ على البَيْتِ الَّذي كانَ يَتَداعى للسُّقوطِ والانهِيارِ.

وجاءَتْ كاترينُ بَعْدَ العَشاءِ مُباشَرَةً بداعي شَوْقِها لشَقيقَتِها، ولٰكِنَّها ما جاءَتْ في الحقيقةِ إِلّا لِرُؤيةِ أَنّا كارنينا لما سَمِعَتْهُ عن جَمالِها وفِتْنَتِها، ولِما قيلَ عن ذَكائِها ولَباقتِها.

ولم يَغِبْ عن كاترينَ التَّأْثيرُ الحَسَنُ الَّذي خَلَّفَتْهُ زِيارتُها في قَلْبِ الضَّيفَةِ الحَسْناءِ، فقد قَرَأَتْ في عَيْنَيْها عِباراتِ الإِعْجابِ والإِطْراءِ، كما أَنَّها -أَي كاترينَ- لم تُنْكِرْ أَنَّ أَنّا كارنينا آيَةٌ بَيِّنَةٌ مِنْ إِبداعِ اللهِ في تَكْوينِهِ، وأَنَّها تَفوقُ بحُسْنِها ما سَمِعَتْهُ مِن أَقْوالِ النّاسِ.

---

(١) انْفَثَأَ الكَرْبُ: سَكَنَ وانْطَفَأَ.

وكانَتْ أَنّا كارنينا قد أَلانَتِ القَوْلَ لِكاترينَ، فبَدَتْ لها نَسيجَ وَحْدِها في دَمائثِها الّتي تُناقِضُ رِياءَ النِّساءِ، وفي رَوْنَقِ أُسْلوبِها، ثُمَّ في رَوائِها الَّذي أَظْهَرَها بمَظْهَرِ ابنْةِ العِشرينَ، لا بمَظْهَرِ امرَأَةٍ لها وَلَدٌ في الثّامِنَةِ!

وأَيْقَنَتْ كاترينُ ممّا رَأَتْهُ ولَحَظَتْهُ أَنَّ المَرْأَةَ السّاحِرَةَ هٰذِهِ صَريحةٌ صَراحةً مُتَناهيَةً لا تُخفي شَيْئًا، ولا تُبْطِنُ أَمْرًا وتُبينُ سِواهُ. غَيرَ أَنَّها تَعيشُ في دُنْيا خاصَّةٍ بِها، دُنْيا لا تُشْرِكُ فيها أَحَدًا، ولا تَسْتَقْبِلُ في رِحابِها إِنْسانًا آخَرَ. واعْتَرَفَتْ كاترينُ بعَجْزِها عَن سَبْرِ غَوْرِ هٰذِهِ النَّفْسِ الصَّريحةِ كُلَّ الصَّراحَةِ، الغامضةِ كُلَّ الغُموضِ.

ولم تَرَ كاترينُ مِنَ الفِطْنَةِ أَنْ تُمْعِنَ في التَّأَمُّلِ والتَّفَكُّرِ، حتّى لا تَنْشُرَ ما تُضْمِرُهُ، وتُبْدِيَ ما تَحرِصُ على كِتْمانِهِ، خَشْيَةَ أَنْ تُكَوِّنَ أَنّا عنها فِكْرَةً سَيِّئَةً!

وذَهَبَتْ داريا إِلى حُجْرتِها بَعْدَ العَشاءِ، فنَهَضَتْ أَنّا إِلى أَخيها الَّذي كانَ يُشْعِلُ سيجارَهُ، وقالَتْ وهْيَ تُشيرُ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ إِلى مَخْدَعِ زَوْجِهِ: «اِذْهَبْ، أَسْرِعْ... وليَكُنِ اللهُ مَعَكَ».

فقَبِلَ ما قالَتْهُ، وأَلْقى بسيجارِهِ، ثُمَّ دَلَفَ مِنَ البابِ في طَريقِهِ إِلى مَخْدَعِ زوجِهِ.

وعادَتْ أَنّا إِلى الأَريكةِ الَّتي كانَتْ تَجْلِسُ عليها، فأَحاطَ بها الأَطفالُ، وكانوا قد تَعَلَّقُوا بها وأَحَبُّوها. ولا غَرابَةَ في ذٰلِكَ، فحُبُّ الطِّفْلِ مِنْ حُبِّ أُمِّهِ، وفَوْقَ ذٰلِكَ، كانَتْ أَنّا قَريبةً إِلى قُلوبِ الصِّغارِ لما تُضْفيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ لُطْفِها ورِقَّتِها وأُنْسِها، ولِما تُقابِلُهُمْ بِهِ مِنْ صَبْرٍ وطولِ أَناةٍ. وخاطَبَتْ كاترينَ بَعْدَ قَليلٍ: «ومتى تُقيمونَ حَفْلَتَكُمُ الثّانيةَ يا عَزيزتي؟»

- «في الأُسْبوعِ المُقْبِلِ، وسَتَكونُ حَفْلةً رائِعَةً مِنْ تِلكَ الحَفَلاتِ الرّاقِصَةِ الَّتي يَجِدُ فيها المَرْءُ مُتْعَتَهُ».

فأَجابَتْها أَنّا بشَيءٍ كَثيرٍ مِنَ التَّهَكُّمِ: «وهَل هُناكَ حَفَلاتٌ لا يَجِدُ المَرْءُ فيها دائمًا ما يَرْغَبُ فيهِ مِن مُتْعَةٍ؟»

- «أَجَلْ، وهٰذا أَمْرٌ عَجيبٌ، فثَمَّةَ حَفَلاتٌ يَنْشَرِحُ لَها صَدْرُكِ في كُلِّ حينٍ، وثَمَّةَ حَفَلاتٌ أُخرى في بُيوتٍ مُعَيَّنَةٍ تَشْعُرينَ فيها بالضَّجَرِ والسَّأَمِ... أَفَلَمْ تُلاحظي هٰذِهِ الظّاهرةَ؟»

- «لا يا عَزيزتي، فبالنِّسبةِ إِليَّ الآنَ لَيسَ ثَمَّةَ حَفْلةٌ يَسْتَطيعُ الإِنْسانُ أَنْ يَلْقى فيها ما

يُنْسيهِ كآبَةَ الحياةِ!»

ورَأَتْ كاترينُ في عَيْنَيْها تِلكَ الدُّنْيا الغامِضةَ المُغْلقَةَ في وَجْهِها.

واسْتَتْلَتْ أَنّا: «بالنِّسبةِ إِليَّ هُناكَ حَفْلةٌ مُضْجِرَةٌ وأُخرى أَقَلُّ ضَجَرًا!»

- «وماذا يَجْعَلُكِ تَشْعُرينَ بالسَّأَمِ؟»

- «ولِمَ لا أَشْعُرُ بهِ؟»

وأَدْرَكَتْ أَنّا بغَريزتِها ما ستَقولُهُ كاترينُ. وقد أَصابَتْ في تَكهُّنِها، إِذْ إِنَّ كاترينَ راحَتْ تَقولُ: «لأَنَّكِ دائمًا تَتَجَلَّيْنَ في ثَوْبٍ باهٍ مِنَ الحُسْنِ لا تُضاهيكِ في جَمالِهِ غادةٌ أُخْرى!»

وكانَتْ أَنّا ماهِرةً في التَّمْثيلِ، قادِرةً على صَبْغِ مُحَيّاها مَتى شاءَتْ بخِضابِ الخَجَلِ... وقد تَضَرَّجَ وَجْهُها ساعةَ طَرَقَتْ سَمْعَها كَلِماتُ كاترينَ، وأَجابَتْ وهْيَ تُغْضي قَليلًا: «كَلامُكِ فيهِ غُلُوٌّ تُمليهِ المُجاملةُ يا عَزيزتي، ولوِ افْتَرَضْنا أَنَّ في ما تَقولينَهُ الصِّدْقَ والصَّوابَ، فما تَأْثيرُ هٰذِهِ الحَقيقةِ؟»

- «وهل تَأْتينَ إِلى الحَفْلةِ؟»

- «يَبْدو لي أَنْ لا مَنْدوحةَ لي عَنِ المَجيءِ».

- «يَطيبُ لي مَجيئُكِ، وأَصْدُقُكِ أَنّي أَتَشَوَّفُ الأَبْصارَ إِلى مُشاهدتِكِ تَرْفُلينَ في ثَوْبِ سَهْرةٍ بَنَفْسَجِيٍّ».

- «ولِمَ ذٰلِكَ؟ لِمَ تَطْلُبينَ الثَّوْبَ البَنَفْسَجِيَّ؟ إِنّي أَدْري لماذا تُلِحّينَ عَليَّ في المَجيءِ، فأَنْتِ تَتَوَقَّعينَ الكَثيرَ، وتَوَدّينَ مِن صَميمِ قَلبِكِ أَنْ يَأْتِيَ الجَميعُ لمُشارَكَتِكِ في إِنْجاحِ الحَفْلَةِ».

- «وكَيفَ حَدَسْتِ ذٰلِكَ؟ أَنْتِ على حَقٍّ!»

- «لَشَدَّ ما أَغْبِطُكِ على هٰذِهِ الفَتْرةِ الهَنيئةِ مِن حَياتِكِ يا عَزيزتي، وإِنّي لأَذْكُرُ ذٰلِكَ الوَهيجَ[1] الأَزْرَقَ الشَّبيهَ بالضَّبابِ الَّذي يُرَفْرِفُ على جَوِّ سويسرا، ذٰلِكَ الضَّبابِ الَّذي يَشْمُلُ كُلَّ شَيءٍ في ذٰلِكَ الطَّوْرِ السَّعيدِ، عِندَما تَكونُ الطُّفولةُ في مَرْحَلتِها الأَخيرةِ، ومِن خِلالِ

(١) الوَهيج: التَّوَقُّد.

تِلْكَ الحَلْقةِ المَرِحةِ المُنْشَرِحةِ، يَبْرُزُ دَرْبٌ يَضِيقُ شَيْئًا فشَيْئًا، وما أَلَذَّ السّاعَةَ الَّتي تَدْخُلينَ فيها قاعةَ الحَفْلَةِ المُتَألِّقَةَ بالأَنْوارِ، المُزْدانَةَ بالغيدِ! فمَنْ؟ مَنْ لم يَمُرَّ في هٰذا الدَّرْبِ؟ مَنْ؟»

وابْتَسَمَتْ كاترينُ، وحَدَّدَتْ في أَنّا طَرْفًا مُتَأَمِّلًا، وجَعَلَتْ تَسْتَعيدُ حَوادِثَ الماضي القَريبِ وتُفَكِّرُ وتَتَأَمَّلُ: «فكيفَ؟ كيفَ بَلَتْ أَنّا ما وَصَفَتْ؟ ما أَشَدَّ شَوْقي إلى الِاطِّلاعِ على قِصَّةِ حَياتِها، على غَرامِها!»

ورَأَتْ أَمامَها «أَليكسيس كارنين» زوجُ أَنّا، بوَجْهِهِ المُتَجَهِّمِ الدَّميمِ، وذَهِلَتْ قَليلًا عن نَفْسِها والوَجْهُ المُقَطَّبُ مائِلٌ لناظِرَيْهَا... فهل رَسا مَرْكَبُ أَحْلامِها على هٰذا الشَّاطئِ؟ هلِ انْتَهَتْ حَياتُها الرُّوحيّةُ باصْطِدامِها بِهٰذا الإِنْسانِ المادِّيِّ؟

وما عَتَّمَتْ أَنّا أَنْ قالَتْ وهْيَ تُومِضُ بعَيْنَيْها: «لقد أَنْهى إِليَّ ستيفانُ ما كانَ مِنْ أَمْرِ فرونسكي، ولا يَسَعُني إِلَّا تَهْنِئَتُكِ، فإِنّي قابَلْتُ الشّابَّ في المَحَطَّةِ».

فتَضَرَّجَ مُحَيّا كاترينَ وقالَتْ مُتَسائلةً: «وماذا أَخْبَرَكِ ستيفانُ، ماذا قالَ؟»

- «كُلَّ شيءٍ، ومِنْ دَواعي سُروري يا عَزيزتي أَنْ تَمْتَزِجي وتَنْدَمِجي بهٰذا الفَتى... لقد قَضَيْتُ ساعاتٍ طَويلةً مَعَ أُمِّه، وهْيَ امْرَأَةٌ لا يَروقُ لها إِلَّا التَّحَدُّثُ عنِ ابْنِها. إِنَّها تُحِبُّهُ ولا تُطيقُ فِراقَهُ».

- «وهل قالَتْ لَكِ شَيْئًا؟»

- «أَشْياءَ كَثيرةً، وكُلُّها مَديحٌ وإِطْراءٌ. وعلى سَبيلِ المِثالِ، قالَتْ إِنَّه عَرَضَ على أَخِيهِ ثَرْوَتَهُ كُلَّها، وأَنْقَذَ امْرَأَةً مِنَ الغَرَقِ وهْوَ حَدَثٌ. واثِقَةٌ أَنا مِنْ أَنَّهُ بَطَلٌ!»

وما قالَتْ أَنّا هٰذِهِ الكَلِماتِ إِلَّا عِنْدَما تَذَكَّرَتْ تَبَرُّعَهُ بمِئَتَيْ روبلٍ، حينَ سَقَطَ الحارِسُ صَريعًا تَحْتَ عَجَلاتِ القِطارِ. غَيرَ أَنَّها لم تَأْتِ على ذِكْرِ التَّبَرُّعِ؛ ولسَبَبٍ ما كانَتْ تَشْعُرُ بالانفِعالِ كُلَّما فَكَّرَتْ في هٰذِهِ اللَّفتةِ الَّتي بَدَرَتْ منهُ، وتَراءى لها أَنَّ لها عَلاقةً، أو بالأَحْرى سيَكونُ لها عَلاقةٌ بالمَوْضوعِ كُلِّهِ. ولٰكِنَّها شَعَرَتْ أَنَّ هٰذا الأَمْرَ يَجِبُ أَلَّا يَكونَ.

والْتَفَتَتْ إِلى كاترينَ فَجْأَةً وقالَتْ: «أَحْمَدُ اللهَ؛ إِنَّ ستيفانَ أَطالَ المَكْثَ في مَخْدَعِ داريا».

ونَهَضَتْ مِن مَكانِها وجَعَلَتْ تُداعِبُ الأَطْفالَ وتُلاعِبُهُمْ وصاحَ أَحَدُهُمْ: «أُريدُ أَنْ أُقَبِّلَكِ

قَبْلَ الآخَرينَ...». وهَتَفَ آخَرُ: «بل أنا الأَوَّلُ!»

وصاحَتْ هِيَ والبِشْرُ يَرْسُمُ على مُحَيّاها الوَسيمِ لَوْنًا رائِعًا: «قَبِّلوني كُلُّكُمْ، كُلُّكُمْ، في آنٍ واحِدٍ!»

وانْدَفَعَتْ نَحْوَهُمْ فعانَقَتْهُمْ، وحَمَلَتْهُمْ وَجَعَلَتْ تَدورُ بِهِمْ في مَرَحٍ وحُبورٍ وَسَطَ الغُرفةِ، وقد عَلَتْ ضَوْضاؤُهُمْ، وارْتَفَعَتْ أَصْواتُهُمْ، ومَلأَ المَكانَ صَخَبُهُمْ.

* * *

خَرَجَتْ داريا مِن غُرفتِها لتَتَناوَلَ الشّايَ مَعَ الكِبارِ. ولم يَصْحَبْها ستيفانُ، ولَعَلَّهُ غادَرَ مَخْدَعَ زَوْجِهِ مِنَ البابِ الآخَرِ!

وما كادَتْ تَجْلِسُ مَعَ أَنّا وكاترينَ حتّى قالَتْ مُوَجِّهةً حَديثَها إلى الأُولى: «أَخافُ أَنْ يُؤْذِيَكِ البَرْدُ في الغُرفةِ العُليا، ولهٰذا أَرى أَنْ تَنْتَقلي إلى الطَّبَقةِ الأَرضِيَّةِ».

فأَجابَتْها أَنّا وهْيَ تَحْدِجُها بنَظْرةٍ مُتَفَرِّسَةٍ مُتَفَحِّصَةٍ: «أَرْجو أَلّا تَقْلَقي مِن أَجْلِي».

- «بل يَجِبُ أَنْ تَسْتَبْدِلي غُرْفَتَكِ».

- «ثِقي أَنّي أَجِدُ الرّاحَةَ والمُتْعَةَ في أَيِّ مَكانٍ أَنامُ فيهِ، يا عَزيزَتي».

ووَصَلَ ستيفانُ في تِلكَ الأَثْناءِ، فقال مُتَسائِلًا: «ماذا جَرى؟ وعمّا تَتَكلَّمانِ؟»

وأَدْرَكَتْ أَنّا مِن لَهْجتِهِ أَنَّ المياهَ عادَتْ إلى مَجاريها بينَ الزَّوْجَيْنِ.

وقالَتْ زَوْجُهُ رَدًّا على سُؤالِهِ: «أُريدُ أَنْ أَنْقُلَ أَمْتِعَةَ أَنّا إلى الطَّبَقةِ الأَرْضِيَّةِ، لٰكِنْ لَيسَ ثَمَّةَ مَنْ يُرَتِّبُ أُمورَ النَّوافِذِ غَيري!»

وهَجَسَتْ أَنّا في ما بينَها وبينَ نَفْسِها، وجَعَلَتْ تَقولُ: «اللهُ وَحْدَهُ يَعْلَمُ إِنْ كانَ القَلبانِ قد خَلَصا مِنَ الضَّغائِنِ؛ اللهُ يَعْلَمُ إِنْ كانا قد تَصالحا وتَصافَيا!»

وقالَ ستيفانُ، وهْوَ يَنْظُرُ إلى زَوْجِهِ، ثُمَّ يُنَقِّلُ طَرْفَهُ بَيْنَ السَّيِّدَتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ: «هٰذا هُراءٌ! إنَّ داريا تَسْتَنْبِطُ الصِّعابَ دائِمًا. على أَنّي طَوْعَ أَمْرِكِ فافْعَلي ما تَشائينَ!»

وأَتَمَّتْ أَنّا مُناجاتَها والابتِسامةُ تُداعِبُ شَفَتَيْها: «أَجَلْ... أَجَلْ. لَقدِ اتَّفَقا وتَوافَقا، والصُّلْحُ كامِلٌ، كامِلٌ... شُكْرًا للهِ!»

وظَلَّتْ داريا، طِيلةَ ساعاتِ المَساءِ، تُوَجِّهُ إلى زَوْجِها الحَديثَ باللَّهْجةِ السّاخِرَةِ الَّتي دَرَجَتْ مُنْذُ زَمَنٍ على مُخاطَبَتِهِ بها.

أَمّا هُوَ- الزَّوْجُ المُذْنِبُ الَّذي صَفَحَتْ عنهُ امْرَأَتُهُ- فقد طَغَى عليهِ السُّرورُ، ثُمَّ نَسِيَ بَعْدَ قَليلٍ أَنَّهُ خانَ زَوْجَهُ فاسْتَحَقَّ العِقابَ، نَسِيَ كُلَّ شيءٍ، ورَجَعَ- كما كانَ- ستيفانَ أوبلنسكي الَّذي لا تُفارِقُ الابتِسامةُ فَمَهُ.

وطُرِقَ البابُ ودَقَّتِ السّاعةُ مُعْلِنةً انْتِصافَ التّاسِعَةِ.

وفُتِحَ البابُ، وبَدا للجَميعِ وَجْهُ فرونسكي، فشَعَرَتْ أَنّا بمَزيجٍ مُتَناقِضٍ مِنَ السُّرورِ والفَزَعِ، أَمّا كاترينُ فقد شَعَرَتْ بالسَّعادةِ، وخُيِّلَ إليها أَنَّ الشّابَّ مَرَّ عليها في بَيْتِها، فلمّا لم يَجِدْها جاءَ وَراءَها وانْتَحَلَ هٰذا العُذْرَ. فقد قالَ لِستيفانَ: «في أَيِّ ساعةٍ تُقيمُ المَأْدُبَةَ للضَّيْفِ العَظيمِ الَّذي تَنْتَظِرُ مجيئَهُ غَدًا؟» واكْتَفى فلم يَدْخُلْ. وتَخَضَّبَ وَجْهُ كاترينَ فأَطْرَقَتْ بِرَأْسِها خَجَلًا وحَياءً!

وأَبى فرونسكي أَنْ يَدْخُلَ، ورَجَعَ مِنْ حَيْثُ أَتى. وتَبادَلَ الجَميعُ نَظَراتِ التَّعَجُّبِ والتَّساؤُلِ، ولم تَلْبَثْ عُيونُهُمْ أَنْ تَحَوَّلَتْ إلى مَجْمَعٍ للرُّسومِ كانَتْ أَنّا قد بَدَأَتْ تَتَأَمَّلُ فيهِ.

فهل هُناكَ ما يُثيرُ الرِّيَبَ في زيارةٍ يَقومُ بها شابٌّ في مِثْلِ هٰذا الهَزيعِ[1]؟ ثُمَّ لماذا لم يَدْخُلْ؟ لماذا تَرَدَّدَ ثُمَّ أَحْجَمَ؟ لا، لَيْسَ هُناكَ ما يُثيرُ الرِّيَبَ والشُّكوكَ، إِلّا أَنَّ الأَمْرَ بَدا مُذْهِلًا لَهُمْ جَميعًا. ما سَبَبُ إِحْجامِهِ؟ لماذا اكْتَفى بالسُّؤالِ؟ أَلَمْ يَكُنْ في استِطاعتِهِ إرْجاءُ سُؤالِهِ إلى الغَدِ؟

أَمّا أَنّا فقد عَدَّتْ عَمَلَهُ نَزَقًا وطَيْشًا، وللشَّبابِ طَفْرَتُهُ ونَزْوتُهُ ورُعونَتُهُ! فهل عَدَّتْ أَنّا عَمَلَهُ نَزَقًا وطَيْشًا في قَرارَةِ نَفْسِها؟ أَم... أَم ماذا؟

* * *

أَنْفَقَتْ كاترينُ كَثيرًا مِن وَقْتِها وهْيَ تَتَزَيَّنُ وتَتَأَنَّقُ وتَسْتَعِدُّ للحَفْلةِ السّاهرَةِ الَّتي سَيَتَقَرَّرُ فيها مُسْتَقْبَلُها، فيُذاعُ في أَثْنائِها خَبَرُ خِطْبَتِها لِلْكونتِ الشّابِّ فرونسكي، أو على الأَقَلِّ يُبَتُّ في هٰذا الأَمْرِ نِهائِيًّا، وتُؤَجَّلُ التَّفاصيلُ إلى تاريخٍ آخَرَ.

---

١) الهَزيع: بَعْضٌ مِنَ اللَّيلِ.

وأَخَذَتْ تَتَأَمَّلُ في المِرآةِ، وتَنْظُرُ إلى خَلْقِها القَويمِ، وحُسْنِها الخالِصِ، ولَفْتَتِها المُدِلَّةِ، حتّى إذا ما رَضِيَتْ عن نَفْسِها، وقَنِعَتْ بقُوّةِ سِحْرِها، خَرَجَتْ مِن حُجْرَتِها تَميسُ دَلالًا، وتَخْطِرُ عُجْبًا، وتَتَهادى في خَفَرٍ مَقْرونٍ بغُنْجٍ. ودَلَفَتْ إلى الرَّدهةِ الفَسيحةِ الَّتي أُقيمَتْ فيها السَّهرةُ، وكانَتِ الموسيقى تَصْدَحُ بأَنْغامِها، فيَتَرَدَّدُ صَداها العَذْبُ في أَرجاءِ المَنْزِلِ الَّذي سادَ أَهْليهِ في ذٰلِكَ اليَوْمِ شُعورٌ بالتَّفاؤُلِ والبِشْرِ، مَبْعَثُهُ اليَقينُ مِنْ أَنَّ كاترينَ مُقْبِلةٌ على زَواجٍ، وأَنَّ الخِطْبَ[1] المَوْعودَ رَجُلٌ ذو بَسْطةٍ وجاهٍ.

وأَخَذَ طَرْفَها السّاجيَ وَجْهُ أَنّا كارنينا الجَميلُ، فأَذْهَلَها ما رَأَتْهُ مِن سِحْرِها. لقد بَدَتِ الغادَةُ في أَبْهى حُلّةٍ وأَبْدَعِ زينةٍ، حتّى إنَّها كادَتْ تَكْذِبُ عَيْنَيْها وهْيَ تَتَساءَلُ: أَهٰذِهِ حقًّا أَنّا كارنينا، أَمِ امْرَأَةٌ أُخرى سِواها؟»

لقد طَلَبَتْ إليها أَنْ تَتَلَفَّعَ بثَوبٍ بَنَفْسَجِيٍّ يَنِمُّ عَنِ الوَرْدِ، ولٰكِنَّها شُدِهَتْ ممّا رَأَتْهُ مِنِ انْسِجامِ اللَّوْنِ الأَسْوَدِ مَعَ المَرأَةِ الفاتِنةِ... وَيْ! أَبَعْدَ هٰذِهِ الرَّوعةِ رَوْعةٌ؟ أَهُناك في موسكو وبطرسبرج مَنْ يُضاهيها؟ كلّا... كلّا...

وأَدْرَكَتْ بُطْلَ رَأْيِها في أَنَّ الرِّداءَ هُوَ عِمادُ المَرْأَةِ ومُقَوِّمُ جَمالِها، فالمَرْأَةُ الجَميلةُ جَميلةٌ مَهْما لَبِسَتْ ومَهْما ارْتَدَتْ، ولن يَزيدَها اللِّباسُ الحَسَنُ إلَّا أَناقَةً... وها هِيَ ذي أَنّا تَبْدو في ثَوْبِها الأَسْوَدِ أَشَدَّ فِتْنَةً مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ أُخْرى اتَّخَذَتْ مِنَ الأَلْوانِ الزّاهِيَةِ عَوْنًا لَها على دَمامَةٍ أو نَقْصٍ أو سِحْنَةٍ شاحِبَةٍ ناحِلَةٍ دَميمَةٍ!

وما كانَ ثَوْبُ أَنّا في الحَقيقةِ إلَّا إطارًا أَسْوَدَ يُعانِقُ المِثالَ البَديعَ، فلا يُكْسِبُ المِثالَ، كما أَنَّ القَمَرَ لا يَكْسِبُ مِنَ الهالةِ!

كانَتْ أَنّا كارنينا ساعَتَذاكَ تَتَوَسَّطُ فَريقًا مِنَ المَدْعُوِّينَ والمَدْعُوّاتِ، وكانَتْ في أَناقَتِها المُبَسَّطَةِ أَرْوَعَ مِنْ كُلِّ امرَأَةٍ سِواها في أَناقَتِها المُعَقَّدةِ! كانَ ثَوْبُها الأَسْوَدُ البَسيطُ يَبُذُّ في اسْتِرْسالِهِ اللَّيِّنِ الهَيِّنِ اللَّطيفِ أَيَّ ثَوْبٍ آخَرَ يَتَعَرَّجُ، ويَتَماوَجُ، ويَرْتَفِعُ، ويَنْتَفِخُ، وتَعْلوهُ طَبَقاتٌ مِن قُماشٍ لامِعٍ ومُلَوَّنٍ ومُرَقَّشٍ.

ودَنَتْ كاترينُ مِنها، فتَناهى إليها حَديثٌ مُتبادَلٌ بينَها وبينَ مُعَلِّمِ الرَّقْصِ «كورسونسكي».

---

(١) الخِطْبُ: الخاطِبُ.

فوَقَفَتْ، ثُمَّ تَحَرَّكَتْ، فابْتَدَرَتْها أَنّا بابتِسامةٍ رَقيقةٍ وادِعةٍ، ثُمَّ صَعَّدَتْ في قامَتِها عَيْنًا فاحِصَةً، ولم تَلْبَثْ أَنْ هَزَّتْ رَأْسَها، وكأَنَّها تَقولُ: «أُهنِّئُكِ على ذَوْقِكِ وأَغْبِطُكِ...».

وفَهِمَتْ كاترينُ ما قَالَتْهُ عَيْنا أَنّا، فتَضَرَّجَ وَجْهُها وقالَتْ وهْيَ تَدْنو مِنْها: «لِيَهْنِكَ قَدُّكِ وانْسِجامُكِ، فأَنْتِ تَخْطِرينَ في المَكانِ وكأَنَّكِ تَرقُصينَ رِقْصةَ الفَنِّ الخالِدَةِ!»

وانْبَرى مُعَلِّمُ الرَّقْصِ يَقول مُتَحَمِّسًا: «وأَصْدُقُكِ يا سَيِّدَتي أَنَّها خَيرُ مَنْ تَعَلَّمَ الرَّقْصَ على يَدي! فهَلُمّي يا أَنّا، هَلُمِّي نَرْقُصْ، فالموسيقى تَعْزِفُ لنا أَعْذَبَ لَحْنٍ سَمِعَتْهُ أُذُنايَ!»

فقالَتْ أَنّا: «أَعْتَذِرُ إِليكَ، فالرَّقْصُ لا يَروقُ لي دائِمًا».

قالَ: «غيرَ أَنَّنا اللَّيلَةَ في حَفلةِ مَرَحٍ ورَقْصٍ ومُتْعةٍ، فكيفَ يُطاوِعُكِ قَلْبُكِ على التَّمَنُّعِ والاعْتِذارِ؟»

وبَدا فرونسكي قادِمًا نَحْوَها، فانْثَنَتْ إِلى مُعَلِّمِها بسُرعَةٍ وقالَتْ: «أَصَبْتَ... أَصَبْتَ... فهيّا نَرْقُصْ».

ودارَتْ مَعَ كورسونسكي خَفيفَةً بارِعَةً، وابْتَعَدَتْ عن فرونسكي الَّذي أَلْقى عليها التَّحِيَّةَ، فلم تَحْفِلْها ولم تَرُدَّ عليها، وكأَنَّها ما وَعَتْها!

* * *

لم يَفُتْ كاترينَ تَجاهُلُ أَنّا لِوُجودِ فرونسكي وانْصِرافُها عن تَحيَّتِهِ، وكأَنَّها تُعَنِّفُهُ لِشَيْءٍ أو تَتَهَرَّبُ منهُ لسَبَبٍ. وتَساءَلَتْ والدَّهَشُ مُستَوْلٍ عليها: «عَجَبًا لَها! لِمَ أَغْضَتْ عنهُ فلم تَرُدَّ تَحِيَّتَهُ بِمِثْلِها؟»

وقَطَعَ عليها حَبْلَ تَفكيرِها صَوْتُ فرونسكي وهْوَ يَصِفُ لَها أَسَفَهُ لَعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنَ الإِلمامِ بِبَيْتِها زائِرًا في الأَيَّامِ القَليلةِ الماضِيَةِ.

وأَصاخَتْ كاترينُ السَّمْعَ إِلى ما كانَ يَقولُ، ولٰكِنَّها لم تَنْقَطِعْ طيلةَ الوَقْتِ عن تَتَبُّعِ حَرَكَةِ أَنّا الماهِرةِ وهْيَ تَدورُ في حَلْبةِ الرَّقْصِ خَفيفَةً رَشيقَةً واثِقَةً.

وطالَ انْتِظارُها، وأَخَذَتْ تَتَمَلْمَلُ أَلَمًا وقُنُوطًا- فلِماذا لا يَدْعوها الشّابُّ إِلى الرَّقْصِ؟ أَلا يَعْرِفُ الرَّقْصَ أَم هُوَ راغِبٌ عنها نافِرٌ مِنْها؟

وبَيْنما هِيَ مُوغِلةٌ في فِكْرٍ حَزينٍ كَسيفٍ، فَطِنَ فرونسكي إِلى قُصورِهِ وإِهمالِهِ فسارَعَ يَقولُ

مُتَنَدِّمًا: «تَبًّا لي! كيفَ نَسِيتُ في غَمْرةِ الحَديثِ أَنْ أَطْلُبَ إِليكِ مُشارَكتي الرَّقْصَ؟»

ثُمَّ إِنَّهُ أَحاطَها بذِراعِهِ واخْتَلَطَ بالرَّاقِصينَ.

ورَنَتْ إِلَيْهِ كاترينُ بعَيْنَيْنِ مُتَلَهِّفَتَيْنِ تَشِيانِ بما يَعْتَمِلُ في صَدْرِها مِن آياتِ الحُبِّ.

وقد أَثْقَلَتْ عليها هٰذِهِ النَّظْرةُ في ما بَعْدُ، وكانَتْ كُلَّما تَذَكَّرَتْها، يَطْغى عليها شُعورٌ بالخَجَلِ والحَياءِ، لأَنَّها كانَتْ نِداءً هَتَفَتْ بهِ عَيْناها، فلم يَجِدْ لَهُ في صَدْرِ الفَتى وقَلْبِهِ صَدًى ولا جَوابًا.

أَجَلْ... ظَلَّتْ سِنينَ عَديدةً وهْيَ تَذوبُ خَجَلًا كُلَّما تَذَكَّرَتْ تِلْكَ النَّظرَةَ الَّتي لم تَتَجاوَبْ أَصْداؤها إِلَّا في قَلْبِها الفَتِيِّ النّابِضِ بالحُبِّ والحياةِ!

* * *

ورَقَصَتْ كاترينُ مِرارًا مَعَ فرونسكي، فنَقَعَتْ غَليلَها مِنْ قُرْبِهِ، ورَوَّتْ ظَمَأَها مِنْ حَديثِهِ، فقد تَناجيَا وتَبادَلا الكَلامَ. ولٰكِنَّهُ عِندما سَأَلها عن ليفينَ ارْتَبَكَتْ ولم تَعْرِفْ ماذا تَقُولُ. ونَظَرَ فرونسكي إِليها فرَأَى وَجْهَها الجَميلَ يَتَخَضَّبُ بلَوْنِ الاِضْطِرابِ... غيرَ أَنَّهُ كانَ اضْطِرابًا مِنْ نَوعٍ آخَرَ، كانَ اضْطِرابَ فَتاةٍ تَنْتَظِرُ مُفاجأَةً، وتَتَوَقَّعُ أَنْ يُفاتِحَها الحَبيبُ بحُبِّهِ، ويَبُثَّها لوَاعِجَ قَلْبِهِ.

بَيْدَ أَنَّ فرونسكي تَجَنَّبَ حَديثَ الحُبِّ والغَرامِ، فلم يَمُضَّها هٰذا التَّجاهُلُ، بل أَيْقَنَتْ أَنَّهُ لن يُبْطِئَ أَنْ يَقولَ لَها ما في قَلْبِهِ ساعةَ يَحينُ ميعادُ الرَّقْصَةِ الَّتي يَتَلَهَّفُ إِليها الجَميعُ، رَقصةِ المازوركا العَظيمةِ... إِنَّهُ، ولا شَكَّ، سَيَغْتَنِمُ فُرصةَ احتِضانِهِ لَها في تِلْكَ الرَّقْصَةِ لِيُطارِحَها غَرامَهُ، ويُفَاتِحَها بما يَطْمَعُ فيهِ، ثُمَّ يَطْلُبُ يَدَها... أَجَلْ يَطْلُبُ يَدَها.

وسَها عن بالِ فرونسكي أَنْ يُذَكِّرَها بأَنَّ رَقْصةَ المازوركا المُنْتَظَرةَ هِيَ لَهُ مِن دونِ سِواهُ، إِلَّا أَنَّها لم تَقْلَقْ، فهْيَ واثقةٌ كُلَّ الوُثوقِ مِن أَنَّهُ لن يُراقِصَ غيرَها متى أَزِفَتِ السَّاعةُ... وعلى ذٰلِكَ، فقد رَدَّتْ خَمْسةَ رِجالٍ طَلَبُوا إِلَيْها مُراقَصَتَهُمْ، بكَلِمةٍ واحدةٍ: «المَعْذِرةَ... لقد سَبَقَكُمْ غيرُكُمْ!»

كانَتِ الحَفلةُ بالنِّسبةِ إِلى كاترينَ رُؤْيا ساحِرةً مِنَ الأَلوانِ الزّاهِيَةِ والموسيقى الحالمةِ، والضَّوْضاءِ والحَرَكَةِ. ولم تَكُنْ لِتَجْلِسَ دَقيقةً واحدةً. ومَعَ أَنَّ التَّعَبَ أَخَذَ مِنْها مَأْخَذَهُ،

كانَتْ تَرْقُصُ وتَرْقُصُ.

واتَّفَقَ، بَيْنَما كانَتْ تُراقِصُ شابًّا مُمِلًّا، وتَدورُ مَعَهُ في الحَلْبَةِ، أَنِ اقْتَرَبَتْ مِنْ أَنّا، وكانَتِ الأَخيرةُ تُراقِصُ فرونسكي، فشَدَهَها ما رَأَتْ. ماذا رَأَتْ؟ رَأَتْ أَنّا مُضْطَرِمَةَ الخَدَّينِ، بَرّاقَةَ العَيْنَيْنِ. رَأَتْ فيها أَماراتِ الظَّفَرِ، وعَلاماتِ النَّصْرِ. رَأَتْ فيها ما أَكَّدَ لَها أَنَّ أَنّا ثَمِلَةٌ مُنْتَشِيَةٌ بخَمْرَةِ سَعادتِها، وكانَتْ كاترينُ تَخْبُرُ هٰذا الشُّعورَ العَجيبَ، شُعورَ النَّصْرِ، ورَأَتْ أَيضًا ذٰلِكَ الضَّوْءَ الخَفّاقَ الَّذي يَنْبَثِقُ مُتَأَجِّجًا مِن ناظِرَيْها، والاِبْتِسامةَ الَّتي تَنِمُّ عن حُبورٍ وانْفِعالٍ.

- «مَنْ؟...» تساءَلَتْ كاترينُ.

- «كلّا، لَيْسَ تَهافُتُ القَوْمِ عَلَيها، هُوَ الَّذي أَسْكَرَها وأَفْعَمَ قَلْبَها بَهْجَةً. كلّا، بَلْ إِنَّهُ حُبُّها لامرِئٍ واحِدٍ فحَسْبُ، لامْرِئٍ واحِدٍ. وهٰذا الواحِدُ... هل يُمْكِنُ ذٰلِكَ؟ هل يُمْكِنُ؟» مضَتْ تُناجي نَفْسَها وهْيَ مُنْشَغِلَةٌ عن رَفيقِها.

إِنَّهُ يُلازِمُها كَظِلِّها، وها هُوَ يُكَلِّمُها بصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ، بل لَعَلَّهُ يُناغيها... وها هِيَ تَبْتَسِمُ لَه كُلَّما هَمَسَ في أُذُنِها...

وتَراءَى لكاترينَ أَنَّ أَنّا تَبْذُلُ وُسْعَها لِكَي تُخْفيَ هٰذِهِ العَلاماتِ ولٰكِنَّ المَشاعِرَ كانَتْ أَقْوى مِنَ الإِرادةِ، فَطَفَرَتْ إِلى وَجْهِها.

ونَظَرَتْ إِلى فرونسكي... وفَكَّرَتْ: «وهْوَ؟...» وما رَأَتْهُ مُرْتَسِمًا في مِرآةِ وَجْهِ أَنّا، رَأَتْهُ مُنْعَكِسًا على قَسَماتِهِ وأَمائِرِهِ.

فماذا أَصابَهُ؟ ماذا أَصابَ شَخْصِيَّتَهُ، حتّى بَدا خاضِعًا مُتَطامِنًا؟ إِنَّه يَكادُ يَخِرُّ على الأَرْضِ ساجِدًا كُلَّما رَنا إِلى وَجْهِها... وإِنَّ عَيْنَيْهِ القَوِيَّتَيْنِ خَبَتْ وَقْدَتُهما، وغَدَتا تَنْظُرانِ إِلى أَنّا في استِجداءٍ وابتِهالٍ وخَوْفٍ!

كانا يَتَهامَسانِ وكأَنَّهُما يَتَناجَيانِ... وشَعَرَتْ كاترينُ والأَلَمُ يَحِزُّ في صَدْرِها أَنَّ كُلَّ كلِمةٍ يَقولانِها كانَتْ تُقَرِّرُ مَصيرَهُما ومَصيرَها هِيَ أَيضًا!

والغَريبُ في الأَمْرِ أَنَّهُما لم يَتَحَدَّثا إِلّا عَن أُمورٍ تافِهةٍ. بَيْدَ أَنَّ هٰذِه الأُمورَ الَّتي خاضا في حَديثِها كانَتْ تَجْذُبُهما جَذْبًا إِلى ذٰلِكَ الاتِّجاهِ الفِكْرِيِّ الَّذي أَوْغَلَتْ فيهِ كاترينُ، إِلى

الاِعْتِقادِ عن يَقينٍ بأَنَّ كُلَّ كَلِمةٍ مَهْما كانَتْ تافهةً ستُقَرِّرُ مَصيرَهُما... هٰذا ما كانَ يَشْعُرُ بهِ كُلٌّ مِنْهُما، وهٰذا ما تَمَخَّضَتْ عنهُ مَشاعِرُ كاترينَ.

وذابَ كُلُّ شَيْءٍ، الحَفْلَةُ، بلِ الدُّنْيا بأَسْرِها ذابَتْ في غَمامةٍ قاتمةٍ في أَعماقِ كاترينَ. ولٰكِنَّ الفتاةَ الأَبِيَّةَ احْتَفَظَتْ بجَلَدِها واضْطِبارِها بفَضْلِ نَشْأَتِها الصّارِمَةِ القَويمَةِ في بَيْتِ أَبَوَيْها، واسْتَطاعَتْ أَنْ تقومَ بالواجبِ المَفْروضِ عليها، مِنَ الرَّقْصِ، والرَّدِّ على الأَسْئِلَةِ، والاِبْتِسامِ، والدُّعابةِ!

ولٰكِنَّ نَوْعًا مِنَ الفَزَعِ أَلْهَبَ فُؤادَها قُبَيْلَ الشُّروعِ في رَقْصَةِ المازوركا... لقد رَدَّتْ خَمْسةَ شُبّانٍ، وها هِيَ تَقِفُ وَحيدَةً حائِرَةً. فهل تَلوذُ بفِراشِها؟ هل تَزْعُمُ أَنَّها مَريضةٌ؟ وأَخيرًا لَجَأَتْ إلى رُكْنٍ مُنْفَرِدٍ، فَتَهالَكَتْ على كُرْسِيٍّ هُناكَ وهْيَ تَلْهَثُ مِنَ النَّصَبِ والوَصَبِ[1]، وتَتَمَنّى لو تَخَرَّمَها الرَّدى[2] حتّى تَنْجُوَ مِنْ هٰذا العَذابِ!

فَيا لَقَلْبِها البِكْرِ! ويا لِإِحْساسِها المُرْهَفِ!

ويا لَلطَّعنةِ النَّجْلاءِ! يا لَلطَّعنةِ النَّجْلاءِ الَّتي سَدَّدها فارِسُ أَحْلامِها إلى مُهْجَتِها!

وخُيِّلَ إليها وهْيَ تَتَداعى مِنَ القُنوطِ أَنَّ مِطْرقةً هائلةً جَعَلَتْ تَرْتَفِعُ إلى أَعلى، لتَهْبِطَ بكُلِّ قُوّةٍ على فُؤادِها، وإِنَّها تُوشِكُ أَنْ تَتَحَطَّمَ وهْيَ لمّا تَزَلْ في عُنفوانِ العُمْرِ وغَضارةِ الصِّبا.

على أَنَّ للنَّفْسِ دَوْمًا مَنْفَذًا مِنَ اليَأْسِ، وقد ناجَتِ المُتَأَلِّمَةُ نَفْسَها، فعَلِقَتْ تَقولُ: «أَمُصيبةٌ أَنا في ظَنّي، أَمْ إِنَّ تَسَرُّعي صَوَّرَ لي الأُمورَ على غيرِ حَقيقتِها؟ قد أَكونُ مُخطِئةً، وقد يَكونُ بَيْنَهُما ما بينَ صَديقَيْنِ عادِيَّيْنِ مِنَ الأُمورِ التّافهةِ اليَسيرةِ».

ولٰكِنَّها راحَتْ بَعْدَ دَقائِقَ تَسْتَعْرِضُ في مُخَيِّلَتِها ما وَقَعَ عليهِ طَرْفُها، فأَيْقَنَتْ والغُصَّةُ تُرمِضُها[3] أَنَّ عَلاقَةَ فرونسكي بأَنّا هِيَ أَكْثَرُ مِنْ مُجَرَّدِ صَداقةٍ بَريئةٍ، بل إِنَّها عَلاقةٌ تَطَوَّرَتْ بسُرعةِ البَرْقِ، فأَضْحَتْ عاطِفَةً مُتَبادَلةً تَجيشُ بأَمَلٍ، وتَعْتَمِلُ برَجاءٍ، وتَتَمَخَّضُ عن أَشْياءَ وأَشْياءَ!

---

(١) النَّصَبُ والوَصَبُ: التَّعَبُ والوَجَعُ.

(٢) تَخَرَّمَها الرَّدى: اسْتَأْصَلَها المَوْتُ وأَهْلَكَها.

(٣) تُرْمِضُها: تُحْرِقُها، توجِعُها.

وبينا هِيَ في هٰذِهِ النَّجوى الكَئيبةِ إِذْ طَرَقَ سَمْعَها صَوْتُ امْرَأَةٍ يُخاطِبُها وَيقولُ: «عَجَبًا يا كاترينُ! أَتَنْفَرِدينَ والكُلُّ في فَرْحةِ الرَّقْصةِ الكُبْرى؟»

وانْثَنَتْ كاترينُ برَأْسِها المُثْقَلِ، فأَبْصَرَتْ تِلْقاءَها الكونتس نوردسون، ورَأَتْها تَرْنو إِليها مُتَفَكِّرةً.

وتَحامَلَتْ على نَفْسِها فنَظَرَتْ صامِتةً مُسْتَطْلِعةً، وبادَرَتْها المَرْأَةُ تَقولُ: «تُرى ما الَّذي عاقَكِ عَنِ الرَّقْصِ؟ وهل تَكْرَهينَ هٰذِهِ الرَّقْصَةَ بالذَّاتِ؟»

فشَهَقَتِ الفتاةُ، وأَجابَتْ بصَوْتٍ تَخْنُقُهُ العَبَراتُ: «أَجَلْ، أَجَلْ، إِنّي لا أُحِبُّها!»

قالَتْ: «أَمّا هُوَ- فرونسكي- فإِنّي سَمِعْتُهُ بأُذُني يُلْحِفُ عليها أَنْ تُخَصِّصَها لَهُ... وقد تَمَنَّعْتُ أَنّا وطَلَبْتُ إِليهِ أَنْ يُراقِصَكِ، إِلَّا أَنَّهُ اسْتَهَجَنَ عِنادَها وما زالَ بها حتّى أَقْنَعَها!»

فأَطْرَقَتْ كاترينُ، ونَكَسَتْ عَينَيها وقالَتْ بصَوْتٍ خافِتٍ: «لا أَحْفِلُهُ، فلْيَرْقُصْ مَعَ مَنْ يَشاءُ!»

لقد أَخْبَرَتْها المَرأَةُ المِهْذارَةُ بحَقيقةِ ما جَرى، فرَأَتْ أَنْ تَتمالَكَ صَوابَها فلا تُرْخي العِنانَ لأَلَمِها، لئَلّا تُشْهِرَ نَفْسَها وتَجْعَلَ للنّاسِ في شَخْصِها مَغْمَزًا ومَلْمَزًا.

ولَزِمَتِ الصَّمْتَ، فلم تَرُدَّ على المَرأَةِ بكَلامٍ آخَرَ، وجَعَلَتْ تُفَكِّرُ في رَجُلٍ ثانٍ، في رَجُلٍ رَدَّتْهُ مُنْذُ أَيّامٍ خائِبًا يُجَرِّرُ وراءَهُ أَذْيالَ الفَشَلِ. ومَنْ يَعْلَمُ؟ لقد كانَتْ مَيّالةً إِلى هٰذا الرَّجُلِ... كانَتْ تَميلُ إِلى ليفينَ، بَيْدَ أَنَّ فرونسكي الجَذّابَ الأَنيقَ المُهَنْدَمَ بَرَزَ إِلى المَيْدانِ فحَجَبَ عنها الرُّؤْيةَ، وجَعَلَها تُضيِّعُ الفُرْصَةَ!

لقد خَفَرَ العَهْدَ مِن دونِ أَنْ يَنْطِقَ... وهل مِنَ الضَّروريِّ أَنْ يَعْمَدَ الإِنْسانُ إِلى الكَلامِ يَنْطِقُ بِهِ لِسانُهُ متى وَشَتْ برَغْبتِهِ عَيْناهُ ونَظْرتُهُ؟ لقد صارَحَها فرونسكي برَغْبتِهِ، وها هُوَذا يَحيدُ عنها بَعْدَ اجْتِماعِهِ بأَنّا!

وقالَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَها: «إِنَّ الَّذي قَوْلُهُ واحِدٌ لا يَخْتَلِفُ هُوَ اللهُ، ولْيَجْرِ ما هُوَ مُقَدَّرٌ، ولْيَكُنْ ما يَكونُ...».

ودَنا مِنْهُما كورسونسكي في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وكانَ على مَوْعِدٍ مَعَ الكونتس نوردسون لِلرَّقْصِ. بَيْدَ أَنَّ المَرْأَةَ اعْتَذَرَتْ إِليهِ عن ذٰلِكَ، فما كانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ تَحَوَّلَ إِلى كاترينَ ورَجاها

أَنْ تُرافِقَهُ إِلى حَلْبةِ الرَّقْصِ.

وسُرَّتْ كاترينُ، فقد رَأَتْ في ذٰلِكَ خَلاصًا لها مِن مَأْزِقٍ حَرِجٍ أَوْقَعَها فيهِ فرونسكي، ومِن فِكْرِها المُعَذَّبِ، ومِنَ المَرأَةِ المُتَطَفِّلَةِ الَّتي يَسْتَأْثِرُ بلُبِّها الفُضولُ.

ورَقَصَتْ كاترينُ كأَنَّها تِمثالٌ أو كأَنَّها آلَةٌ؛ ولٰكِنَّها لم تَكُنْ مُضْطَرَّةً إِلى الكَلامِ- وهٰذا مِنْ حُسْنِ حَظِّها- فرَفيقُها كانَ في شُغلٍ عَنِ الكَلامِ بقيادةِ دَفَّةِ الرَّقْصِ...

وكانَتْ تَرْقُصُ عَنْ كَثَبٍ مِنْ أَنّا وفرونسكي، وكانَ الاثْنانِ يَجْلِسانِ في مَكانٍ واحِدٍ كُلَّما انْتَهى دَوْرُهُما، وكانَتْ تَراهُما يَنْهَضانِ لِيَسْتَأْنِفا الرَّقْصَ كُلَّما حانَتِ الدَّقيقةُ الَّتي يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِما أَنْ يَتَقَدَّمَا فيها.

وكانَتْ كُلُّ لَحْظَةٍ تَمُرُّ عليها تَزيدُها يَقينًا مِنْ إِثْمِ الِاثْنَيْنِ... وكانَتْ هٰذِهِ اللَّحَظاتُ كأَنَّها السّاعاتُ الطّويلةُ المُضْنِيةُ!

كانا يَسْبَحانِ في أُفُقٍ خاصٍّ بِهما. كانا يَميسانِ وكأَنَّهُما يُحلِّقانِ في فضاءِ سَعادتِهِما، وكانا، كما رَأَتْ كاترينُ، يَظُنّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَنَّهُما وَحيدانِ، فلا هُما يَشْعُرانِ بالنّاسِ مِنْ حَوْلِهِما. ولا هُما يُحِسّانِ بالأَعْيُنِ تَحْدِجُهُما وتَنْتَهِبُهُما.

ناهيكَ بنَظْرَةِ فرونسكي. فأَيْنَ شِدَّتُها؟ وأَيْنَ عَزْمُها؟ وأَيْنَ قُوَّتُها؟ لقد تَلاشَتِ الشِّدَّةُ والعَزْمُ والقُوّةُ، وحَلَّ مَحَلَّها جَميعًا نِظْرةُ حَيْرةٍ واضْطِرابٍ، بل نِظْرةُ خُضوعٍ وتَسْليمٍ. كانَتْ نَظْرتُهُ أَشْبَهَ بنِظْرَةِ كَلْبٍ ذَكيٍّ ارْتَكَبَ هَفوةً!

وابْتَسَمَتْ أَنّا، فانْعَكَسَتِ ابْتِسامتُها على مُحَيَّاهُ بِشْرًا ونورًا. وبَدا عليها الفِكْرُ، فقَطَّبَ حاجِبَيْهِ وكأَنَّهُ يَنْسابُ مَعَها في مَجْرى الفِكْرِ!

وخُيِّلَ لكاترينَ أَنَّ قُوَّةً قاهِرَةً تَجْذِبُ عَينَيْها إِلى وَجْهِ أَنّا... فاسْتَحْوَذَتْ عَليها رِعْشَةٌ عَظيمةٌ لِما رَأَتْ. وما رَأَتْ كانَ ثَوْبًا بَسيطًا، إِلّا أَنَّهُ أَضْفى على صاحبتِهِ مِنَ الفِتْنةِ والسِّحْرِ ما يُذْهِلُ كُلَّ ناظِرٍ ومُتَأَمِّلٍ... كانَتْ أَنّا فاتِنةً في ثَوْبِها البَسيطِ الرّائِعِ؛ كانَتْ فاتِنَةً بذِراعَيْها المُسْتَديرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يُزَيِّنُهُما سِوارانِ بَرّاقانِ؛ كانَتْ فاتِنَةً بجيدِها الرَّخْصِ الَّذي يُحَلِّيهِ عِقْدٌ مِنَ اللُّؤْلُؤِ؛ كانَتْ فاتنةً بضَفيرَتِها المَتْروكَةِ على سَجِيَّتِها؛ كانَتْ فاتِنةً بلَفْتَتِها، وحَرَكتِها، ونَظْرتِها، وبَسْمتِها، وكانَتْ فاتِنةً بقَدَمَيها الصَّغيرتَينِ، ويَدَيها ووَجْهِها!

إلّا أنَّ في رَوْعَتِها تِلْكَ كَمَنَ شَيْءٌ رَهيبٌ، شَيْءٌ يَمْتازُ بالقَسْوةِ المُخيفةِ...

إنَّها الفِتْنةُ القاسِيَةُ.

إنَّها الرَّوعةُ الباطِشَةُ.

إنَّها الجَمالُ العاصِفُ الَّذي لا يُبْقي ولا يَذَرُ!

وتَضاعَفَ إعْجَابُ كاترينَ بها، وبالقَدْرِ الَّذي زادَ فيهِ إعجابُها نَما أَلَمُها ووَصَبُها.

ولمّا تَبادَلَ الرّاقِصونَ والرّاقِصاتُ المَواقِعَ، ودَنا منها فرونسكي، كانَتْ كاترينُ امْرَأَةً غَيرَها، كانَتْ تَخْتَلِفُ في كُلِّ شَيْءٍ، حتّى في هَيْئَتِها ومَنْظَرِها... ولكي يَقولَ هُوَ شَيْئًا فلا يَبْدو بمَظْهَرِ الشُّذوذِ، قالَ لها ولُبُّهُ شارِدٌ وقَلْبُهُ مُوَزَّعٌ: «إنَّها حَفْلَةٌ رائعةٌ، لم أُشاهِدْ لَها مَثيلًا!»

وأَجابَتْ هِيَ: «أَصَبْتَ!»

ولمّا لَبَّتْ نِداءَ أَنّا مَعَ امْرَأَةٍ أُخْرى، ودَنَتْ منها في وَسَطِ الحَلْقةِ، وهْيَ لا تُخْفي امتعِاضَها، رَنَتْ إليها أَنّا مُتَأَمِّلةً، وابْتَسَمَتْ وهْيَ تُطْرِقُ برَأْسِها وتَضْغَطُ على يَدِها.

إلّا أَنَّها ما كادَتْ تَلْمَحُ نَظْرةَ اليَأْسِ الَّتي أَجابَتْ كاترينُ بها على ابْتِسامتِها حتّى أَشاحَتْ عَنها، وشَرَعَتْ تَتَبادَلُ الحَديثَ مَعَ المَرْأَةِ الأُخْرى وهْيَ تَضْحَكُ ضِحْكًا مُتَواصِلًا.

وقالَتْ كاترينُ تُحدِّثُ نَفْسَها: «أَجَلْ إنَّ فيها شَيْئًا مُريبًا، إنَّ فيها شَيْطانًا مَريدًا، ولٰكِنَّهُ شيطانٌ فاتِنٌ قاهِرٌ!»

وانْتَهى الرَّقْصُ، فذَهَبَ بَعْضٌ وبَقِيَ بَعْضٌ آخَرُ، وتَفَرَّقَ مَنْ بَقِيَ في أَنْحاءِ القاعةِ.

ووَقَفَتْ أَنّا كارنينا مَعَ رَبِّ البَيْتِ، وأَخَذَتْ تُعْرِبُ لَهُ عن رَغْبتِها في الذَّهابِ، إلّا أَنَّهُ أَلَحَّ عليها أَنْ تَمْكُثَ فتُشارِكَهُمْ في تَناوُلِ طَعامِ العَشاءِ.

ولٰكِنَّها أَصَرَّتْ على الذَّهابِ، وقالَتْ وهْيَ تَبْتَسِمُ بلُطْفٍ: «لا مَنْدوحةَ لي مِن مُفارَقتِكُمْ، فأنا مُتْعَبَةٌ وفي حاجَةٍ إلى النَّوْمِ».

ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ تَقولُ: «عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ لأَنّي رَقَصْتُ اللَّيْلَةَ أَكْثَرَ ممّا رَقَصْتُ في سَنةٍ كامِلَةٍ!»

والْتَفَتَتْ إلى فرونسكي الواقِفِ قَريبًا منها، وعَقَّبَتْ بَعْدَ هُنَيْهةٍ: «يَخْلُقُ بي أَنْ أَهْجَعَ

وأَسْتَريحَ قَبْلَ رُكوبِ مَتْنِ السَّفَرِ بَعْدَ ساعاتٍ».

فارْتَعَشَ فرونسكي وانْبَرى يَقولُ مُنْفَعِلًا: «وهل أَنْتِ مُزمِعَةٌ على مُبارحةِ موسكو غَدًا؟»

قالَتْ: «هٰذا ما أنويهِ».

وحَدَجَتْهُ بنَظْرَةٍ تَنِمُّ عن تَعَجُّبِها مِنْ جُرْأَتِهِ في طَرْحِ الأَسْئِلَةِ.

وكأَنَّ تأَلُّقَ عَيْنَيْها والشَّرَرَ الَّذي انْبَعَثَ مِنْهُما، وكأَنَّ بَسْمَتَها الَّتي ارْتَسَمَتْ على شَفَتَيْها، وهٰذِهِ النَّارَ الَّتي انْدَلَعَتْ مِنْ عَيْنَيْها، وهٰذِهِ الابْتِسامةَ الَّتي افْتَرَّ عنها ثَغْرُها، أَضْرَمَتْ كُلُّها النَّارَ في داخِلِه. وقد أَحَسَّ بهٰذِهِ النَّارِ تَتَلَظَّى في قَرارتِهِ حينَ نَبَسَتْ بكَلِماتِها القَليلَةِ ذاتِ المَعاني الكَثيرَةِ!

ولم تَمْكُثْ أَنّا بلِ اسْتَأْذَنَتْ ومَضَتْ في سَبيلِها، إِلى بَيْتِ شَقيقِها.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - تخلَّلَ السَّردَ في مطلعِ هذا الفصلِ أُسلوبُ النَّجوى الداخليّة. أَشِرْ إلى ذلك، وقُلْ ما الدَّورُ الَّذي أَدَّتْهُ النَّجوى هذه؟

٣ - حاوَلَتْ أَنّا أن تُصلِحَ ما انصدَعَ بين أَخيها ستيفان وزوجتِهِ، فبمَ توسّلَتْ إلى ذلك؟

٤ - كيفَ كان تقويمُها لخيانَةِ أَخيها زوجتَهُ داريا؟

٥ - هل استطاعَتْ أَنّا كارنينا أن تُوَفَّقَ في إنهاءِ الأَزمةِ العائليّةِ؟ ولصالحِ مَنْ كانَ حلُّ هذه العقدةِ؟

٦ - ما الفكرةُ الَّتي كوَّنْتَها في هذا الفصلِ عن أَنّا كارنينا؟

٧ - لَمَحَّ الكاتِبُ إلى أحداثٍ غامضةٍ ستقعُ لاحقًا في حياةِ أَنّا كارنينا، استخرِجْ من هذا الفصلِ إشاراتِهِ إلى ذلكَ ممّا لوحِظَ قبلَ السَّهرةِ الرّاقِصَةِ.

٨ - حاوِل أن ترى في كلِّ إشارةٍ من تلكَ الإشاراتِ مَدلولها.

٩ - بدأَتْ تظهرُ في هذا الفصلِ جَفْوَةٌ بين أَنّا وكاترين. حَدِّدْ مَواطِنَها وأَسبابَها.

١٠ - ما الحالُ النَّفسيّةُ الَّتي انتهَتْ إليها كاترين في ختامِ هذا الفصلِ؟

١١ - تفاعَلَتْ في هذا الفصل نماذجُ مُختَلِفَةٌ من الشَّخصيّاتِ البَشَريَّةِ، حَدِّدِ النّموذجَ الَّذي تُمثِّلُهُ كلٌّ من هذه الشَّخصيّاتِ.

١٢ - أَوْجِزْ مضمونَ الفَصْلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الحادي عشر

غادَرَ ليفينُ موسكو بَعْدَ فَشَلِهِ في تِلْكَ اللَّيلةِ، وتَيَقُّنِهِ أَنَّ كاترينَ تَيَّمَها حُبُّ الشّابِّ فرونسكي. وآلى على نَفسِهِ عَقِبَ وُصولِهِ إِلى قَريتِهِ أَنْ يَقْنَعَ بالَّذي هُوَ فيهِ، فلا يَتَشَوَّفَ بِبَصَرِهِ إِلى سَعادةٍ وارِفَةِ الظِّلالِ في بَيْتٍ يَضُمُّ زَوْجةً وأَوْلادًا. آلى على نفسِهِ أَنْ يَنْغَمِسَ كَرّةً أُخْرى في الأَعْمالِ، وأَنْ يَصِلَ اللَّيلَ بالنَّهارِ جادًّا كادًّا في دَأَبٍ لا يَفْتُرُ.

وأَنّا كارنينا امْرَأَةُ الفِتْنَةِ والجَمالِ ما لَبِثَتْ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي للحَفْلةِ السّاهرةِ أَنْ أَبْرَقَتْ إِلى زَوْجِها في بطرسبرج تُنبِئُهُ بقُدومِها.

وكانَ القِطارُ المُسافِرُ إِلى بطرسبرج يُغادِرُ مَحَطّةَ موسكو في السّابعةِ مِن مَساءِ كُلِّ يَومٍ، وقد قَضَتْ أَنّا النَّهارَ بطولِهِ في بَيْتِ أَخيها، ثُمَّ تَناوَلَتِ الطَّعامَ مَعَ زَوْجِهِ.

بَيْدَ أَنَّ الزَّوجةَ والأَوْلادَ رَأَوا فيها اليَوْمَ ما لم يَرَوْهُ مِن قَبْلُ. وقد عَجِبَتْ داريا لِما شابَ حَرَكَتَها وهَيْئَتَها مِنْ تَبَدُّلٍ، ولٰكِنَّها نَسَبَتْ هٰذِهِ الظّاهِرَةَ إِلى انْشِغالِ بالِها في التَّأَهُّبِ لِلسَّفَرِ، وإِلى انْفِعالِها لوَشْكِ مُفارَقَةِ أَخيها وأَوْلادِهِ الَّذينَ كَلِفَتْ بِهِمْ كَلَفًا شَديدًا، كما خُيِّلَ إِليها.

وأَخيرًا عِندَما تَمَلْمَلَتِ القاطِرةُ، ونَفَخَتْ ما في جَوفِها مِن نارٍ وبُخارٍ، وَدَّعَتْ أَنّا أَخاها وتَهالَكَتْ على المَقْعَدِ الوَثيرِ وهِيَ تُتَمْتِمُ قائلةً: «إِنْتَهى كُلُّ شَيْءٍ، والحَمْدُ للهِ على نَعْمائِهِ».

ودَنَتْ مِنَ النّافذةِ، وجَعَلَتْ تُلَوِّحُ لشَقيقِها مُوَدِّعَةً، ثُمَّ عادَتْ تُخاطِبُ نَفْسَها وتَقولُ: «أَلْفَ شُكْرٍ للهِ، سأَرى غَدًا «سيرج» و«أَليكسيس كارنين» وسَتَعودُ حَياتي إِلى مَجْراها الطَّبيعيّ، فتُوْضَعُ الأُمورُ في نِصابِها، ويَسْتَريحُ الضَّميرُ، وتَقَرُّ العَيْنُ».

وما لَبِثَتْ أَنْ فَتَحَتْ حَقيبةَ السَّفَرِ الحَمْراءَ، وتَناوَلَتْ مِن داخِلِها وِسادةً ناعِمةً صَغيرةً وَضَعَتْها على رُكْبَتَيْها، وغِطاءً دَثَّرَتْ بِهِ قَدَمَيْها.

وإِلى جانِبِها كانتَ امْرَأَةٌ كَسيحَةٌ تَغِطُّ في نَوْمِها، بينَما أَخَذَتِ امْرَأَتانِ أُخْرَيانِ تَتَجاذَبانِ

أَطْرافَ الحَديثِ.

وما لَبِثَتِ المَرْأَتانِ المُتَقَدِّمَتانِ في السِّنِّ أَنْ وَجَّهَتا الحَديثَ إِلى أَنّا، وشَرَعَتا تُبْدِيانِ مُلاحَظاتِهما عن نِظامِ التَّدْفِئَةِ في القِطارِ... وقد أَجابَتْهُما أَنّا باقتِضابٍ.

ولمّا أَيْقَنَتْ أَنَّ حَديثَهما لا يُثيرُ انتِباهَها بل يُسَبِّبُ ضَجَرَها، أَخْرَجَتْ مِنْ حَقيبَتِها كِتابًا إِنْكليزيًّا ومِقْطَعًا للوَرَقِ، ثُمَّ طَلَبَتْ مِنْ خادِمَتِها أَنْ تُنيرَ المِصْباحَ وتُعَلِّقَهُ وراءَ ظَهْرِها.

ولم تَسْتَطِعْ في أَوَّلِ الأَمْرِ أَنْ تَسْتَرْسِلَ في القِراءَةِ. فقد كانَتِ الضَّجَّةُ واللَّغَطُ شَديدَينِ لِدَرَجةٍ تَعَذَّرَ مَعَها على أَنّا أَنْ تُرَكِّزَ أَفكارَها في المَعاني.

وانْسابَ القِطارُ في سَيْرِهِ السَّريعِ، فاسْتَحْوَذَ على انْتِباهِها نَدْفُ الثَّلْجِ المُتَلاطِمِ بزُجاجِ النّافذةِ، ثُمَّ اسْتَرعى نَظَرَها الحَرَسُ بِزِيِّهِمِ العَسْكَرِيِّةِ... وأَنْصَتَتْ أَخيرًا لما كانَ يُقالُ عَنِ العاصفةِ الثَّلْجيّةِ الهَوْجاءِ الّتي كانَتْ تَزْأَرُ غَضْبى في الخارجِ.

ومَضى الوَقْتُ وأَنّا لا تَقْرَأُ، والأَسْبابُ الَّتي تُبْعِدُ بَينَها وبَيْنَ الكِتابِ واحدةٌ لا تَتَبَدَّلُ.

وعَزَمَتْ في النِّهايةِ على ما عَجِزَتْ عنهُ طَويلًا، فأَقْبَلَتْ على الكِتابِ تَتَصَفَّحُهُ، ففَهِمَتْ كَلامَهُ ولٰكِنَّها كانَتْ تُطالِعُ كارِهةً، وتُحاوِلُ أَنْ تَفْهَمَ كارِهةً أَيْضًا! ولم تَجِدْ ما يُحَبِّبُ إِلَيها تَتَبُّعَ انعِكاساتِ حَياةِ غيرِها على الوَرَقِ بينما تَجيشُ الرَّغبةُ في صَدْرِها إِلى الحياةِ، إِلى الحياةِ الكاملةِ المُفْعمةِ بمَعاني الحياةِ ومَباهِجها!

فهْيَ حينما قَرَأَتْ أَنَّ بَطَلَةَ القِصّةِ كانَتْ تُمَرِّضُ رَجُلًا سَقيمًا، وَدَّتْ لو كانَتْ تَتَحَرَّكُ بُهدوءٍ في غُرفةِ رَجُلٍ بَرَّحَتْ بِهِ العِلَّةُ. وهْيَ حينما قَرَأَتْ عن عُضْوٍ في البَرْلمانِ يُلقي خُطْبَةً مُسْتَفيضةً، هَفَتْ نَفْسُها إِلى الِاقْتِداءِ بِهِ في إِلْقاءِ الخُطْبَةِ. وهْيَ حينما قَرَأَتْ عن غادةٍ أَذْهَلَتِ النّاسَ بجُرْأَتِها، خُيِّلَ إِلَيها أَنَّها هِيَ نَفْسَها تِلْكَ الحَسناءُ الجَسورةُ...

ولٰكِنَّها لا تَفْعَلُ شَيْئًا، ولن تَسْنَحَ لها فُرصةٌ للقِيامِ بأَيِّ عَمَلٍ.

ووَضَعَتِ المِقْطَعَ الصَّغيرَ جانبًا وقَسَرَتْ نَفْسَها ثانيةً على تَتَبُّعِ الكَلِمِ.

على أَنَّها لم تَفْهَمِ المَعنى، ولا فَهِمَتِ المَبْنى، ورَأَتْ نَفْسَها مَسوقةً إِلى التَّفكيرِ بموسكو، وبالحَفْلةِ الباهِرةِ، وبفرونسكي.

وشاهَدَتِ الشّابَّ الوَسيمَ، وأَبْصَرَتْ عَينَيْهِ... ولَمَحَتْ في تَينِكَ العَيْنَيْنِ المَنْهومَتَيْنِ دَعْوَةً

وتَوَسُّلًا واستِعْطافًا!

وأَطْرَقَتْ والعَرَقُ الباردُ يَتَفَصَّدُ بهِ جَبينُها. وعَجِبَتْ وتَوَلّاها الذُّهولُ. أَتَخْجَلُ؟ ولِمَ تَخْجَلُ؟ ومِمَّ تَخْجَلُ؟ هل أَتَتْ نُكْرًا؟ هل تَعَثَّرَتْ بها القَدَمُ؟

كلّا، كلّا... ومَعَ ذٰلِكَ، فما فَتِئَتْ، على الرَّغْمِ مِن أَنْفِها، تَشْعُرُ بأَنَّها أَتَتْ أَمْرًا إِدًّا[1] يَسْتَوجِبُ الخَجَلَ، ويَقْتَضي الشُّعورَ بالِاضْطِرابِ والبَلْبَلةِ.

وأَلَحَّ عَلَيْها هٰذا الشُّعُورُ حتّى فَقَدَتْ مَعَهُ كُلَّ صَبْرٍ التَمَسَتْهُ مِنَ الإرادةِ، وأَنْشَأَتْ أَخيرًا تُحاوِرُ نَفْسَها حتّى تُقْنِعَها: «ماذا دَهاني؟ وهَل أنا صَريعةُ الوَهْمِ؟ ولِمَ أَخْشى الواقِعَ؟ هَل أَخافُ مِنْهُ؟ وما مَعْنى الشُّعورِ بتَأْنيبِ الضَّميرِ؟ هَل زَلَلْتُ حتّى أَتَعَرَّضَ لما يَشُقُّ عليَّ؟ ثُمَّ، أَجَرى بَيْني وبَيْنَهُ أَمْرٌ ما؟ وهَل يُمْكِنُ أَنْ يَجريَ؟ كلّا... كلّا...».

وأَضاءَتْ فَمَها بَسْمةُ اسْتِخْفافٍ، وهَزَّتْ رَأْسَها كأَنَّها تَنْفُضُ مِن ذِهْنِها ما أَلَحَّ عَلَيها. وعادَتْ إلى كِتابِها تُقَلِّبُ صَفَحاتِهِ، وتُحاوِلُ عَبَثًا أَنْ تَقْرَأَ كَلِماتِهِ.

وأَحَسَّتْ فَجْأَةً أَنَّهُ يَجِبُ عَليهِ، هُوَ الآخَرُ، أَنْ يَخْجَلَ مِنْ نِفْسِهِ.

لٰكِنَّها عادَتْ تَتَساءَلُ عَنِ السَّبَبِ، وهل فَعَلَ ما يُوجِبُ الخَجَلَ؟ وهلِ اقْتَرَفَ ذَنْبًا، أو أَتى مُنْكَرًا؟

وَهَزَّتْ رَأْسَها بانْفِعالٍ وغَضَبٍ وأَلْقَتِ الكِتابَ مِنْ يَدِها...

وتَوَقَّفَ القِطارُ فنَهَضَتْ أَنّا وأَشارَتْ إلى خادِمتِها أَنْ تُناوِلَها قُبَّعَتَها ومِعْطَفَها، وهَمَّتْ بالبابِ ففَتَحَتْهُ وهْيَ تَقولُ: «أُريدُ أَنْ أَسْتَنْشِقَ الهَواءَ الطَّلْقَ، فالهَواءُ كَريهٌ في الدّاخِلِ، وهْوَ مُشْبَعٌ بالرّوائِحِ».

وهَبَّ الهَواءُ البارِدُ مِنَ الخارِجِ فنَفَحَ وَجْهَها، واسْتَقْبَلَها نَدْفُ الثَّلْجِ فانْتَثَرَ على قُبَّعتِها ومِعْطَفِها... وتَعارَكَتْ قليلًا مَعَ العاصِفَةِ وهْيَ تَخْرُجُ، وسَرَّتْها المَعْرَكةُ، فانْدَفَعَتْ غيرَ آبِهةٍ لِبَردٍ أو مُكْتِرِثَةٍ بريحٍ.

وصَفَرَتِ الرِّيحُ كأَنَّها تُنْذِرُها بغَضَبِها، لٰكِنَّها لم تَعْبَأْ بها، بل طَفِقَتْ تَمْشي على

---

[1] إِدًّا: فظيعًا.

الإفريزِ[1]، وتَسْتَنْشِقُ الهَواءَ البارِدَ مِلْءَ رِئَتَيها.

وكانَ الرِّجالُ يُهَرْوِلونَ في حَرَكةٍ سَريعةٍ دائِبَةٍ، وهُمْ يَتَبادَلونَ الحَديثَ ويَضْحَكُونَ. ورَجَعَتْ بعَدْ دَقائِقَ إلى المَرْكبةِ فوَضَعَتْ قَدَمَها على دَرَجَتِها وهَمَّتْ بالصُّعودِ، لٰكِنَّ رَجُلًا يَرْتَدي مِعْطفًا عَسْكَرِيًّا مَرَّ في تِلْكَ الفَيْنةِ تَحْتَ مِصْباحِ الإفْريزِ، فرَمَتْهُ بنَظْرَةٍ مُتَفَرِّسةٍ، وأَيْقَنَتْ والدَّهشةُ تَعْقِلُ لِسانَها أَنَّهُ فرونسكي.

ومالَ الفَتى نَحوَها رافعًا بيَدِهِ قُبَّعَتَهُ عن رَأْسِهِ، وقالَ وهْوَ يَنْحَني: «هل هُناكَ ما أَسْتَطيعُ أَداءَهُ لَكِ يا سَيِّدَتي؟»

فرَنَتْ إليهِ طَويلًا؛ وخُيِّلَ إليها، على الرَّغْمِ مِنَ الظُّلْمَةِ المُحيقَةِ بها، أَنَّها تَتَبَيَّنُ جَيِّدًا نَظْرَةَ عَينَيْهِ، وتَعْبيرَ وَجْهِهِ. وكانَتْ تِلكَ النَّظْرَةُ تَتَحَدَّثُ مِنْ تِلقاءِ نَفْسِها عن حُبِّهِ وهُيامِهِ، بل عن تَقْديسِهِ لها! وكانَتْ قَسَماتُهُ وأَمائِرُهُ تَشي كُلُّها بخُضوعِهِ التّامِّ وتَسْليمِهِ المُطْلَقِ!

ما أَكْثَرَ المَرّاتِ الَّتي أَكَّدَتْ فيها لنَفْسِها أَنَّ ما بَيْنَها وبَيْنَ فرونسكي لا يَتَعَدَّى ما بَيْنَها وبَيْنَ سائِرِ الرِّجالِ الَّذين تَعْرِفُ، وأَنَّها لن تَسْمَحَ لنَفْسِها أبدًا أَنْ تَشْغَلَ رَأْسَها بالتَّفكيرِ فيهِ... إلَّا أَنَّها ما كادَتْ تَلْمَحُهُ الآنَ حتّى دَهَمَها شُعورٌ عارِمٌ بالمَسَرَّةِ والغِبْطَةِ. ولم تَكُنْ في حاجةٍ لتَتَساءَلَ عن سَبَبِ مَجيئِهِ، فهْيَ واثقةٌ مِن أَنَّهُ شَعَرَ بوجوبِ الذَّهابِ إلى حَيْثُ تَذْهَبُ هِيَ.

وما عَتَّمَتْ أَنْ قالَتْ وهْيَ تُقَطِّبُ: «لم أَعْلَمْ أَنَّكَ مُسافِرٌ كذٰلِكَ، فلِمَ جِئْتَ؟ وماذا جَعَلَكَ تُغادِرُ موسكو؟»

وبَرَقَتِ السّعادةُ في عَينَيها كوَمْضةٍ مِنْ نارٍ، وشَعَّ وَجْهُها حتّى لكأَنَّ هالةً مِنْ هَناءٍ تَتَكَوَّنُ حَولَهُ.

وأَجابَ الفَتى بجَأْشٍ رابِطٍ: «تَسْأَلينَني عَنِ السَّبَبِ؟ أَما تَعْلَمينَ أَنّي جِئْتُ لِكَي أُلازِمَكِ؟ أَما تَدْرينَ أَنْ لا حيلةَ لي في ذٰلِكَ؟»

وزَأَرَتِ الرِّيحُ، وتَساقَطَتْ دُفْعةٌ عظيمةٌ مِنَ الثَّلْجِ، وأَرْدَفَ هُوَ يَقولُ بصَوتٍ مَهْموسٍ ذَليلٍ: «اِصْفَحي عَنّي، ولا تَغْضَبي لِقَوْلي، فما قُلْتُ إلَّا الصِّدْقَ!»

---

(١) الإفْريز: الرَّصيف.

لقد تَكَلَّمَ بمَذَلّةِ العاشِقِ، ولٰكِنَّ صَوْتَهُ كانَ يَحْمِلُ في طَيّاتِهِ الكَثيرَ مِنَ العِنادِ والإصْرارِ، بلِ المَزيدَ مِنَ العَزْمِ.

وقالَتْ أَخيرًا وهْيَ تُقاوِمُ مَعْرَكَةً نَشَبَتْ في داخِلِها: «هٰذا خَطَأٌ، لقد أَخْطَأْتَ كَثيرًا، وأَرْجوكَ، بل أَضْرَعُ إِليكَ أَنْ تَنْسى ما قُلْتَ كما أَنّي سأَنْساهُ أَنا».

قالَ: «دونَ هٰذا خَرْطُ القَتادِ، ولن أَنْسى، لن أَنْسى ولو حاوَلْتُ النِّسْيانَ. كُلُّ كَلِمةٍ نَطَقَ بها فَمُكِ، وكُلُّ نَظْرةٍ رَمَتْها عَيْناكِ، قد حُفِرا حَفْرًا في عَقْلي وقَلْبي!»

فهَتَفَتْ بصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «كَفى... كَفى...».

وحاوَلَتْ عَبَثًا أَنْ تُكْسِبَ وَجْهَها، الَّذي كانَ يَرْمُقُهُ بشَغَفٍ وحُبٍّ، مَظْهَرَ الغَضَبِ والتَّبَرُّمِ.

وما أَبْطَأَتْ بَعْدَما أَخْفَقَتْ في مُحاولَتِها أَنْ قَفَزَتْ إلى داخِلِ العَرَبةِ. ولٰكِنَّها ما كادَتْ تَـ ـدُ نَفْسَها وَحيدةً في المَمَرِّ حتّى تَرَيَّثَتْ تُفَكِّرُ بما وَقَعَ لَها الآنَ... ومَعَ أَنَّها لم تَتَذَكَّرْ ما قالَهُ وما قالَتْهُ، أَيْقَنَتْ أَنَّ هٰذِهِ المُقابَلَةَ العابِرَةَ قد أَدْنَتْ أَحَدَهُما مِنَ الآخَرِ لدَرَجةٍ مُخيفةٍ؛ فلَهِفَتْ نَفْسُها، لٰكِنَّها فَرِحَتْ وتَوَلَّتْها مَسَرَّةٌ!

ودَلَفَتْ إلى مَقْصورَتِها وتَهالَكَتْ على المَقْعَدِ، وهْيَ نُهْبةٌ لمَشاعِرَ شَتّى وخَلَجاتٍ كَثيرةٍ. وقَضَتْ ساعاتِ اللَّيْلِ بطولِها ساهِرةً لا يَغْمُضُ لها جَفْنٌ. ولٰكِنْ، في كُلِّ ما مَرَّ عليها في تِلكَ اللّيلةِ، لم يَكُنْ هُناك شَيْءٌ مُزعِجٌ أو مُفْزِعٌ، بل كانَتْ أَفْكارُها شَبيهةً بأَحْلامِ حُلْوةٍ عَذْبةٍ، وكأَنَّ الدُّنْيا كانَتْ تَتَمَخَّضُ لها عَنْ سَعادةٍ لم تَسْبُرْ لَها غَوْرًا مِنْ قَبْلُ.

وفي ساعةِ الصُّبْحِ الباكِرِ غَلَبَها الكَرى على أَمْرِها، فاسْتَسْلَمَتْ للوَسَنِ[1]، ولم تَسْتَيْقِظْ إلَّا والقِطارُ يُشْرِفُ على أَرْباضِ بطرسبرج.

ووَصَلَ القِطارُ أَخيرًا إلى المَحَطّةِ، ولمّا دَنا مِنْها زَوْجُها، رَمَقَتْهُ بنَظْرةٍ فاحِصةٍ، ورَأَتْ أُذُنَيْهِ، وكأَنَّها تَراهُما لأَوَّلِ مَرّةٍ في حَياتِها، وتَساءَلَتْ مُتَعَجِّبةً عن سَبَبِ بُروزِ هاتَيْنِ الأُذُنَيْنِ، وصَرامةِ هٰذا الوَجْهِ، وافتِقارِ زَوْجِها إلى الوَسامَةِ والقَسامَةِ والجاذِبِ!

وعاجَلَها زَوْجُها بالتَّحِيَّةِ وهْوَ يَبْتَسِمُ ابتِسامَتَهُ الساخِرَةَ التَّقْليدِيَّةَ، ويَحْدِجُها بنَظْرةٍ مُتَفَرِّسةٍ مُتَأَمِّلةٍ.

---

(١) الوَسَن: شِدّة النُّعاس.

وقد شَعَرَتْ على التَّوِّ بشَيْءٍ يَضْغَطُ على فُؤادِها، وامْتَعَضَتْ، وكأَنَّها كانَتْ تَتَوَقَّعُ أَنْ تَرى شَيْئًا آخَرَ، أَنْ تَراهُ في شَكْلٍ آخَرَ وأَنْ تَلْقاهُ بعاطِفَةٍ أُخرى. . .

وكانَ هٰذا شُعورُها المُلازِمُ لَها كُلَّما اجْتَمَعَتْ إِلى زَوْجِها، إِلَّا أَنَّها لم تَعْرِفْ كُنْهَهُ قَبْلَ اليَوْمِ، أو على الأَصَحِّ لم تَحْدُسْ حَقيقتَهُ إِلَّا بَعْدَ اتِّصالِها بفرونسكي!

وقالَ الرَّجُلُ: «أَجَلْ، ها أَنَذا زَوْجُكِ المُخْلِصُ الأَمينُ، آتي بنَفْسي وكُلِّي شَوْقٌ إِلى استِقْبالِكِ!»

ولم يَخْلُ صَوْتُهُ مِن لَهْجةِ التَّهَكُّمِ الَّتي تَعْهَدُها فيهِ، وإِنْ كانَتْ تُعَبِّرُ تَمامًا عن صَراحتِهِ ومَشاعِرِهِ الصّادقةِ. . .

وقالَتْ: «وسيرج؟ أَهُوَ في صِحّةٍ جَيِّدةٍ؟»

قالَ: «وهل هٰذِهْ مُكافَأَتُكِ لي على شَوْقي؟ إِنَّه في أَحْسَنِ حالٍ».

أَمّا فرونسكي فلم يُحاوِلْ أَنْ يَنامَ في تِلْكَ اللَّيْلةِ. وقد لَزِمَ مَقْعَدَهُ وهْوَ يَرْقُبُ كُلَّ حَرَكةٍ. كانَ بشَخْصِيَّتِهِ القَوِيّةِ يُؤَثِّرُ في النّاسِ بطَبيعتِهِ الَّتي تُوحي بالصَّرامةِ وعَدَمِ التَّرَدُّدِ، أَمّا ما انْطَبَعَ على أَساريرِهِ[1] اللَّيلَةَ فهْوَ العَزْمُ والإِصْرارُ. وقد جَعَلَ يَنْظُرُ إِلى النّاسِ كأَنَّهُمْ أَشياءُ. وشَعَرَ نَحْوَهُ بالكَراهِيةِ مُوَظَّفٌ صَغيرٌ كانَ يَجْلِسُ قُبالَتَهُ، وكانَ مَبْعَثَ كُرْهِهِ نَظْرَتُهُ المُتَحَدِّيةُ المُحْتَقِرَةُ. وطَلَبَ منهُ المُوَظَّفُ نارًا، ثُمَّ حاوَلَ أَنْ يُجاذِبَهُ أَطْرافَ الحَديثِ. وتَعَمَّدَ أَخيرًا أَنْ يَميلَ عليهِ حتّى يُشْعِرَهُ بأَنَّهُ ليسَ مُجَرَّدَ شَيْءٍ بل إِنسانٌ مِثْلُهُ.

بَيْدَ أَنَّ فرونسكي نَظَرَ إِليهِ كما يَنْظُرُ إِلى المِصباحِ، فتَجَهَّمَ وَجْهُ الفَتى، وشَعَرَ بأَنَّهُ بَدَأَ يَفْقِدُ ثِقَتَهُ بنَفْسِهِ تَحْتَ وَطْأَةِ هٰذِهِ النَّظَراتِ الَّتي تَأْبى أَنْ تَعْتَرِفَ بهِ كإِنسانٍ.

لم يُبْصِرْ فرونسكي شَيْئًا، ولم يُبْصِرْ أَيَّ إِنسانٍ. وشَعَرَ أَنَّهُ مَلِكٌ، ليسَ لَظَنِّهِ أَنَّهُ اسْتَرعى انتِباهَ أَنّا وأَثَّرَ فيها، فهْوَ لم يُؤْمِنْ بهٰذا بَعْدُ، بل لأَنَّ التَّأْثيرَ الَّذي أَحْدَثَتْهُ أَنّا في قَلبِهِ وشُعورِهِ سَبَّبَ لهُ السّعادةَ والاعْتِزازَ وكَثيرًا مِنَ الاعْتِدادِ.

وتَراءى لهُ أَنَّ قِواهُ الَّتي كانَتْ في الماضي مُوَزَّعةً مُبَدَّدةً مُشَتَّتَةً، قد تآلَفَتِ الآنَ وتَجَمَّعَتْ، واتَّجَهَتْ إِلى ناحيةٍ واحدةٍ، إِلى هَدَفٍ فَرْدٍ. وقد سَرَّهُ ذٰلِكَ، وعَلِمَ فَقَطْ أَنَّهُ

---

(١) أَسارير: خُطوطٌ في الجَبْهَة.

صَدَقَها الخَبَرَ، وأَنَّهُ جاءَ إلى حَيثُ تُقيمُ، وأَنَّ مَعانيَ حَياتِهِ، وسَعادتِهِ، ومَسَرَّتِهِ، تَتَوَقَّفُ جَميعًا على استِجلاءِ طَلْعتِها والإصْغاءِ إلى نَبْرَتِها.

ولم يُخْفِ عَنْها الحَقيقةَ ساعةَ الْتَقاها لَدى مَخْرَجِ عَرَبةِ القِطارِ، بل جَهَرَ بما يَكُنُّهُ لها في صَدْرِهِ... وسَرَّهُ ذٰلِكَ، سَرَّهُ يَقينُهُ بأَنَّها مُحيطةٌ بما يَضُمُّهُ لها بينَ جَوانِحِهِ.

ووَصَلَ القِطارُ إلى بطرسبرج فتَرَجَّلَ مِنْهُ وهْوَ يَشْعُرُ، على الرَّغْمِ مِن أَرَقِهِ وتَسَهُّدِهِ، بالقُوَّةِ والنَّشاطِ. ووَقَفَ في مَكانٍ يَرْقُبُ نُزولَها وهْوَ يُمَنِّي نَفْسَهُ برُؤْيتِها وسَماعِ صَوْتِها. ولٰكِنَّهُ قَبْلَ أَنْ يُبْصِرَ بِها، وَقَعَ طَرْفُهُ على زَوْجِها الَّذي كانَ يَمْشي مَرْفوعَ الرَّأْسِ يَتْبَعُهُ ناظِرُ المَحطَّةِ.

في تِلكَ الفَيْئةِ فَقَطْ تَذَكَّرَ فرونسكي أَنَّ هُناكَ إِنْسانًا مُتَّصِلًا بها اتِّصالًا وَشيجًا، وأَنَّ هٰذا الإنْسانَ هُوَ زَوْجُها.

زَوْجُها!... كانَ يَعْلَمُ أَنَّ لها قَرينًا، لٰكِنَّهُ أَنْكَرَ وُجودَهُ ولم يَعْتَرِفْ بِهِ. ورآهُ الآنَ، ورَأَى رَأْسَهُ المَرْفوعَ، ومَنْكِبَيْهِ، وسِرْوالَهُ الأَسْوَدَ الضَّيِّقَ... ورَأَى يَدَهُ تَمْتَدُّ إِلَيْها وتَقْبِضُ على ذِراعِها بثِقةٍ، كما يُمْسِكُ الإِنْسانُ مَتاعًا لهُ يَمْلِكُهُ مِن دونِ سِواهُ.

وشَعَرَ بمِثْلِ ما يَشْعُرُ بِهِ رَجُلٌ بَرَّحَ بِهِ الظَّمَأُ، ولمّا وَصَلَ إلى مَنْهَلٍ عَلِمَ أَنَّ كَلْبًا قد وَلَغَ فيهِ، ولَوَّثَ ماءَهُ!

واضْطَرَبَ فرونسكي اضْطِرابَ الِاشْمِئْزازِ حينَ رَأَى كارنينَ بقَدَمَيهِ الضَّخْمَتَينِ ويَدَيهِ المُهْتَزَّتَينِ. أَمّا هِيَ، فكَعَهْدِهِ بِها جَميلةٌ فاتنةٌ، ومَنْظَرُها يُثيرُهُ ويَهيجُهُ ويَمْلَأُ روحَهُ أَمَلًا ويَأْسًا، أَجَلْ أَمَلًا ويَأْسًا!

وإِنَّهُ لَيَسْتَعْرِضُ بناظِرَيْه وَجْهَ أَنّا وهْيَ تَتَحَدَّثُ إلى زَوْجِها، ويَتَتَبَّعُ خِلْسةً الانْطِباعاتِ المُخْتَلِفةَ على أَمائِرِها الدَّقيقةِ، إذ شَعَرَ بَغْتةً بالنُّفورِ الشَّديدِ مِنْ هٰذا الرَّجُلِ الدَّخيلِ! أَلَيْسَ هُوَ بالدَّخيلِ؟ أَلا يَحولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ المَرأَةِ الَّتي غَزَتْ قَلْبَهُ في لَحْظةٍ خاطِفةٍ؟!

وبَدا لهُ مِمّا رآهُ أَنَّ أَنّا بَعيدةٌ كُلَّ البُعدِ عن زَوْجِها بمَشاعِرِها وأَفْكارِها، وأَنَّها تَعيشُ في مَنْأًى عَنْهُ لا يَصِلُها بِهِ إِلَّا رابِطَةُ الزَّوْجِيَّةِ، أَمّا العاطفةُ فلَيْسَ لها في قَلْبِها وُجودٌ.

فهْيَ لا تُحِبُّهُ، وهْيَ لن تُحِبَّهُ أَبَدًا.

وسَرَّهُ هٰذا الِاكْتِشافُ فتَقَدَّمَ نَحْوَهُما بَطيئًا مُتَّئِدًا. وأَيْقَنَ، ونَفْسُهُ جَذْلى، أَنَّها شَعَرَتْ بِهِ

يَدْنُو مِنْها، فتَمَلْمَلتْ في مَكانِها، وكأَنَّها تَوَدُّ أَنْ تَلْتَفِتَ، ولٰكِنْ لا تَجْرُؤُ. وواصَلَتْ حَديثَها مَعَ زَوْجِها، وانْتَظَرَتْ. أَجَلْ، هٰذا ما أَيْقَنَ بِهِ... اِنْتَظَرَتْ.

وقالَ وهْوَ يَنْحَني مُسَلِّمًا باحْتِرامٍ: «عَسى أَنْ تَكوني قد قَضَيْتِ ليلةً مُريحةً في القِطارِ يا سَيِّدتي؟»

وغَضَّتِ الفاتنةُ مِن عَيْنَيْها قَليلاً، ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَها... فلم يَرَ في أَساريرِها ما رَآهُ قَبْلًا مِنْ نَظراتِ الدُّعابةِ والمُزاحِ، بل شاهَدَ عِوَضًا مِن ذٰلِكَ، شُعلةً عَجيبةً تَضْطَرِمُ بها عَيْناها لَحْظةً خاطِفةً، ولٰكِنَّها كافيةٌ، بل فيها ما يَفوقُ كُلَّ نَثْرٍ ونَظْمٍ، فيها آيةُ الحُبِّ الكُبْرى، وشُعلتُهُ الخالدةُ الَّتي لا تَخْمُدُ ولا تَنْطَفِئُ.

والْتَفَتَ الزَّوْجُ إلى فرونسكي، ولَمَعَتْ عَيْناهُ كَمَنْ يَتَلَهَّبُ غَيْظُهُ، ونَظَرَ إليه شَزَرًا[1]، وجَعَلَ يَقْدَحُ زِنادَ ذاكرتِهِ لَعَلَّهُ يَحْدُسُ مَنْ يَكونُ هٰذا مِنَ النّاسِ.

لقد تَلاقى في تِلْكَ الفَيْنةِ نِدّانِ[2] مُتَكافِئان، وقَرْنانِ مُتَعادِلان. واصْطَدَمَتْ إرادةُ هٰذا بإرادةِ ذاكَ، فنَفَرَ هٰذا مِنْ ذاكَ. لٰكِنَّ أَنّا سارَعَتْ تَقولُ وهْيَ تُحاوِلُ أَنْ تُنْقِذَ المَوْقِفَ: «ذَرْني يا عَزيزي أُقَدِّمْ لكَ الكُونتَ فرونسكي...».

فقاطَعَها زَوْجُها ببُرودٍ وهْوَ يَمُدُّ يَدَهُ إلى فرونسكي: «يُخَيَّلُ إِليَّ أَنّي أَعْرِفُكَ، أَما تَقابَلْنا مِنْ قَبْلُ؟» واسْتَدارَ إلى زَوْجِهِ، وأَرْدَفَ باللَّهْجَةِ نَفْسِها: «لَقَدِ ارْتَحَلْتِ مَعَ الأُمِّ وعُدْتِ مَعَ الِابْنِ كما أَرى...».

ولم يَفُتْها المَعنى الَّذي رَمى إلِيهِ زَوجُها، لٰكِنَّها تَغاضَتْ مُتَجَلِّدةً، ولم تَقُلْ كَلِمةً.

ومَضى زَوجُها يَقولُ وهْوَ يَنْثَني إلى فرونسكي: «أَلَمْ يَبْقَ لكَ مَأْرَبٌ في موسكو حتّى رَجَعْتَ، أَمْ إِنَّكَ قادِمٌ في إِجازةٍ؟»

وعَجَّلَ يُخاطِبُ زَوجَهُ: «ما أَصْعَبَ الفِراقَ يا عَزيزتي! أَلَم تَذْرِفي الدُّموعَ ساعةَ غادَرْتِ موسكو؟»

وكانَ يَقْصِدُ مِنْ كَلِماتِهِ أَنْ يُنَبِّهَ فرونسكي إلى رَغْبتِهِ في التَّفَرُّدِ بزَوجِهِ. بَيْدَ أَنَّ الشّابَّ

---

(١) نَظَرَ إليهِ شَزَرًا: نَظَرَ إليهِ بجانِبِ عَيْنِهِ مُعرِضًا عنهُ.

(٢) النِّدّانِ: النَّظيرانِ، المُتَماثِلانِ.

تَجاهَلَ الغايةَ وضَرَبَ صَفْحًا عَنِ المَرْمى، وقالَ: «لَشَدَّ ما أَتَلَهَّفُ إلى زِيارتِكُمْ في أَقْرَبِ وَقْتٍ يا سَيِّدتي!»

فحَدَجَهُ كارنينُ بعَيْنِ اللَّائمِ المُتَبَرِّمِ، وقالَ: «ثِقْ أَنَّ زِيارتَكَ تَجْلِبُ لنا المَسَرَّةَ يا سَيِّدي، ونَحْنُ نَمْكُثُ في البَيْتِ دائمًا يَوْمَ الِاثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ أُسبوعٍ».

واسْتَدارَ كأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يُشْعِرَهُ بأَنَّهُ لا يَرْغَبُ في مُتابَعَةِ الحِوارِ، ثُمَّ تَأَبَّطَ ذِراعَ زَوْجِهِ وقالَ: «أَكْثَرُ ما يُسْعِدُني يا عَزيزتي انتِهابُ دَقائقَ مِنْ وَقْتِي لأَراكِ فيها، وأُمَلِّيَ طَرْفي في حُسْنِكِ، وأُمَتِّعَ نَفسي بالِإصْغاءِ إلى كلِماتِكِ».

فقالَتْ مازِحَةً: «لا تُبالِغْ في وَصْفِ إخلاصِكَ، فأَنا لا أُقَدِّرُ الأُمورَ بما تَسْتَحِقُّها!»

وأَنْصَتَتْ مِن دونِ انْتِباهٍ إلى خُطُواتِ فرونسكي المُبْتَعِدةِ، وشَعَرَتْ أَنَّ قَلْبَها يُرافِقُهُ، وأَنَّ روحَها عَصَتْ جَسَدَها، وعَصَتْ عَقْلَها، وانْتَزَعَتْ فَرْعها مِن جَذْرِها لتَلْحَقَ بروحِهِ، وتَصْحَبَ روحَهُ، وتُواكِبَ هٰذِهِ الرُّوحَ الحَبيبةَ.

إنَّ لِشَبابِهِ بُرْدًا قَشيبًا[1]، وإنَّ لِرَيّاهُ[2] أَرَجَ الغُصْنِ الرَّطيبِ. ولٰكِنَّها اسْتَشْعَرَتِ النَّدَمَ، وشاءَتْ أَنْ تَتَدارَكَ الأَمْرَ، فَسَأَلَتْ زَوجَها عن وَلَدِها «سيرج»، وعن صِحّتِهِ وتَصَرُّفاتِهِ.

فما كانَ مِنَ الرَّجُلِ الرَّصينِ إلَّا أَنْ أَجابَها مُبْتَسِمًا: «رَوَتْ لي الحاضنةُ ماريتا أَنَّهُ لم يُفْرِطْ قَطُّ في المَرَحِ والسُّرورِ كما أَفْرَطَ في أَثْناءِ غِيابِكِ، وهٰذا يَدُلُّكِ على أَنَّ زَوْجَكِ هُوَ الوَحيدُ الَّذي افْتَقَدَكِ».

فقَرْقَرَتْ أَنّا ضاحِكةً، واسْتَتْلى هُوَ يَقولُ: «وثَمَّةَ إنْسانٌ آخَرُ كانَ لا يَفْتَأُ يَسْأَلُ عَنْكِ، وكأَنَّهُ يَتَعَجَّلُ أَوْبَتَكِ، وهٰذا الشَّخْصُ هُوَ صَديقَتُكِ «الكونتس ليديا إيفانوفنا».

وصَمَتَ فَينَةً، ثُمَّ أَرْدَفَ كمَنْ يَتَذَكَّرُ شَيْئًا غابَ عنهُ: «وهل صادَفَكِ التَّوْفيقُ في مُهِمَّتِكِ؟ هل نَجَحْتِ حَيْثُ أَخْفَقَ غَيْرُكِ؟»

فلاحَ البِشْرُ على مُحَيّاها وأَجابَتْ: «كُلُّ التَّوْفيقِ والحَمْدُ للهِ. لقَدْ كانَ الخِصامُ على أَشَدِّهِ بَيْنَ أوبلنسكي وزَوْجِهِ، ولولا وُجودِي لانْفَصَلَ الِاثْنانِ وتَصَدَّعَ البُنْيانُ وتَشَتَّتَتِ الأُسرَةُ».

---

(١) قَشيبًا: جَديدًا نَظيفًا.

(٢) رَيّاهُ: رائِحَتُهُ الطَّيِّبةُ.

وطَفِقَتْ تَقُصُّ عليهِ بالتَّفْصيلِ دَقائِقَ رِحْلتِها برِفْقَةِ الكونتس فرونسكي إلى موسكو، وما شاهَدَتْهُ مِنْ حادِثٍ مُرَوِّعٍ في المَحطَّةِ.

وقالَ زَوْجُها بَعْدَ انتِهائِها مِن سَرْدِها: «إنّي وأَيْمُ الحَقِّ لا أَجِدُ ما أُعَلِّلُ بِهِ جُنوحَ أَخيكِ سِوى مَيلِهِ إلى المُتْعَةِ المُحَرَّمَةِ، واللَّذَّةِ المُبْتَذَلَةِ الَّتي لا يَسْتَسيغُها كُلُّ ذي حَصافةٍ وإرادةٍ».

فرَنَتْ إليهِ أنّا مُبْتَسِمةً مُتَفَكِّرةً. إنَّهُ كَعَهْدِها بِهِ صارِمٌ في نَظْرتِهِ وتَفْكيرِهِ، عَنيدٌ في مَبْدَئِهِ، لا يُطيقُ الِانْحِرافَ، ولا يَخْشى مِنْ قَولِ الحَقِّ، وَلَوْ كانَ ضِدَّ أَقْرَبِ المُقَرَّبينَ إِلَيْهِ، بَلْ لَوْ كانَ ضِدَّهُ هُوَ بالذّاتِ. وكانَتْ أَنّا تُكْبِرُ فيهِ هٰذهِ العادةَ؛ كانَتْ تَثِقُ بِهِ وتَحْتَرِمُهُ لخُلُقِهِ وطَبْعِهِ. فهُوَ لا تَروقُهُ المَباذِلُ الَّتي يَنْغَمِسُ فيها سِواهُ مِنَ الرِّجالِ، وهُوَ يَأْنَفُ مِنْ مُصادَقَةِ أَيِّ كانَ، مَتى ارْتابَ في أَمْرِهِ ونَواياهُ.

وقالَ الرَّجُلُ: «على أَنّي مَسْرورٌ لنَجاحِكِ في إزالةِ الغَمامةِ الَّتي ظَلَّلَتْ سَماءَ العائِلَةِ».

إنَّ شُعاعَ الرَّجُلِ يَدُلُّ على شَمْسِهِ، وإنَّ هُدوءَهُ في القَوْلِ والتَّفْكيرِ لأَبْلَغُ دَليلٍ على رَجاحَتِهِ واتِّزانِهِ... وقد خَجِلَتْ أَنّا ساعَةَ انْثَنى يَقولُ بَغْتَةً: «أَخْبِريني يا عَزيزتي عن مَوْقِفِ الأَهْلينَ في موسكو حِيالَ التَّجْنيدِ الإجْباريِّ الَّذي أَثَرْتُ مَوْضوعَهُ أَخيرًا في الحُكومةِ».

أَجَلْ، خَجِلَتْ أَنّا لأَنَّها أَهْمَلَتْ شَأْنَ زَوجِها، فلم تُفَكِّرْ فيهِ دَقيقةً، ولم تُحاوِلْ سَبْرَ آراءِ النّاسِ في ما يَعْني زَوْجُها مِنْ أُمورِ السّياسةِ. بَيْدَ أَنَّها، وقد كانَتْ تَعْرِفُ في زَوجِها مَيلَهُ إلى الإطْراءِ والثَّناءِ، طَفِقَتْ تَسْأَلُهُ بحَمِيَّةٍ وحَماسةٍ عمّا انْتَهى إليهِ مَشْروعُهُ، وعَنِ المَراحِلِ الَّتي مَرَّ فيها، ويَنْتَظِرُ أَنْ يَمُرَّ فيها في أَثْناءِ الأَيّامِ المُقبِلَةِ.

وسُرَّ كارنينُ لإقْبالِ زَوْجِهِ عَلَيْهِ وإظْهارِها كُلَّ هٰذهِ الحَماسَةِ، فأَجابَ: «إنَّ مَشْروعي يا عَزيزتي، وَليدُ تَفْكيرٍ وإعدادٍ طَويلَيْنِ، لهٰذا لَمْ يُدْهِشْني ما لَقِيَهُ مِنْ مُعارَضةٍ وتَأْييدٍ. وإنَّ المُعارَضةَ والتَّأْييدَ لَيَدُلّانِ على ما انْتَهى إليهِ أَمْرُ النّاسِ مِنْ إكْبابِهِمْ على بَحْثِ الأُمورِ مَلِيًّا ووَزْنِها بميزانِ العَقْلِ والتَّمْييزِ الحَسَنِ».

ونَظَرَ إلى ساعتِهِ، وأَرْدَفَ: «أَمّا الآنَ فأنا ذاهِبٌ، يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ إلى عَمَلي، وثِقي أَنّي جِدُّ مُغْتَبِطٍ لعَودتِكِ».

فَتَمْتَمَتْ بصَوْتٍ خافِتٍ: «لتُرافِقْكَ السَّلامةُ يا زَوْجي!»

سلسلة المفيد

المفيد في الأدب العربي	الجزء الأول
المفيد في الأدب العربي	الجزء الثاني
المفيد في الأدب العربي	الجزء الثالث (يصدر قريباً)
المفيد في القواعد و البلاغة و العروض	الجزء الأول
المفيد في القواعد و البلاغة و العروض	الجزء الثاني (يصدر قريباً)
المفيد في القواعد و البلاغة و العروض	الجزء الثالث (يصدر قريباً)

الثقافة الأدبيّة العالميّة

تولستوي	أنّا كارنينا (لها دراسة تحليلية نقديّة صدرت في كتيّب مستقلّ)
غوته	آلام فرتر (يصدر قريباً)
سرفنتس	دون كيخوت (يصدر قريباً)
طاغور	سلّة الفاكهة (يصدر قريباً)

علي مولا

عالم المعرفة
.انا كارنينا
C1 رواية
S.P500
1 0 2 4 3 4

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com